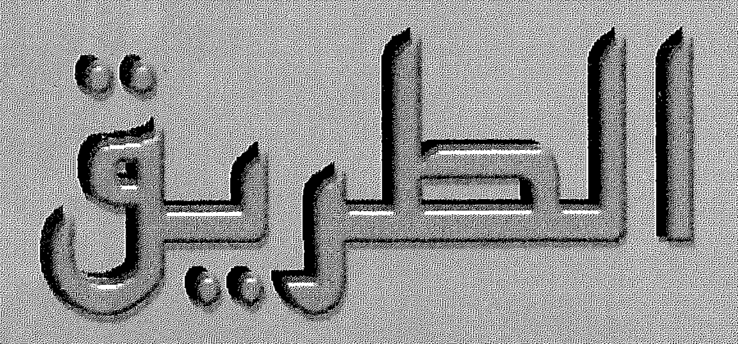
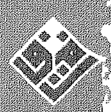




المشروع القومي للترجمة

الطريق

تأليف : ميغيل ديليبس
ترجمة : سالم ياسين رشيد
مراجعة : سليمان العطار

170

المشروع القومى للترجمة

الطريق

تأليف

ميغيل دليبيس

ترجمة

بسام ياسين رشيد

مراجعة

سليمان العطار



٢٠٠٠



المقدمة

« أبنائى لكل منا فى الواقع طريق محدّد فى الحياة علينا أن نواصله دائماً وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذى خصّصه اللّه لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع فى نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن فى الأعلى ولا فى أكبر ولا فى الأرفع ولا فى الأشهر ، بل فى اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعاً » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذى جعله الروائى الإسبانى ميغيل دلیبیس (١٩٢٠) عنوانًا لروايته التى ظهرت عام ١٩٥٠ . أما المتكلم هنا فراهب ورع تقى ، وأما المعنيان بالأمر من المخاطبين فهما صبى فى الحادية عشرة ووالده الجبّان الذى قرر من سنين خلت أن يبعث بولده إلى المدينة ليواصل دراسته الثانوية فيها ويصبح من ثمّ ذا شأن ومكانة فى الحياة : « ولا سيكون للولد شأن آخر .. كونى على ثقة من ذلك . إنه لن يقضى حياته مربوطاً إلى هذه الدكّة مثل العبد ... أو قولى مثلى » . ولكن الابن كان يرى فى قرار أبيه خروجاً عن الطريق الذى حدده له الرب : «وفكر دانييل هو يتذكر ذلك أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة فى داخله » . وهكذا فإن المؤلف يطرح ومنذ البداية فكرة التناقض هذه بين ما يريده الأب لابنه وما يحلم به الابن لنفسه ؛ قرارات لا تقبل النقض بازاء أحلام لا تقبل التحقيق :

- « القضية محسومة فلا تفتحى باب الموضوع ثانية »

- « لو كان بيده لاكتفى بـزوج من الأبقار ودكان جبن صغير ، ولا كتفى بالبستان (الجنينة) الصغيرة الكائنة خلف بيتهم » وفى هذا تعريج على إحدى سمات أدب ميغيل دليبيس الواقعى الاجتماعى والمتمثلة بانتقاده لظواهر المجتمع السلبية .

لقد وصفت رواية « الطريق » بأنها من أدب الطفولة لأن مؤلفها اعتمد مجموعة من الصبيان محوراً لأحداث روايته وواجهة لعرض أفكارهم وعوالمهم المرحة الساذجة :

- « ما أجملها دانييل ، أليس كذلك ؟ إنها بقرة حلوب - قالت له أمه .

- لا أماه ... إنها ليست حلوياً ... انظرى ... إنها لا تحمل جراراً

وضحكت الأم من سذاجة ولدها وضمته إلى صدرها قائلة :

- البقرة الحلوب لا تحمل جراراً يا ولدى » .

« ولمع فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :

- فليس اللقلق إذا من يأتى بالأطفال ! لقد كان يبدو لى ذلك غريباً ، حتى اننى كنت أقول لنفسى : لماذا يزور اللقلق أمى عشر مرات وهى لا ترغب فى كثرة الأولاد بينما لا يزور جارتنا ولا مرة وهى التى تتمنى أن يكون لها ولد ؟ ! »

ولكن يحدث أن يذهب المؤلف بعيداً فى تقدير درجة نضوج أبطال روايته من الفتية الصغار فيضع على ألسنتهم ما لا يصدر عادة إلا عن إنسان كبير فى عمره ناضج فى فكره :

- « ولطالما وقف دانييل يتأمل دروب بلدته المتعرجة وساحتها المليئة بالبعر والحصى وأبنيتها الكئيبة التى صُمّمت بحس خدمى محض . ولكنه ما كان يستاء من ذلك . فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هو رجالها وتاريخها » .

كان الصبى دانييل يعشق بلدته ويعشق الوادى الذى يضمها ويعشق كل ما فيها وما فيه : « إنه غير معنى بالتقدم ، والتقدم عنده لا يساوى قرشاً . تهّمه ، فى المقابل ، القاطرات التى يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة و(بركة الإنكليزى) وتيارات النهر الصاخبة المجنونة وملعب الصولجان ودقات أجراس النواقيس وقط (الفلفة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة وقطع الروث تصاغ بعناية ووقار وفن . وتهمّهُ الزوايا الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ونقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ونمش وجه أوكا-أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال البيت ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء » .

ولذلك نراه ، وقد اقترب موعد رحيله عن البلدة ودنت ساعة الفراق ، يستعرض كلّ ما أسعفته به ذاكرته الغضّة الفتية من صور ومواقف عاشها مع صديقيه الحميمين روكى (البعرور) وجيرمان (الأقرع) وكل ما جرى له ولهما من أحداث ومفارقات مع بقية شخوص الرواية . إن « الطريق» رواية استرجاعية من الطراز الأول .

ولما كان ميغيل دليبيس صاحب نزعة واقعية اجتماعية ومعنياً بوصف عالم الناس البسطاء ولا سيما فى القرى وفى مدن الأطراف والمحافظات فقد عمد إلى حشد نماذج كثيرة ومتنوعة من الشخوص ذوى السلوك المتناقض والعادات البلدية والأفكار الغريبة سلباً وإيجاباً ، ثم راح يروى الحوادث تباعاً وينثر الآراء والأفكار على ألسنة ذلك الحشد جاعلاً من الرواية مجموعة من القصص والحكايات المنفصلة فى أحداثها ، المتصلة فى شخوصها وفى مكان وقوعها وزمانه .

أما أبطال الرواية فهم ثلاثة أولاد : دانييل (البوم) الذى يمتاز بذكائه ودقة ملاحظاته ورومانسيته وروكى (البعرور) الذى يمتاز بقوته وولعه بالمجازفة واستعراض مهاراته البدنية وجيرمان (الأقرع) الخبير بالطيور والعارف بأنواعها وطباعها . وغير هؤلاء الفتية ، العديد من الرجال والنساء :

حدّاد قوى الجسم مفتول العضلات لا يحلم لولده بدراسة ولا بتقدم وراهب ورع تقى يراه الناس قديساً عظيماً ولكنهم يلجأون اليه فى ضرّائهم دون سرّائهم .

وملحد غير مؤمن يعلن على رؤوس الأشهاد أن لا جدوى من الورع والتقى وأنه لن يطأ عتبة الكنيسة مستقبلاً .

وإسكافى مغرم بإنجاب الأولاد والمزاوجة بين الطيور والتطلع ملياً إلى سيقان النسوة المارات من أمام ورشته .

و(أقطع) يغرم بمسلولة فيتزوجها بعد أن يصد عن ثانية تقدم على الانتحار غيرة عليه واحتجاجاً على زواجه .

ومعلم لا يكف عن معاقبة طلابه ولا يفتأ يتحدث عن عصامية لم تورثه إلا الفقر والجوع . وشقيقتان عانستان ترفع كبراهن علم الفضيلة وتحشر أنفها فى كل صغيرة وكبيرة وتضرب الثانية بالفضيلة عرض الحائط وتفرّ مع من سلبها لبّها وعفافها ثم نقودها قبل أن يتركها ذليلة خائبة .

ومهاجر يغادر بلدته الصغيرة إلى المكسيك وهو نصف مغفل ليعود إليها بعد عشرين عاماً وقد صار من ذوى الجاه والثروة .

وغير هؤلاء وأولئك الكثير .

بل إن المؤلف يشرك الطبيعة نفسها فى بطولة روايته ويجعل منها عنصراً حاضراً على الدوام . فمن جبل لا يكف صبيّنا عن التطلع إليه ، ومن بركة يتردد عليها للسباحة فيها مع صاحبيه أيام الصيف ، ومن نهر صاخب بمائه جارف بتياراته ، ومن وادٍ هو كل شىء فى حياته .

أما خبرة ميغيل دليبيس الذاتية فى الطيور فيودعها فى شخص جيرمان (الأقرع) . وأما تجربته الشخصية فى الصيد فينقلها إلينا من خلال ولع الجبّان بهذه الممارسة .

لقد حظيت « الطريق » وهى الثالثة فى أعمال ميغيل دليبيس الروائية ، بقبول النقاد وحسن ثنائهم ، وعدوها بداية مرحلة فى مسيرته التى بدأها قبل ذلك بروايتين هما : «ظلال شجرة السرو وارفة (١٩٤٦) » و « مازال الوقت نهاراً (١٩٤٧) » . وتتمثل جدّتها فى الجو المرح البرىء الذى يشيعه المؤلف فى أحداثها وأبطالها وصولاً فى بعض الأحيان إلى

رسم صور كاريكاتورية لبعضهم : « كان دون مويسيس رجلاً طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب . كان هيكلاً من العظام المكسوة بالجلد ، وقد اعتاد فتل فمه فكأنه يحاول عض شحمة اذنه . وكانت حالة الإنبساط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه » ؛ وفى اعتماده أسلوباً سلساً لا يعكره إغراق فى الوصف ولا مبالغة فى استخدام الصفات ، وفى خروجه من مبدأ العقدة الواحدة فى الرواية واعتماده أسلوب القصص المختلفة بأحداثها المتنوعة بعقدها .

وهكذا عّدت رواية « الطريق » البداية الحقيقية لأدب ميغيل دلييبس الروائى ، وصُنّفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية وصدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دلييبس فقد تكرس بعد صدور هذه الرواية واحدًا من أبرز روائيى إسبانيا المعاصرين وواحداً من أفضل ثلاثة مثلوا الأدب الروائى الإسبانى فى فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) جنباً إلى جنب مع لافوريت وكاميلو خوسيه ثيلا .

ويعد فهذه رواية « الطريق » نقدمها إلى القارىء العربى لتكون اسهاماً بسيطاً يقرّبه من عالم واسع وغريب يعطيه أدب عريض وعريق هو جزء من أدب الإنسانية وحضارتها وثقافتها . فعسى أن تنال الرواية والترجمة رضاه .

المترجم

الطريق

كان يمكن للأمور أن تجرى على نحو مـختلف ، ولكنها جرت على هذا النحو . لم يكن دانييل (البوم) ، من أعمـاق سنيه الاحدى عشرة ، راضياً عن سير الأمور هكذا ، وأن تقبلها حـقيقة مقدرة . فإذا كان طموح ابيه فى جعله أكثـر من مجرّد جبّان يبعث الاعـتزاز فى نفس الأب ، فماذا عنه هو ؟ أبوه يسـمى ذلك « تقـدماً » ، ولكن دانيـيل (البـوم) لم يكن مقتنعـاً بذلك تماماً . فربما يعنى إكمال الثانـوية فى المدينة تقدماً على المدى البعيد . خذ مثـلاً على ذلك رامون ابن الصيدلى : إنه يدرس المحاماه فى المدينة ويأتى فى العطلة مخـتالا كالطاووس متعـالياً على الناس ، حتى أنه يسمح لنفـسه عند انصرافه من قدّاس الآحـاد والأعياد بتصحـيح الكلمات التى كان دون خوسيه ، وهو القـديس العظيم ، تفوّه بها من على المنبر . فإذا كان هذا تقدماً فلاريب أن إكمال الثانوية فى المدينة هو أساسه . ولكن شكوكاً كـثيرة تملأ رأس دانيـيل (البوم) إنه يجـد نفسه ملمّـاً بكل ما فى مقـدور الإنسان الإلمام به : يحـتفظ عن ظهر قلب ويكـتب ما هو مفـهوم ويتقن العمليات الأربع ويحسن تطبيـقها . فهل فى وسع العقل الطبيعى أن يلمّ بمـا هو أكـثر من ذلك ؟ يقـال ، فى المقـابل ، أن دراسة الثـانوية فى المدينة تستـغرق سبع سنـوات تتبعـها سبع أخـرى ، فى الأقل ، للدراسة الجامعية ، فـهل يوجد فى الدنيا ما تحتاج معرفته إلى أربعـة عشر عاماً من الجهد ، أى مـا يزيد على عمره بثلاثة أعـوام ؟ « لابّد أن الحياة فى المدينة تعنى إضاعـة الكثير من الوقت ، ثم يأتيك ، وبعـد أربعة عشر عـاماً من الدراسة ، من لا يحسن التـمييز بين طائر ابى زريق والحسّـون أوبين البعر

والروث . فما أغرب الحيـاة وما أشد عبثها وتعسفـها . إنها عمل وكدّ فى مالا نفع فيه أو ما هو قليل الجدوى » .

وتقلّب دانييل (البوم) على فراشة فصدر عن نوابض السرير الحديدى صرير مـزعج . انها ، فيـما يذكر . المرة الأولى الـتى لا يغط فيهـا نائما بمجرد الاستلقاء على الفراش . ففكره الليلة مـشغول بأمور كثيرة ، وقد لا يكون الغد مناسـباً للتفكيـر فيها اذ سـيستقل عند التـاسعة صبـاحاً القطار السريع الصـاعد ولن يعود إلى بلدته حـتى أعياد الميلاد : ثلاثة أشـهر من الحجر المدرسى . وبدا لدانييل (البوم) أن صدره يضيق ، فاستنشق الهواء بقوة مرتين أو ثلاثا . واستـحضر مشهد السفـر ، وقدّر أنه لن يستطيع فى غده حبس دموعه وإن قـال له صديقه روكى (البعرور) إن الرجل الحق هو من لا يبكى ولو مات ابوه .

وليس (البعرور) بالشـخص الاعتيادى ، وأن كبـره بعامين دون أن يبدأ الثانوية ، ولـن يبدأها مادام باكو الحداد لا يحلم بالـتقدّم لولده ، بل يكفيه أن يصـبح حداداً مثله وأن يمتلك من المهارة مـا يلزمه ليكيف الحديد على هواه فيا لهـا مـن صنعة لا يحتاج من يريد ممارستـها أن يدرس أربعة عشر عاماً ولا ثلاثة عشر ولا اثنى عشر ولا عشرة أعوام ولا تسعة ولا عاماً واحداً ، صنعة تجعله رجـلاً قوياً مفتول العضلات كـما هو حال باكو والد (البعرور)

لم يكن دانيـيل (البـوم) يملّ التطلع إلى باكـو الحـداد وهو يتصـّرف بالحـديد فى الكور . كـانت تستهـويه تلكما الذراعـان الغليظتان كـجذعى الشجرة ، المكسوتان بالشعّر الأحمـر الكثيف والمليئتان بالعضلات والأوردة

« لا شكّ أنه قادر على رفع أريكة حجرته بواحدة من ذراعيه الجبارتين دون أن ينال منه التعب » . وصدره ؟ ماذا عن صدره ؟ . فلطالما اشتغل الحدّاد وهو يرتدى قميصه الداخلى ، فبدا صدره الهرقلى فى صعوده وهبوطه مثل صدر فيل جريح . « هذه هى الرجولة الحقة ، رجولة الحدّاد لا رجولة رامون ابن الصيدلى ، المتأنق المشدود الشاحب الذى يبدو مثل بنت ناعمة متغطرسة » . فاذا كان التقدم يعنى هذا فإنه زاهد فى التقدم . ولو كان الأمر بيده لاكتفى بزوج من الأبقار ودكان جبن صغير ولا كتفى بالبستان الصغيرة الكائنة خلف بيتهم . إنه لا يطمع فى أكثرمن ذلك : يصنع الجبن كأبيه طيلة أيام الأسبوع ويتسلى أيام الأحد بالقنص بالبندقية أو بصيد السمك فى النهر أو بلعب الصولجان .

كانت فكرة السفر تثير الغم فى نفس دانييل (البوم) . وينفذ ضوء الطابق السفلى من خلال شقوق الأرضية وتسقط حزمة منه على السقف فتتسمر فوقه . ستنقضى ثلاثة أشهر دون أن يشاهد ذلك الخيط الفسفورى ودون أن يسمع حركات أمه الهادئة وهى تقوم بأعمال البيت ، أو همهمات أبيه المتجهّم على الدوام خشنة جافة . ثلاثة أشهر من دون أن يستنشق ذلك الهواء الذى يدخل الآن عبر النافذة المفتوحة مثقلاً برائحة العشب الحصيد والروث المجفّف . ياالهى ، ما أطوله من وقت ! .

ربما كان بمقدوره التمرّد على فكرة السفر ، ولكن ما عاد ذلك ممكناً الآن . لقد اجهشت أمه بالبكاء ، قبل ساعات من هذا وهى تعدّ معه قائمة ملابسه :

– انظر يا صغيرى . هذه شراشفك . لقد طرزت عليها الحروف الأولى من اسمك . وهذه قمصانك الداخلية ، وهذه سراويلك وجواربك

كلّها تحمل الحرف الأول من اسمك كيلا تضيع ، فعددكم في المدرسة سيكون كبيراً .

ولاحظ دانييل (البوم) نبرة غير مألوفة في صوتها بدت مثل جسم غريب ، ثم إنها مسحت طرف أنفها الأخنس بظاهر يدها وابتلعت ريقها . فقال في نفسه : « لابّد أن الظرف خاص جداً . فأمي تسمح لنفسها بما تمنعني منه في أوقات أخرى » ، وأحس برغبة شديدة وصادقة في البكاء .

وواصلت أمّه كلامها :

- اعتن بنفسك وبملابسك يا ولدى . فأنت تعلم كم كلّف أباك كل هذا . اننا فقراء . ولكّن أباك يريد أن يكون لك شأن في الحياة . إنّه لا يريد أن تشقى وتتعب مثله .

وأردفت وهي تنظر إليه حالمة :

- إن بإمكانك أن تصبح ذا شأن ، ذا شأن كبير في الحياة يا صغيرى أنا وأبوك لم نرد أن يبدر من ناحيتنا أى تقصير .

عاودت ابتلاع ريقها وسكتت . وردد (البوم) مع نفسه : « ذو شأن كبير في الحياة » . وهزّ رأسة . إنه لا يدرى كيف يمكن للإنسان أن يصبح ذا شأن كبير في الحياة . إنه يحاول جاهداً إدراك ذلك . ذو الشأن الكبير عنده رجل مثل پاكو الحدّاد بصدره الواسع وبعارضيه المرتفعين وشعره الكث الأحمر وبمظهره القاسي المتجهّم الذى يذكّر بوجه اله قديم . وذو الشأن الكبير عنده أبوه الذى جندل من ثلاث سنين مضت حدأة عظيمة تبلغ المترين باعاً . لكنّ أمّه لا تقصد هذا النوع من العظمة ،

إنهـا تفكر فى تلك التى يتصف بهـا دون مويسـيس المعلم أو دون رامون الصيدلى الـذى نصّب عمدة للبلدة من أشهـر . إن والديه يتطلعان أن يبلغ عظمة من هذا القبيل ، لكنه ما كان راغباً فى هذه الأنواع من العظمة ، بل لم يكن معنياً بعظمة ولا راغباً فى تقدّم .

وتقلّب فى الفراش وانكفأ على وجهه محـاولاً التخفيف من إحساسه بالقلق الذى بدأ يكوى جوفـه ، فهكذا يشعر براحة أكـبر ، وهكذا يتحكم بعض الشىء بقلقه . ولكن ما الفرق بين الانكفـاء على الوجه أو الاستلقاء على الظهر مادام سـيركب فى غده قطار التاسعة السـريع المتّجه إلى المدينة ويودّع حينها كّل شىء . لو أنه . . . ولكّن الوقت قد فات . فمنذ سنوات وهذا المشروع يداعب فكر أبيه ، فليس فى مقدوره اذاً أن يغـامر بتدمير كل شىء فى خبطة رأس عابرة . إن أباه يريد أن يحقّق فـيه كل مالم يقدر هو على تحقيقه . إنها مسألة هوى ليس غير ، وللكبار فى أهوائهم أحيانا عناد وغرابة تفوقان مـا لدى الصغار منهما . والغريب أن فكرة تغيـير نمط الحياة التى تعذّب دانييل الآن كانت من أشهـر مضت تروق له . فمنذ ستة أعوام تقريباً وهو يعلم بخطط أبيه بشأن مـستقبله . فلطالما تنصت على والديه ، وهما يتحادثان فى الطابق السفلى أثناء الليل بعد إيوائه إلى الفراش ، رغم أن القس دون خوسـيه ، وهو قديس عظيم ، يردد دائـما أن التنصت على أحاديث الآخرين خطيـئة . فمن بين شقـوق الأرضية الخشبـية كان يمكنه مشـاهدة الموقد وطاولة الصنوبر والمقـاعد وطاولة صنع الجبن وكل مـعدات المعمل ولوازمه . كان دانييل (البوم) يتنصت وهو مستلق على الأرض فى مكمنه ذاك . كانت تلك عادة فيه . ومع همس الحديث كانت تتصاعد من

الطابق السفلى رائحة اللبن الحامضة وقوالب القش المتسخة . كانت تعجبه رائحة اللبن المختمر الحادة والآدمية تقريباً .

كان أبوه ليلتها متكئاً على طاولة صنع الجبن بينما راحت أمه ترفع فضلة العشاء . مضت ستة أعوام تقريباً منذ أن رأى دانييل (البوم) ذلك المشهد ، مع ذلك فقد ظل ارتباطه بحياته قوياً حتى أنه ليتذكره الآن بكل تفاصيله .

– لا . سيكون للولد شأن آخر . كونى على ثقة من ذلك . إنه لن يقضى حياته مربوطاً إلى هذه الدكة مثل العبد ، أو قولى مثلى .

وتفوّه بكلمة نابية وضرب بقبضة متشنجّة على الطاولة . لقد بدا وكأنه ساخط على أحد ، وأن يفلح دانييل (البوم) فى معرفة من يكون ذلك الاحد . لم يكن دانييل حينها يدرك أن الرجال قد يسخطون على الدنيا وعلى نظام للأشياء يعتبرونه مهيناً وجائراً . كان يعجبه أن يرى أباه مغتاظاً لأن عينيه تقدحان ساعة الغضب شرراً ولأن عضلات وجهه تتقلص فينعقد عندها شبه بينه وبين باكو الحدّاد .

– ولكن ليس فى مقدورنا مفارقته ، إنّه ولدنا الوحيد . لو كانت لدينا بنت على الأقل ، ولكّن بطنى ، كما تعلم ، يبس وماعدنا قادرين على إنجاب البنت ، وقد قال دون ريكاردو آخر مرة إننى صرت عاقراً بعد الإجهاض .

وأطلق الأب شتيمة أخرى ثم أضاف دون أن يبدّل جلسته :

– اتركى الكلام فى هذا الموضوع ، فما عاد من فائدة . ولا تنقّرى فى أمور منتهية .

وتأوهت الأم وهى تجمع فى علبة صدئة فـتات الخبز من على الطاولة ثم أضافت :

- ربما لا يصلح الولد للدراسـة . إن من السابق لأوانه الحـديث عن كل هذا . كما أن إقامته فى المـدينة تكلف الكثير . ونحن لا نقدر على ما يقدر عليه الصيدلى رامون أو السيد القاضى لأننا لا مال لدينا .

وراح الأب يحرّك قالب جبن بين يديه بعصبية . وأدرك دانييل (البوم) أن أباه يجاهد نفسه كى لا يزيد فى آلام زوجته . وأضاف بعد برهة :

- دعـى تدبير هـذا الأمـر لـى . إمـا أن يصلـح الـولـد للدراسـة أو لا يصلح فـذلك يعتمـد على ماعنده من مـال . أظن كلامى مـفهـوماً . ونهض الأب وراح يبعثـر بالعصا الجمرات التى كانت ماتـزال متوهجة فى الموقد . أمّا الأم فـقد جلست مسبـلة يديها الخشنتين على حـجرها منهكة خائرة خاوية وبلا حول .

وعاود الأب توجيه كلامه إليها :

- القضية مـحسومة فلا تفتحى باب الموضـوع ثانية . سيذهـب الولد إلى المدينة عندما يبـلغ الحادية عشرة ليـبدأ دراسـتـه الثانوية . ولم تردّ الأم بشىء بل تنهّدت مستسلمة . أما دانييل (البوم) فقد رقد وهو يتساءل عن معنى قول أمه إن بطنها قد يبس وإنها صارت عاقراً بعد الإجهاض .



الفصل الثانى

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض . وفكّر فى روكى (البعرور) الذى لولاه لبقى ، على عمره ، جاهلاً بمعنى البطن اليابس والإجهاض . فروكى (البعرور) يعرف الشيء الكثير عن « هذا » . ولطالما نصحته أمه بالابتعاد عن روكى لأن (البعرور) نشأ محروماً من أمه ولأنه يعرف الكثير من البذاءات . ولطالما رددت (الفلفلات) أنّه لكثرة مصاحبته (البعرور) صار مثله صعلوكا قليل الأدب .

أمّا دانييل (البوم) فكان ينبرى دائمًا للدفاع عن صاحبه ، ولكّن أهل البلدة ما كانوا يفهمونه أو ما كانوا يريدون أن يفهموه . فأن يعرف روكى الكثير عن « هذا » لا يعنى أنه قليل الادب ، وأن يكون قوى الجسم كالثور أو كأبيه الحدّاد لا يعنى أنه شرير ، وأن يحتفظ أبوه الحدّاد بقربة النبيذ إلى جوار الكور يعبّ منها بين الحين والحين لا يعنى أنّهّ سكير مدمن ، كما لا يصحّ الجزم بأن روكى (البعرور) صعلوك كأبيه لمجّرد العلم بأن « العصا من العصية » . دانييل (البوم) يعلم جيداً أنها سلسلة من الأكاذيب وحسب ، لأنه يعرف روكى وأباه حق المعرفة . أما موت امرأة پاكو الحدّاد ساعة وضعها (البعرور) فلا ذنب لأحد فيه ، كما لا ذنب لأحد فى ألاّ تحسن أخته سارة تربيته وهى التى فيها من الفظاظة والصرامة ما يخرج بها من خانة بنات حوّاء . كانت سارة فتاة حمراء الشعر شعثاءه ، جسيمة قوية كأبيها وأخيها ، وقد تولت مسؤولية البيت منذ موت أمها ، وكان دانييل (البوم) يتصور أحياناً أن أم روكى (البعرور) لم تمت إلاّ لأن شعرها

لـم يكـن أحمـر ، فقـد يكون الشعر الأحمـر بالفعل سبباً فى إطالة العمر أو على الأقل ضرباً من التـعاويذ التى تقى الانسان وتحفظه . ومـهما يكن من شىء فـقد مـاتت أم (البـعـرور) ساعـة ولادته ، ومنذ ذلك الحـين تعاملت مـعه أختـه التى تكبره بثـلاثة عشر عـاماً وكأنـه قاتل لا يرجى له صلاح . إنها فتاة ضيّـقة الصدر وذات طبـع حـاد نـزق ، وقـد رآها دانييل (البوم) أول ما رآها وهى تنزل السلّم راكـضة فى إثر أخيها شعـثاء تبعث على الرعب وتصرخ كالمجنونة :

- حيوان وأكثر من حيوان ، بل إنّك حيوان من قبل أن تولد .

بعد ذلك سمـعها تردد هذه المقطوعة مـئات بل آلاف المرات ، ولكن روكى (البعـرور) ما كان يأبه لـذلك . ولا شك أن أشد ما جـعل سارة حادة الطبع صعـبة الأخلاق هو فشلها الذريع فى أسلـوبها التربوى . لقـد تمـرّد (البـعـرور) منذ صغـره على (البـعـبع) و (صـاحب الجـراب) والغول ، وكان له فى قوته البـدنية ما ألهمه تلك الاستهـانة التامة بكل ما ليس هو من صنف الرجال الحقيقيـين ، بعظامهم وعضلاتهم ودمهم الذى يجـرى فى عروقـهم . وعندما كانت سارة تهدد أخـاها قائلة : « روكى ، لا تفعل هذا وإلاّ جـاءك البعبع » ، كان (البـعرور) يبتسم بخـبث وكأنّه يقول متـحدّياً : « وأنا بانتظاره ، فليأت » . لم يكن عمـره يتجاوز آنذاك الثلاث سنين وما كـان بعد قادراً على الكلام . فتستشـيط سارة غيظاً وهى ترى تهديدها يقابل بلامبالاة الصغير واستهزائه .

وصـار (البعرور) يكبر شـيئا فشيئا ، وراحـت أخته تلجأ إلى طرق أخرى ، فاعتادت ، إن هو ارتكب حماقة ، أن تحبسه فى المتبن لترتّل عليه من خارجه وبصوت متأن كئيب صلاة المحتضر .

ومازال دانييل (البوم) يذكر احدى زياراته الأولى لبيت صديقه . كان الباب نصف مفتوح والدار تبدو خالية فما كان يشاهد فى داخلها من أحد ولا يسمع فيها صوت . كان السلّم المؤدى إلى الطابق العلوى ينتصب أمامه يغريه بالصعود ، ولكنه اكتفى بالنظر إليه والإمساك بحجره . كان وقتها قد سمع بسارة ، ثم إن السكون الغريب كان يبعث فى قلبه رهبة غامضة . وبينما هو مشغول بالامساك بسحلية كانت تحاول النفاذ بين بلاطات مدخل الدار طرقت سمعه رشقة من الشتائم الغاضبة انبعثت من فوق متبوعة بصفقة باب مدوّية وهنا قرّر أن ينادى وهو متهيّب بعض الشيء :

- بعرور . . . . . يا بعرور .

فانهال عليه سيل من عبارات التوبيخ أحّس معها بالانكماش :

- من يكون هذا الوقح الذى ينادى ؟ ليس بيننا من يتسمّى بـ (البعرور) كلنا فى هذا البيت لنا أسماء قدّيسين . هيّا انصرف من هنا .

ولم يدرك دانييل (البوم) لماذا بقى وقتها ورغم كل شيء مسمّراً على الأرض كالصنم . لقد بدا جامدا أخرس مقطوع النفس . وسمع حينها صوت سارة يأتى من فوق فأصغى إليه . كانت عباراتها الفخمة تنهمر من خلال السلّم مثل مطر قاتم كئيب :

- عندما تخبّرنى قدماى ، وهى بلا حراك ، بأن طريقى فى هذا العالم موشك على نهايته .

ويأتى صوت (البعرور) من بعد قاتماً حفّياً وكأنه ينعبث من غيابة بئر :

– رحماك يا يسوع .

– عندما تسمّر عيناى المزججّتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقاً من الموت الوشيك . . .

– رحماك يا يسوع .

ويسيطر على دانيـيل (البوم) رعب غامض يصيبـه بقشعـريرة . أما تلك الترتيلة الكئـيبة فكانت تدغدغه فى نخـاع عظمه . لكنه مع ذلك لم يتحرك من مكانه بسبب فضول مبـهم غريب كان يلح عليه . ويعود صوت سارة رتيباً :

– عندمـا أفقـد حواسى ويخـتفى العـالم من ناظرى وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت .

ويعود صوت (البعرور) واهناً مبهماً هادئاً وهو ينبعث من المتبن :

– رحماك يا يسوع .

ولما انتهت سارة من عقابها الشفوى بدا نفاد صبر على روكى :

– هل انتهيت ؟

– نعم .

– افتحى اذاً .

ولكن السؤال اللاحق كان ينم عن غيظ لم تحسن سارة كظمه :

– هل اتعظت ؟

– كلا .

– لن أفتح إذاً .

- افتحى وإلا كسرت الباب ، فقد انتهت العقوبة .

وفتحت له سارة مرغمة . أما (البعرور) فقال وهو يمّر من أمامها :

- لم تخيفينى اليوم كبقية الأيام .

وفقدت الأخت أعصابها فقالت وهى تستشيط غضبا :

- اخرس أيها الخنزير . يوما ما سأقطع لسانك ، يوماً ما . . يوماً ما . . لا أدرى ماذا سأفعل بك يوماً ما .

- لا ، سارة ، لا تقربى ناحيتى ، فلم يخلق بعد من يمسّنى بأذى . إنّى احذّرك .

وتوقع دانييل (البوم) سماع دوى صفعة ، ولكن يبدو أن سارة فكّرت فى الأمر جيداً فلم يحدث ما توقعه . وسمع دانييل وقع خطوات صاحبه وهو ينزل بشقة على درجات السلّم . فخرج من الباب المردود تدفعه غريزة الكتمان والعفة لينتظره فى الشارع . ولمّا صار (البعرور) إلى جانبه قال له :

- هل سمعت ما قالته سارة ؟

ولم يجرؤ دانييل (البوم) على الكذب فقال :

- نعم سمعتها .

- أرأيت كم هى ثرثارة ملعونة ؟

- الحق أنها أخافتنى - أجابه (البوم) مضطرباً .

- لا عليك يا صاحبى ، فكل ما قالته عن العيون الجامدة والأقدام

التى لا تتحّـرك إنما هو محض هراء . فأبى يقـول انّك عندما تسلّم الروح فلن تشعر بشىء .

وحرّك (البوم) رأسه متشككاً :

- وكيف يعرف أبوك ذلك ؟

لم يكن روكى (البعـرور) فكّر فى ذلك من قبل ، فـتردّد لحظة ثم قال :

- ومـا أدرانـى أنـا فلعل أمى قالت له ذلك وهى تموت . أنا لا أذكر ذلك .

ومنذ ذلك اليوم صار (البعرور) محط إعجاب دانييل (البوم) .

لم يكن (البعرور) ذكيا ، ولكنه يظهر حيثما تتأزم الأمور مع الكبار . كان يبدو أحيانا رجلا فى جرأته وشخصيته . أنه لا يرضخ لمواقف مفروضة ولا لعدالة متذبذبة متقلّبة الأهواء ، كتلك السائدة فى المنزل بالطبع . أخته تحترمـه ، وليست كلمته صفرا علـى الشمال كما هو الحال مـعه ، بل إنها تعـدل كلمة رجـل يحسب له حـسـاب سواء فى البـيت أم فى الشـارع ، فللبـعرور شـخـصيته . ومع مـرور الوقت ازداد اعـجاب (البـوم) بـ (البعـرور) . كان هذا دائم العـراك مع صبـيان البلدة ، وكان هـو الغالب دائماً دون أن يصاب بسوء يذكر . لقد شـاهده دانييل ذات مساء وهو يشبع طبال فرقة شعبية ضرباً بالعصا ، ولما تعب من ضربه حشر رأسه فى الطبل فبدا كالقبـعة على رأسه . وضحك الناس كثيراً . كان عـمر الطبال يقرب من العشرين بينما لم يتجاوز (البعرور) حـينها الحادية عشرة . ومن ساعتها

أدرك (البوم) أن روكى شجرة كبيرة يمكنه الاحتماء بها فلازمه على الرغم من أن تلك الصداقة كانت تدفعه أحياناً إلى مضاعفة جرأته ، وربما أوردته بضع مسطرات من دون مويسيس المعلم ، ولكن ما أكثر ما حماه (البعرور) ودفع عنه الأذى . مع هذا فليس من حق أم دانييل ولا دون خوسيه القس ولا دون مويسيس المعلم ولا (الفلفلة) الكبرى ولا (الأرنبات) أن يصفوا روكى بأنه صعلوك قليل الأدب فما كان (البعرور) يتشاجر الا لقضية عادلة أو لهدف نبيل ، ولم يحدث أن تشاجر مرة باطلاً أو لمجرد الرغبة فى الشجار .

أما أبوه باكو الحداد فشأنه مختلف . فهو يعمل أكثر من أى انسان آخر ويكسب من المال ما يكفيه . وبما أن أهل البلدة فى رأى (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) صنفان : صنف يكسب القليل ، يقولون عنه إنه حشد من الكسالى المتسكعين ، وصنف يكسب الكثير ، يقولون عنه إنه صنف الذين يعملون لينفقوا مالهم فى شرب النبيذ ، فقد كانوا يطالبون بحال وسط يصعب بلوغه والوصول إليه . ولكن باكو الحدّاد ، والحق يقال ، ما كان يشرب إلا لحاجة ، ودانييل (البوم) يدرك ذلك تماما لأنه يعرف باكو حق المعرفة : فإن هو لم يشرب فإن الكور لن يشتعل ، ولطالما ردّد قائلا : « حتى السيارات لا تسير من دون وقود » ليتناول جرعة وليعاود بعدها عمله بحماس أكبر ومثابرة أشد . وكل هذا يصب أولاً وآخراً فى مصلحة البلدة ولكن البلدة ما كانت تشكر له ذلك بل تصفه بقلة الحياء والعربدة . ومن حسن الحظ أن الحدّاد صبور كولده ، فما كانت تلك الشتائم تثير حفيظته حتى أن دانييل (البوم) كان يعتقد أنه إن حدث

وغضب الحّداد يومـا فلن يبقى فى البلدة حجرا على حجر بل سـيدمرّ كل شىء كالإعصار .

وما كان يصح أيضـاً اتهام الحّداد بالتحرش بالفتـيات المارّات من أمام دكانه ودعوته لهن بالجلوس معه برهة لتبادل الحديث وتناول الشراب . فهو رجل أرمل وعمره يؤهله للزواج ثانية كما أن له فى ضخامة جسمه ما يحبّبه إلى النساء . ألم يتـزوج دون انطونينو (الماركيـز) ثلاث مرّات ومع ذلك واصل الناس مناداته بدون انـطونينو وواصلوا رفع قـبعـاتهم تحـيـة له عند ملاقـاته وواصل هو احتـفاظه بلقب (الماركـيز) ؟ . ولكن لئن لـم يتزوّج باكو الحّداد ثانية فلكى لا يأتى لأولاده بـزوجة أب وليس لكى يوفر النقود اللازمة لشرابه كما تدّعى بخبث (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) .

كان باكو الحّداد يشرب أيام الأحد والأعـياد فى حانة (الجانو) حتى الثمالة . هذا ، على الأقل ، ما تقـوله (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) عنه . وإن صحّ ما يقلن ، فلاّ بد أن للحداد دوافـعه القوية التى تتمثل فى نسيان ستة أيام مـن العمل انقضت وستة أخرى قادمة لن يذوق فـيها طعماً للراحة . فما أكثر ما تكلّف الحياة الرجال ، وما أقّل ما ترحمهم .

وقـد يعكـر الكحـول مـزاج باكـو فيدخل فـى مشادات حـامية فـى حـانة (الجانو) ولكنه ما كان يبلغ حد إشهار السكاكين وأن أقدم خصومه على ذلك . وتصفـه (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) بأنه شـقى مقرف وهو الذى ما كان يتشاجر إلا بصدر مكشوف والا بأعلى مراتب الشهامة . والحق إن ما يغيظ (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبـات) والمعلّم والقيّمة على بيت (الماركيز) وأم دانييل والـقس هى عضلات الحّداد المفتولة وشخـصيته

الفذّة وقوته البدنية . ولو كان پاكو وولده هزيلين ناحلين لما أقلق الناس أن يكونا سكيرين أو معربدين ، لأن فى مقدورهم حينها الإطاحة بالاثنين بصفعة واحدة . ولكن الأمر يختلف عندما يكون الجسم ضخماً قوياً ، ولذا فهم يكتفون بشتمهم غيبة . وما أحسن ما كان يقول اندريس الاسكافى :

« عندما تختفى العضلات من الذراعين تظهر فى اللسان » .

حتى دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، كان يحمل فى داخله الاعجاب لپاكو الحدّاد مع أنه يجاهر بإدانته على تجاوزاته . وهو مهما حمل على الحدّاد فإنه لن ينسى ما حدث فى « عيد العذراء » من أعوام مضت عندما مرض توماس ولم يقدر على الحضور لرفع المحفّة ، وعندما اضطر خوليان ، وهو من حملتها الدائمين أيضاً ، إلى مغادرة المكان لسفر مفاجىء . وساءت الأمور إذ لم يظهر البديل ، وفكّر دون خوسيه القس فى تأجيل الموكب ، ولكن پاكو الحدّاد حضر إلى الكنيسة ليقول بتواضع :

- إن رغبتم ، حضرة القس ، فان فى مقدورى الطواف بالعذراء فى البلدة ، ولكن بشرط أن أقوم بذلك لوحدى .

وابتسم دون خوسيه بخبث للحدّاد :

- اشكرك يا ولدى على همّتك ، وأنا لا أشك فى مقدرتك ، ولكن التمثال يزن أكثر من مائتى كيلو .

وطأطأ پاكو الحداد رأسه تواضعًا وقال :

- فى استطاعتى ، سيّدى القس ، حمل مائة أخرى . ثم إنها ليست

المرة الأولى . وطافت العـذراء بالبلدة مـحمـولة على كتـفى پاكو الحـّداد القويتين ، طافت بخطى بطيئـة ، وتوقفت فى أربع محّطات : فى الساحة وأمام البلدية ومقـابل البريد وفى فناء الكنيسة عند العـودة حيث أنشدت ، كما جرت العـادة ، تحّيه العذراء . وعند انتهاء الموكب أحاط الصبـية بپاكو الحّداد يرمقونه بنظرات الاعـجاب بينما راح هو يطلب منهم وقد رسم على وجهه ابتسامة صبيانية أن يعاينوا قميصه فى الصدر والظهر وتحت الإبطين :

– انظروا ، انظروا ، لم أعرق ، لم تخرج منى قطرة عرق واحدة .

ولامت (الفلفلة) الكـبرى و (الأرنبـات) القس دون خـوسيـه أن سمح لأشّد سكان البلدة خطيئة أن يرفع محفّة العذراء على كتفيه ، وعدّوا ما قام بـه پاكو الحّداد مـن فعل خـيـّر مجّرد استعـراض قـوة أثيم . ولـكن دانييل (البـوم) كان محـقًا فى ظنّه : فما لا يمكـن غفرانه لپاكـو الحّداد يكمن فى بنيته ، فى كونه أقوى رجال الوادى ، كل الوادى .

الفصل الثالث

الوادى . . . . ذلك الوادى يعنى الكثير بالنسبة إلى دانييل (البوم) ، بل هو كل شيء عنده . ففيه ولد ، ولم يتخطّ فى سنيه الإحدى عشرة سلسلة الجبال العالية التى تحيط به ، بل لم يشعر بالحاجة إلى ذلك . وكان دانييل (البوم) أحيانا يوافق أباه والقس والمعلم اذ يشبهون الوادى بقدر كبير مستقل ومنعزل تماما عن العالم الخارجى ، مع ذلك فليس هو كما يصفون ، فللوادى حبله السّرى ، بل حبلاه السريان اللذان يمدّانه بالقوة والنشاط من جهة ، وبالضعف والانحلال من جهة أخرى . أنهما سكة القطار والطريق العام يقطعانه من جنوبه إلى شماله : يصدران من سهول قشتالة البنية الجافة وينحدران صوب سهول البحر السماوية ليشكّلا حلقة وصل بين عالمين واسعين متناقضين .

وتشابك سكة القطار والطريق العام والنهر ألف مرة ومرة وهى تقطع الوادى مكّونة مخطّطا مضطربا من الجسور والأنفاق ونقاط مرور القطارات والقناطر . أمّا النهر فينضم إليهما بعد أن يندفع فى ثورة من الانحدارات والسيول المتدفقة من أعالى قمة جبل راندو . كان روكى (البعرور) ودانييل (البوم) قد اعتادا أيام الربيع والصيف الجلوس ساعة الأصيل فوق أى مرتفع بسيط من الأرض ليتأملا ، وقد أعياهما ما يوشك أن يكون تعّبدا ، حيوية الوادى الفاترة المتواصلة . كانت السكة والطريق يرسمان فى الوادى خطوطا متعرّجة حادة وكثيرة ، تتجاذب أحيانا وتتنافر أحيانا أخرى ولكنها تبدو فى المخطط دائما مثل أخدودين أبيضين مفتوحين فى خضرة

كثيفة من المروج وحقول الذرة . ومن بعيد كانت القطارات والسيارات والبيوت البيض تتضاءل فتبدو كتماثيل « الميلاد » بعيدة إلى درجة لا تصدق وفى متناول اليد إلى درجة غير مفهومة .

وقد يظهر قطاران أو ثلاثة فى وقت واحد وقد ارتفعت فوق كل منها كتلة من الدخان معلّقة فى الفضاء يتصدّع لها تناسق المرج النباتى الوضّاء . وكم هو ممتع خروج القطارات من فتحات الأنفاق . انها تطّل كالجداجد التى كان هو و (البعرور) يتبّولان عليها حتى تغرق فى جحورها . فالقطار والجدجد يبديان ، وهما يخرجان من جحريهما ، تعبيرا واحدا قوامه اللهاث والفزع والاختناق . كان يروق لـ (البوم) الاحساس بأن الوادى يلّفه بهدوئه الساكن الرائق ، ويعجبه تأمل المساحات الخضر المجزّأة والمزروعة بالضياع المتناثرة ، أو بقع غابات الكستناء الداكنة الكثيفة أو سلّم الألوان الفاتحة الخامدة الذى تؤلّفه غابات أشجار الكينا . أو الجبال البعيدة التى انتصبت فى كل الانحاء والتى تبدّل هيأتها بحسب الفصول والمناخات لتتراوح بين شحة نباتية ظاهرة وكثافة داكنة رمادية جامدة فى الأيام المعتمة ما كان يروق لـ (البوم) شيء أكثر من ذلك المشهد ، ربما لأنه لم يألف غيره . وكان يعجبه التحقّق من خمود الحقل وثورة الخضرة ودفقات الصخب والحركة القادمين من المدينة بين وقت وآخر فى دقة تضاهى دقة الساعة .

ولطالما فقدا ، وهما يرقبان توقف الطبيعة وسكونها ، الاحساس بالوقت فيدركهما الليل ، وتمتلىء قبة السماء بالنجوم فيرتاع روكى (البعرور) بتأثير ضرب من الفزع الكونى . كانت ترد على باله فى مثل هذه الأحوال

من الظلمة والانقطاع عن العالم ، أفكار غـريبة وخواطر لا تشغل باله فى الأحوال الاعتيادية .

سأل مرّة :

- (بوم) ، لو أن نجمـة من تلك سقطت فـهل يمكن ألا تصل إلى القاع أبدا ؟

ونظر دانييل (البوم) إلى صديقه وقد بدا عليه أنه لم يفهمه :

- لا أفهم ماذا تقصد .

كان (البعرور) يجـاهد قصوره فى التعبير ، حـرّك يديه مرارا ليقول فى النهاية :

- النجوم فى الهواء ، أليس كذلك ؟

- بلى .

- والأرض هى الأخرى فى الهواء كبقية النجوم ، أليس كذلك ؟

- بلى . هذا ما يقوله المعلم على الأقل .

- حـسناً هذا مـا أقصـده . فلو أن نجـمـة سـقطت ولم تصطدم لا بالارض ولا بأية نجمـة أخرى فهل سـتصل إلى القاع ؟ أليس لهـذا الهواء الذى يحيط بالنجوم من قاع ؟

وأطرق دانييل (البوم) مفكّرا للحظة ، وقد بدأ اضطراب كونىّ مبهم يسيطر عليه ، فخرج الصوت من حنجرته مترددا مرهفا وكأنه بكاء :

- (بعرور)

- ماذا ؟

- كُفّ عن هذه الاسئلة فقد أصبت بدوار .

- دوار أم خوف ؟

- ربما بالاثنين .

وضحك (البعرور) ضحكة متقطعة ثم قال :

- سأقول لك شيئا .

- ماذا ؟

- أنا كذلك أخاف من النجوم ومن كل هذه الأشياء التى لا يحيط بها شىء ولا تعرف لهـا نهاية . ولكن اسـمع ، لا تقل ذلك لأحد . لا أريد أن تعرف أختى سارة عن ذلك شيئا على الاطلاق .

كان (البعرور) دائما يختار أوقات الهدوء والعزلة هذه للبوح بأسراره فقـد كـانت الجبال الشامخـة بقممهـا الضخمة المتصدّعـة فـوق الأفـق تمـلأ (البعرور) بإحـساس مهين بالضآلة . وفكّر دانيـيل (البوم) : لو عرفت سارة بنقطة الضعف هذه لسيطرت على (البـعرور) بسهولة . لكنه بالطبع لـن يصرّح لها بشىء ، فسارة بنت مكروهـة وقـاسية ، أمّا روكى فهو خير أصدقائه ، فلتكتشف بنفسهـا الـرعب المبهم الذى تبعثه النجوم فى قلب (البعرور) .

كان نبض الحيـاة فى الوادى يبدو ، ساعة العـودة إلى البلدة مساء ، أشدّ وضوحا وحضورا . فمن قطارات تطلق صفاراتها فى المحطات المتناثرة لتجرّح الفضـاء بصفيرها الحاد كالسكين ، ومن أرض تعـبق برائحة التراب

الندى وروث البقر ، ومن عشب تنبعث منه رائحة قوية أو خفيفة تبعا لحالة الجو أو لهطول المطر .

كانت تلك الروائح تروق لدانييل (البوم) كما كان يروق له أن يسمع فى هدأة الليل خوار بقرة ناعسًا أو أنين عـربة رتيبًا وهى تتقدّم على الطريق متعثّرة تجرّها الثيران .

أما فى الصيف ، ومع تبدّل الوقت ، فكانا يعودان إلى البلدة والوقت نهار . كـانا يسيـران فوق النفق سـاعة مرور قطار المحـافظات ، وينتظران وصوله بشوق وقد انبطحا على التل وأطلا بأنفيهما على الهاوية . وتنبئهما الجلبة المنبعثة من جـوف الوادى باقتراب القطار . وما إن يخرج القطار من النفق متلفعا بسحابة دخان كثيفة حتى ينفجر الاثنان فى نوبات من العطاس والضحك . أما القطار فينساب تحت بصريهما بطيئًا هادئًا رتيبًا فيوشكان أن يمساه بأيديهما .

وينزلان من هناك سـالكين درب الرعاة للوصول إلى الـطريق العام . كان النهر يمرّ من تحت الجسر هادرًا كـالشلال ، إنه سيل ينحدر من الجبل مندفعًا بقوة بين صخور عظيمة لا تتأثر بتعرية ولا بتآكل .

ولكـن سرعـان ما يهدأ صخب مياهـه الداكنة بعد عشرين مترًا حيث تمتد « بـركـة الانكليزى » التـى اعـتادوا الاستحـمام فيـها ساعـات القيظ الصيفية .

عند ملتقى النهر بالطريق العام وعلى مسافة كيلو متر واحد من البلدة تقع حـانة كينو (الأقطع) . ويـتذكّـر دانييل (البـوم) أيام الخيـر ، أيام الصفقـات السهلة الرخيصة ، أيام كـان كينو (الأقطع) يقدم لهمـا قدحاً

كبيراً من عـصير التفاح المحفـوظ مقابل خمسة سنتـات فضلا عن الحديث معهما . ولكن الأمور تغيرت مـؤخراً . وما عاد كينو (الأقطع) يقدّم لهما لقاء ذاك المبلـغ غيـر الكـلام .

كـانت الحانة خالية من الرواد معظم الوقت . وكان (الأقطع) كريماً إلى حدّ الإسراف ، وإن من الطيش أن يكـون المرء كريماً فى هذه الأيام ، ولكن الحانة ما عادت تقدّم لسبب أو لآخر غير نبيذ ردىء ، يطفىء به عمال وعاملات معمل المسامير الكائن على مسافة ٥٠٠ متر إلى الجنوب ظمأهم

ويلـى الحـانـة ، بعـد اجتياز آخـر منعطف إلى جهة اليـسار ، دكـان والـد (البـوم) ، وتقع قبالـته المحطة المتوغـلة قليلاً فى الحـقول ، وإلى جوارها بيـت كوكو ، مـأمور المحطة ، بلونيـه الأبيض والأحـمـر وبمظهره البـهيج . وبعـد ذلك ، ومع نهاية الانحـدار ، تبدأ البلدة بمعناهـا المحدد الصحيح . أنها بلدة صغيرة منزوية عادية . لبيوتها الحجرية شبابيك خشبية مفتـوحة ومعلّقة ومـطلية عمومًـا بلون أرزق يقف فى الربيع والصيف ازاء الأخضر والأحمر فى الجيرانيو الذى يملأ الشابيك والشرفات .

والصيـدلية هى أول مـا يظهر من المبـانى على جهة اليـسار ، تليـها اصطبلات دون رامون الصيدلى العمـدة وهى اصطبلات رائعة مليئة بالابقار المتنفخـة مرضًا أو عافـية . وفى باب الصيدليـة جلجل يصرف برنينه دون رامون عن واجباته البلدية ويعيده خلال دقـائق إلى مهنته . ونتقدّم صعودا فنصادف قصر (الماركيز) المسـوّر بسياج عال من الحجر الأملس الصلب ، ثم ورشة الاسكافى ، ثم البلدية وقـد ظهـر شعـار قديم على واجهـتها . ثـم دكـان (الفلفلات) ذو الواجهة الزجاجيـة الملونة التى أعيد ترميمها ،

ثم الفندق الذى يحتل بشرفته الزجاجية الشهيرة اثنين من جوانب البناية . وعلى يمين الفندق تقع الساحة المغطاة بالبعرور والحصى وقد توسطتها نافورة ذات ماسورتين . وتنتهى الساحة من الطرف الآخر ببناية المصرف تليها ثلاثة بيوت لكل منها حديقته الأمامية . أما على اليمين مقابل الصيدلية فتقع مزرعة خيرادو (الأمريكى) التى تنتج أفضل ثمار المنطقة واصطبل بانچو (الملحد) حيث أقيمت دار السينما ، وحانة جانو ثم ورشة (الحداد) ثم دائرة الهاتف التى تديرها (الأرنبات) ثم متجر انطونيو (الحوصلة) ثم بيت دون خوسيه القس ومكتبه فى الطابق الأرضى منه . على بعد ٣٠٠ متر نزولاً تقع الكنيسة ذات البناء الحجرى والطراز المعمارى غير المحدد والبرج المنتصب الرشيق . وبإزائها بناية المدرسة الجديدة المطلية بالكلس الأبيض بشبابيكها الخضر ثم سكن دون موسيس المعلّم . فالبلدة ، وبنظرة سريعة كهذه ، لا تختلف عن سواها الكثير . . أما بالنسبة إلى دانييل (البوم) فكل ما فى بلدته يختلف تماماً عمّا فى غيرها فمشاكلها ليست اعتيادية ، ونظام الحياة فيها يفصح عن أصالة وجميع نشاطاتها تقريباً محمودة العواقب وإن لم يشأ الأخرون الإقرار بكل ذلك .

ولطالما وقف دانييل (البوم) يتأملّ دروبها المتعرّجة وساحتها المليئة بالبعر والحصى وأبنيتها الكئيبة التى صمّمت بحسّ خدمى محض . ولكنه ما كان يستاء لذلك ، فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هم رجالها وتأريخها . ويعلم دانييل (البوم) أن هذه الشوارع المغطاة بالروث الطرى وهذه البيوت المحيطة بها شهدت مرور رجال عظام هم الآن مجرد ذكرى ولكنهم منحوا البلدة والوادى معنى وتناسقاً وأعرافاً ووقعاً وأسلوباً خاصا ومنفرداً فى الحياة .

أيقـول دون رامـون العمـدة إن البلدة تتصـف بنزعـة فردانية مـتطـرفة وأن لا مكـان فيهـا للمؤسسات العامة ؟ ، حسناً . إن (البوم) لا يفهـم معنـى « النزعة الفـردانية » ولا معنى « المؤسسـة العامة » ولا ينكر ذلك ، ولكن إن كان هذا صحـيحاً فان عـواقبه لا تتعدى حـدود البلدة ،وبالتالى فالسكان يدفعون بأنفسهم ثمن خطاياهم .

أيقولـون أنهم يفـضلون عدم رصف الساحـة الا بعـد زيادة الضرائب عليـهم ؟ لا بأس ، ألم يمنع هذا أن تجـرى الدماء أنهـاراً . وينتهـز دون رامون أية فرصة ويتـكلم صارخاً « ما أسوء الأمور العامـة . إنها كارثة . فكل واحد ينظر إلى أموره الخاصة ناسياً أن هناك أموراً تخص الجماعة وأن من الواجب الالتفـات إليها » . وليس هنـاك من يدرك أن هذه الأنانية إنما هى زهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

ولكن ليس بالإمـكان ، لأى من هذه الأسـبـاب ، تجـريد البلدة من صفـات الكفاءة والجـد والرصانة . صـحيح أن كل انسان وشـأنه ، ولكن المتسكعـين ليسوا متـسكعين لمجـرد عـدم رغبـتهم فى المشاركة فـى أعـمال الآخرين . والبلدة ، بـلا شك ، تمتلك كفاءة معتدلة ورصانـة بنـاءة ، أما أن يقال عن (الفلفلة) الكبرى وعن كوكو ، موظف المحطة ، إنهما تمآمان ، فلا جـسد يخلو من شـامة . أمـا عن « فـردانية » البلدة ، أفـلا يكفى التقـاء الشباب مـن فتـية وبنات أمـاسى السبت والأحـد ؟ . ولطالما صرحّ دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، متألماً : « من المؤسـف أن يحيا كل منّا لِذاته فى جميع شؤونه ، ثم لا نلتقى إلا لنغضب الرب » . ولكن دون خوسيه ما كان يريد هـو الآخـر أن يفهم أن هـذه الحسّية إنما هى زهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

الفصل الرابع

مضت الأشياء فى وقتهـا ، ولكن دانييل (البوم) يتذكرها الآن بتلذذ
كان الجـبان قد فكّر فـى اسم لولده ولمّا يولد الصغيـر بعد . جـهّز الاسم
وصـار يلقّـه ويحـنو عليـه فكأنّه رزق بالولـد حـقـاً . تم ولد دانيـيل .
واستحضر (البوم) خطواته الأولى فى الحياة .كانت تنبعث من أبيه رائحة
نفّاذة ، فـكأنه قـطعـة جبن عظيـمـة طريّة بيـضـاء اللون ثقـيلة الوزن .
ولكن دانييل (البوم) كـان يستمتع بتلك الرائحـة التى تضمّخ أباه وتفيض
عليه عندمـا يداعبه الأب فى ليـالى الشتاء وهو يحكى له ، أمـام الموقد ،
حكاية اسمه . كان الجبّان يريد الولد ليكون فى مقدوره ، وقبل كل شىء ،
أن يسميه دانييل . كان يحكى ذلك لـ (البوم) ولما يتجاوز هذا الثالثة من
عمره وعندما كانت مداعبة جسمه الصغير المكّور البدين تعدل إطالة الوقوف
أمـام طاولة صنع الجبن . كان فى مـقدور الجـبّان أن يسـمى ولده ساعـة
التعميد بألف اسم غير اسمه ، لكنه فضل أن يسميه « دانييل » .

- هل تعلم أن دانييل كان نبيّا حشر فى قفص مع عشرة أسود لكنها لم تجرؤ على إيـذائه ؟ - كان يقول له وهو يضـمّه بقـوة إلى صدره . إن رجلاً قادراً على ترويض جـماعة من الأسود بنظراته له قـوة تفوق ما لدى الرجال جميعاً . كان حادثاً فريداً رائعاً فتن الجبّان منذ طفولته .

- أبى ، ماذا تفعل الأسود ؟

- تعضّ وتخمش .

- هل هى أسود من الذئاب .

- إنها أشدّ وحشية .

- ماذا ؟

كان الجبّان يبسّط الأشياء لولده كما تمضغ الأم الطعام قبل تقديمه إلى صغيرها .

- أى إنها تؤذى أكثر من الذئاب ، هل فهمت ؟

ولا يشبع دانييل (البوم) من السؤال :

- وهل صحيح أن الأسود أكبر من الكلاب ؟

- نعم ، إنها أكبر .

- ولماذا لم تؤذ دانييل ؟

كان الجبّان يجد متعة وهو يفصّل الكلام حول تلك الحكاية :

- كان يغلبها بمجرّد النظر إليها . لأنه يمتلك قوة الرب فى عينيه .

- ماذا ؟

ويضم الولد إليه :

- لأنه من أولياء الله .

- وماذا يعنى هذا ؟

وهنا تتدخل الام متحوّطة :

- دع الولد فإنك تعلّمه أشياء أكبر من عمره .

وتنتزعه من أبيه وترقده . كانت رائحة اللبن المحلّى والجبن القريش تنبعث من أمه أيضاً . فكل شىء فى بيتهم له تلك الرائحة بل كانوا هم أنفسهم رائحة لبن خالصة . وكان أبوه يحمل تلك الرائحة القوية حتى فى نهايات أظفاره السود . وما كان دانييل (البوم) يفهم كيف تكون أظفار أبيه سوداً وهو الذى يشتغل فى اللبن ، أو كيف يخرج الجبن أبيض وقد مرّ من بين تلك الأظفار الداكنة السواد .

ومالبث أبوه أن ابتعد عنه ، فما عاد يداعبه ولا يلاعبه بعد أن أدرك أن الولد أصبح قادراً على التعلّم بنفسه . حدث هذا عندما بدأ دانييل الذهاب إلى المدرسة وعندما لجأ إلى (البعرور) بحثاً عن معين . مع ذلك فقد ظل أبوه وظلّت أمه وكل ما فى الدار يحملون رائحة اللبن المحلّى والجبن القريش وظلّت تلك الرائحة تروق له رغم نفور روكى (البعرور) منها وقوله بأنها تشبه رائحة القدمين .

ابتعد عنه أبوه كمن يبتعد عن شىء صار واكتمل وما عاد بحاجة إلى العناية ، وأصيب الأب بالخيبة وهو يرى ابنه مستقلاً غير محتاج إلى رعايته وحمايته . وبدا الجبّان كذلك متجهّم الوجه معكّر المزاج وهو الذى كان حتى ذلك الوقت مثل الكمّثراة المجففة المحلاة بالسكر ، على حد وصف امرأته ؛ لقد غيّر حرصه المحموم على جمع المال طبعه ، والاقتصاد عندما يقوم على أساس التقصير فى الضروريات فإنه يحدث فى طبع الإنسان حدّة ولؤماً . وهذا هو ما حدث للجبّان ، فصار ينزعج لأى إنفاق طفيف أو أى مصروف إضافى . كان يريد الادخار وبأية طريقة ليصبح ابنه دانييل رجلاً فى المدينة وليتقدم فلا يكون مثله ، مجرّد جبّان معدم .

ولكن ما لا يفهمه دانييل (البوم) هو أنه ما من أحد يستفيد من هذا كله ، فأبوه يعاني ، وأمه تعاني ، وهو نفسه يعاني ولو انتهت معاناته فستنتهى معاناة الآخرين . ولكن ذلك سيعنى التخلى عن الطريق والتسليم بأن دانييل ما عاد يريد التقدّم ، وهو ما لن يقبل به أبوه الجبّان ، فلا بّد للولد أن يتقدّم وإن كان الثمن تضحية العائلة كلها بدءاً به . كلا . إن دانييل (البوم) لن يفهم هذه الأمور أبداً ، لن يفهم عناد الرجال الذين يبررّون سلوكهم بأنه رغبة منطقية فى التحرر . ولكن ، التحرر من ماذا ؟ وأين سيكون هو أكثر تحرراً : أفى المدرسة والجامعة أم فى مروج الوادى وهو يتراشق بالروث مع (البعرور) ؟ . قد يكون على خطأ ولكنه لن يفهم هذه الأمور أبداً .

لم يدرك الأب كذلك ما أقدم عليه عندما سمّى ولده دانييل ، فجميع الآباء تقريباً يجهلون ما يقدمون عليه ساعة تعميد أبنائهم . فلا أبو المعلّم ولا أبو كينو (الأقطع) ولا أبو أنطونيو (الحوصلة) ، صاحب المتجر ، كانوا يدركون ما هم مقدمون عليه لحظة يصّب دون خوسيه ، الماء المبارك على رأس الوليد ، ولو أنهم كانوا يدركون ذلك فلماذا أقدموا عليه مع علمهم بعدم جدواه ؟ وهكذا لم يدم لدانييل (البوم) اسمه إلا بمقدار ما دامت له طفولته الأولى ، حتى إذا دخل المدرسة عافه اسمه فما عاد يسمّى دانييل ، تماماً كما حدث لدون مويسيس المعلّم بعد وقت قصير من وصوله إلى البلدة .

كان دون مويسيس رجلا طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب ، كان هيكلاً من العظام المكسّوة بالجلد . وقد اعتاد فتح فمه فكأنه يحاول

عض شحمة أذنه ، وكانت حالة الانبســاط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه . كان أمر ذلك الرجل غريباً ، حتى إنه أخاف دانييل (البوم) وأثار اهتمامه من أول يوم عرفه . وصار هذا يدعوه بـ (البيدق) كبـقية الأولاد دون أن يعـرف لتلك التسـمية سـبباً . وعندمـا قالوا له إن القاضى أطـلق عليه هذه التـسميـة لأن دون مويسـيس « يتقـدّم إلى الأمام ويأكل من الجانـب » بدا عليه أنه فهم ولكـنه واصل جهله سبب الـتسمـية وواصل اطلاق اسم (البيدق) عن غير فهم .

أما دانييل (البوم) فكان محبّـا للاستطلاع فعلاً . وكان يرى فى كل ما يحـيط به جديداً ويعدّه حرياً بـالتأملّ . وقد أثارت المدرسة ، كـما هو طبيعى ، فضـوله أكثر من بقية الأشياء ، وأثار فضـوله ، أكثر من المدرسة نفسها ، (الـبيدق) المعلّم وفمه المضطرب الذى لا يعرف الكلل وسـالفتاه السوداوان الكّثتان اللتان تذكّران بسالفتى قاطع طريق .

وكان جـيرمان ولد الاسكافى أول من لاحظ طريقـة دانييل فى النظر إلى الاشياء ، إنها طريقة يقظة مدققّة متطلعة .

- ألا ترون أنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ؟

ونظر إليه الجميع بإمعان قاتل . وأضاف أحد أبناء أخ (الماركيز) :

- وعيناه خضراوان ومستديرتان كعينى القط .

ثم حّدد آخر الوصف وقرّبه ليصيب فى الهدف :

- إنه ينظر كالبوم .

ولازمته التسمية رغـما عن ابيه وعن النبى دانييل وعن الأسود العشرة المحبوسة معه فى القفص وعن قدرة عينيه التنويمية .

ومـا كـانت نظرات دانيـيل (البوم) قـادرة ، خـلافـا لرغـبات أبيـه الجبّان ، حتى على ترويض مجمـوعة من الصبيان . وبقى اسم « دانييل » مقـصورا على بيته ، أمـا فى خارجه فـما عادوا ينادونه بغيـر (البوم) . وكافح الأب زمناً للحـفاظ على اسم ولده ، بل لقد تشاجر يـوماً مع بائعة المرطبـات العـجـوز فى القطار . ولكن جـهـوده ذهبت سـدى ، لأن من يحاول منع ذلك كـمن يحاول منع تدفق مياه النهـر فى الربيع ، عبث فى عبث . ومنذ ذلك الحين صار هو (بوماً) كما صار دون مويسيس من قبل (بيدقـاً) ورروكـى (بعـروراً) وأنطـونيـو (حـوصـلـة) والسيدة لـولا ، (فلفلة) كبرى وعاملات الهاتف (كاكات) و (أرنبات) .

إن البلدة تتعامل مع ركن التعميد المقّدس باستهانة وإسراف مفرطين .

الفصل الخامس

الواقع هو أن (الفلفلة) الكبرى بـوجهها الأحمـر المستدير وبطبـعها الحار النزق ، كانت جديرة بلقبها . وهى ، فوق ذلك ، نمّامة ، والنمامون لا يبتئسـون لكل ما يقع على رؤوسهم . ثم إنها ، تحـاول التحكّم بالبلدة من دون وجـه حـق بينما تريد البلدة أن تكـون حرّة مـستقلة : فما دخل (الفلفلة) فى أن يكـون پانچو مـؤمناً أو كـافراً أو أن يـكون باكو الحـداد منقطعـاً إلى الخمـر أو منقطعا عـنها ، أو أن يصنع أبو دانيـيل الجبن وهو نظيف اليدين أو وهو مـتسخ الأظفار . وإن هى تقزّزت من ذلك فلتـمتنع عن أكل الجبن والسلام . وما كان دانييل (البوم) يرى فيما تفعله (الفلفلة الكبرى) دليلاً على طيبتها . الطيبون هم من يتـقبّلون وقاحاتها وينتخبونها رئيسة لهذه الجمعية الخيرية أو تلك .

ويصيب انطونيو (الحـوصلة) إذ يقول إنها أفعى دمـيمة ، وإن فكّر وهو يصـدر حكمه هذا ، فى منافـسة (الفلفلة) له فـى تجارته أكثـر من تفكيره فى دمامة خلقتها وسوء أخلاقها .

و (الفلفلة) الكبرى ، مع حـمرة بشرتها ، طويلة عـجفاء كقـصبة الكوكانيا وإن لم تحمل فى نهايتها ، كما الكوكانيا ، جائزة . ومـاذا تحمل (الفلفلة) غير أنف عظيم وغير حرص شديد على التدخل فى شئون الغير وغير سلسلة متنوعة ومتجددة من وساوس الضمير .

ولطالما شغلت دون خوسيه ، وهو القدّيس العظيم .

– هل تعلم ، دون خـوسيـه ، إننى لم أنم الليلة البـارحـة . كنت أتساءل : إن كان المسيح بقى وحيداً على جبل الزيتون بعد أن نام الحواريون

فمن رآه إذا وهو يتصبب بدل العرق دماً ؟ - قالت له يوماً قبل دقيقة من بدء القدّاس .

ويجيبها دون خوسيه وهو يطبق عينيه النافذتين كأطراف الدبابيس :

- على رسلك يا ابنتى فنحن نعرف هذه الأشياء عن طريق الوحى .

وتتأوه (الفلفلة) الكبرى مغمومة :

- وهل تعتقد ، دون خوسيه ، أن بإمكانى تناول القربان مطمئنة بعد ما فكّرت فى هذه الأمور :

ويرد عليها دون خوسيه القس وقد تحلّى ، ليطيقها ، بصبر أيّوب :

- إن لم تذنبى فى شئ آخر فبإمكانك تناول القربان .

وهكذا يوماً بعد يوم :

- دون خوسيه . . . البارحة لم يغمض لى جفن وأنا أفكّر فى قضية پانچو . فكيف يمكن لهذا الرجل أن يتلقّى سر الزواج وهو الذى لا يؤمن بالله ؟

ثم تعود بعد ساعات :

- هل فى مقدور حضرتك ، دون خوسيه ، أن تسامحنى . فأمس الأحد قرأت كتاباً أثيماً يتحدث عن الأديان فى انكلترة . البروتستانت هناك أغلبية ، فهل تعتقد ، دون خوسيه ، أننى لو كنت ولدت فى انكلترة لكنت بروتستانتية ؟

ويبتلع دون خوسيه القس ريقه :

- ليس مستبعداً يا ابنتى .

- فأنا متهمة ، ابتاه ، بأننى لو كنت ولدت فى انكلترة لكنت بروتستانتية .

عندما ولد دانييل (البوم) كانت السيدة لولا ، وهذا هو اسم

(الفلفلة) الكبرى ، تبلغ التاسعة والثلاثين . وبعد ثلاث سنوات من ذلك أنزل الله بها ما آلمها أشد الألم ، ولكنها ، والحق يقال ، تغلّبت على ألمها بالصلابة والفظاظة التى اعتادت بهما فرض نفسها على أهل بلدتها . إن تسمية السيدة لولا بـ (الفلفلة) الكبرى يوحى بوجود (فلفلات) أخريات صغريات . وهذا صحيح ، فـ (الفلفلات) كُنّ ثلاثاً ولم تبق منهن غير اثنتين : الكبرى والصغرى . كان أبوهن حارساً مدنياً ظل لوقت طويل مأمور مركز البلدة . وتدعى الألسن النّمامة الموجودة على الدوام ، أنه مات كمدا لعدم إنجابه ولداً ذكراً ، وقد ترك لبناته بعض مدّخراته ففتحن بها دكانهن . بالطبع فإن المأمور مات فى وقت كان فيه نائب الضابط فى الحرس المدنى قادرا براتبه على تأمين عيشة مقبولة وتوفير بعضه .

وهكذا تكفّلت لولا ، وبعد موت الحارس ، وزوجته قبله بسنوات ، بأمور البيت وفرضت نفسها على أختيها لأنها أكبرهن عمرا وأطولهن قامة .

أما دانييل (البوم) فلم ير الأ اثنتين منهن ولكنه سمع من أهل البلدة أن الثالثة كانت كالأخريين ، عجفاء بادية العظام وإنه كان من الصعب ، فى حياتها ، تمييزها عن أختيها من دون معاينة مسبقة ، مطوّلة ودقيقة . وليس فى ذلك ما يدفع عن الأختين الصغيرتين أنهما عذّبتا أختهما الكبرى فى حياتها الدنيا ، عذاباً اليماً . أما الوسطى فكانت كسولة متسكعة وكان طبعها وسلوكها يظهران على الملأ صراخاً وسباباً فاضحاً يصدر على مدار الساعة من دكان (الفلفلات) وبيتهن ليكشف عن استمرار الوضع السئ وتدهور العلاقة بين الأخوات . مع ذلك ، فجميع الناس فى البلدة متفقون على أن (الفلفلات) الثلاث لم يتخلّفن يوماً ، وهنّ مجتمعات ، عن

قدّاس الساعة الثامنة الذى كان دون خوسيه القس ، يعقده فى الأبرشية عند مذبح القديس روكى . كنّ يرحن إلى هناك بقامات منتصبة وهامات مرتفعة وإن كان البرد قارساً والسماء ممطرة مرعدة . كنّ يمشين ثلاثتهن مشية نظامية موزونة الخطوات ، فقد ورثن عن أبيهن ، فضلا عن مدخراته ، حسًا دقيقا يقظا من الانضباط وغيره من فضائل العسكرية . واحد -اثنين ، واحد - اثنين ، واحد - اثنين ؛ كنّ يتقدّمن ثلاثتهن صوب الكنيسة بصدور عجاف وأعجاز ناشفة وقامات شامخة وقد عقدن مناديلهن عند الأحناك وتأبطن كتاب الصلوات .

وذات شتاء ، ماتت وسطاهن ، إيلينا . انطفأت روحها صباح يوم كانونى مكفهر ممطر . وعندما ذهب الناس لتعزية الأختين الباقيتين كانت (الفلفلة) الكبرى تصلّب مرددة :

- لنشكر الله الحكيم العادل ، فقد اختار أقلّنا نفعاً .

ولما بدأ الناس فى المقبرة الصغيرة المجاورة للكنيسة يهيلون التراب على جثمان إيلينا الهزيل ، راحت جوقة من الناعبات تولول فانبرت لهن (الفلفلة) الكبرى فظّة معتّدة لتقول :

لا تنحن عليها ، فقد ماتت من كسلها .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الثلاثى ثنائيا ، وصار دون خوسيه القديس العظيم ، يفتقد ، وهو يقيم قدّاس الثامنة عند مذبح القديس روكى ، المرحومة بجسمها المدبب الصغير .

على أن ما جرى للأخت الصغرى كان أمّر وأدهى . ولئن كان ما حلّ بالوسطى من قضاء الله فإن ما حدث للصغرى كان زلّة شهوانية ، وهو بالتالى نتيجة لنزوة مقصودة ومستهترة راودتها .

كان قد فتح فى البلدة آنذاك فرع صغير للمصرف الذى يحتل الآن

أحد أركان الساحة العامـة . وكان قد وصل مع المدير موظف شاب رشيق القوام أنيق المظهر شـّد انتباه ساكنات الشارع إليه فصـرن يودعن مدّخراتهن وقصدهن التطلع إليه عن قرب من فتحة شـباك المصرف . كان طعما جيدا استخدمه المصرف لاصطياد الزبائن . إن أى مـصرفى مرموق كان سيرفض هذا الأسلوب ، ولكنه جـاء فى البلدة بنـتائج باهرة حـتى أن رامـون ابن الصيدلى ، وكان وقتها قد بدأ دراسة القانون ، أسف لعدم تمكنه آنذاك من عمل اطروحة ، كـان سيكتبها بعنايـة لنيل الدكتوراه حول موضـوع مبتكر عنوانه « أثر حسن انتـقاء الموظفين على اقتـصاديات البلدة » . كان يقـصد بكلمة « اقتصاديات » « مدّخرات » وبكلمة « البلدة » بلدته الصغيرة بالطبع ولكن عبارة « اقتصاديات البلدة » ، كما كان يقول مازحاً ، لها وقع أفضل وهى تعطى أطروحته الموهمومة ، مستوى أعلى وأهمية أكبر .

ومع وصول ديماس ، وهـذا كان اسم موظف المصـرف ، دخل الآباء والأزواج حالة من الترقب ، وتحدث دون خـوسيه ، عدة مرات مع ديماس مذكّـراً إياه بالعواقب الكبيـرة التى بإمكان شاربيه أن تجلـباها على البلدة : حميدة كانت تلك العواقب أم وخيـمة . وقد خفّفت لقاءات القس المتكررة مع ديماس من ريبـة الآباء والأزواج حتى أن (الفلفلة) الصـغرى رأت أن الخروج برفقة ديماس مـن وقت لآخر لا يعّد من جانبها طيـشاً ولا خروجاً على تعاليم الدين وإن أدانت أخـتها الكبرى بالصراخ ، وبـعد التزام أعلى درجات اللياقة ، « انحلالها وتهتكها الفاضح » .

وهكذا انفتـحت أمام (الفلفلة) الصغـرى فجأة جمـيع الآفاق وهى التى كـانت ترى فى الوادى حـتى ذلـك الوقت زنزانة خـاليـة مظلمـة ، وتوقفت لأول مرّة فى حـياتها لتتـأمل روعة الجبال الوعـرة وسمات الريف الأخضر الشاعرية والإحسـاس الذى يوحى به سماع صدر ليل الوادى يمزّقه

صفير القطار المدّوى . تفاهات ، نعم ، ولكنهـا تصبح مهمة عندما يكون القلب متوقّداً . وذات مـساء عادت (الفلفلة) الصغرى من نزهتـها المعتادة فرحة :

– لا أدرى ، أختاه ، من أين تأتيك هذه الـكراهية نحو ديماس . إنه افضل من عرفت من الرجال . اليوم كلمـته عن نقودنا فعرض على أفكاره لاستـثمـارها . أنا قلت له إننا أودعناها فى أحـد مصـارف المدينة وبأننا ، أقصد أنا وأنت ، سنتشاور قبل أن اقرّر .

وصرخت (الفلفلة) الكبرى :

– وهل أخبرته بأن المبلغ لا يزيد على الألف دورو ؟

وتبسمت (الفلفلة) الصغرى لاستهانة أختها بفطنتها :

– لا طبعاً ، لم أقل له شيئاً عن المبلغ .

ورفعت (الفلفلة) الكبـرى كتفيـها بعظامهـا الناتئة مستـسلمة ، ثم صاحت تاركة كلمـاتها تنزلق على امتداد أنفها الدقـيق فكأنها تنساب على زحلوفة :

– اسمعينى . هذا رجل مـحتال يضحك عليك . ألا ترين أن الناس جميعاً يتقوّلـون ويسخرون من بلاهتك ؟ وهل يعقل ، أختاه ، أن تكونى آخر من يعلم ؟ .

– وغيّرت فـجأة نبرة صوتها لتـصبح أكثر نعومـة – : عمرك الآن ، ايرينه ، ست وثلاثون سنة ، فأنت بعمر أم هذا الولد تقريباً .

فكّرى فى الأمر ملياً .

ولكن ايرينه تمردت وثارت مثل بحر هائج :

– اعلمى ، لولا ، أن شكوكك تؤلمنى وتلميحاتك الخبيثة تزعجنى . فما الغريب فى أن يتفاهم رجل وامـرأة ؟ وماذا يعنى فارق العمر ؟ المسألة

هى أن جميع نساء البلدة ، وأولاهن أنت ، يغرن منى . هذا هو كل مافى الأمر .

وافترقت (الفلفلتان) وهما ترفعان أنفيهما عالياً . وفى مساء اليوم التالى أبلغ كوكو ، موظف المحطة ، أهل البلدة بأن الآنسة ايرنيه ، (الفلفلة) الصغرى ، قد استقلّت القطار الصاعد إلى المدينة . برفقة دون ديماس ، موظف المصرف . ولما علمت (الفلفلة) الكبرى بما حصل فار الدم فى عروقها وسقطت مغشيا عليها . ولم تستردّ وعيها إلا بعد أكثر من خمس دقائق ، ولما أفاقت استخرجت من خزانة ملابسها الموبوءة بالعث البدلة السوداء التى تحتفظ بها منذ موت أبيها ؛ انحشرت فيها ومضت بخطوات سريعة إلى مكتب القس .

قالت وهى تدخل :

- يااللمصيبة ، دون خوسيه ، يا إلهى .

- اهدئى يا ابنتى .

جلست (الفلفلة) على كرسى الخيزران القريب من منضدة القس . واستنطقت دون خوسيه بعينها فأجاب :

- نعم ، لقد علمت بالأمر . كوكو حكى لى كل شىء .

وأطلقت زفرة قويّة تردد صداها بين الضلوع فكأنها اصطدمت ببعضها ثم مسحت دمعة مستديرة مكوّرة كقطرة المطر وقالت :

- استمع إلىّ ، دون خوسيه ؛ فبداخلى شك مروّع ..... شك ينهش أحشائى . فإيرينه أختى أصبحت مومساً ، أليس كذلك ؟

وأحس القس بشىء من الخجل :

- اسكتى يا ابنتى ولا تتفوّهى بحماقات .

وأغلق القس كتاب الصلوات الذى كـان فى يده وتنحنح ولكّن صوته خرج ، مع ذلك ، مشوباً بغنّة صمّاء . قال :

– اسمعى . المرأة التى تسلّم نفسها لرجل عن مـحبة ليست مومساً . المومس هى التى تجعل من جسـدها ومن النعمة التى منحهـا الله لها تجارة محرّمـة . هى التى تسلّم نفسهـا لجميع الرجال لقـاء أجر . هل تلاحظين الفرق ؟

ورفعت (الفلفلة) الكبرى هامتها بعناد :

– على أيّة حال ، ابتاه ، فـإن ما فعلته ايرينه يمثل خطيئـة عظيمة ، خطيئة قذرة ، أليس كذلك ؟

– هذا صحـيح يا ابنتى ، ولكنها ليـست مما لا يصلّح . أعتـقد أننى أعرف دون ديماس . إنه لم يبد لى رجلاً سيئاً . سيتزوجان .

وغطّت (الفلفلة) الكبرى عـينيها بأصابعـها النحيلة وهى تجـتهد الاّ تغص بالبكاء :

– أبتاه . . . . أبـتاه . . . . ، ولكن هناك شىء آخـر . لقد أفـقدها غيـرتها . ان ما أخطأ هو دمهـا ، ودمها هو دمى ، فـربما كنت سأرتكب خطيـئة مشـابهة . أبتـاه . . . . أبتاه إننى أقّـر بذنبى ، ومن صمـيم قلبى المحزون أعلن عن ندمى .

ونهض دون خـوسـيه القس ، وهو قـديس عظيم ، ومـسّ رأسهـا بأصابعه :

– اذهبى إلى بيتك يا ابنتى ، وهوّنى عليك فأنت لا تتحمّلين وزر أى شىء . أمّا قضية ايرينه فسنتولّى حلّها .

وغـادرت (الفلفلة) الكبـرى مكتب القس وهـى تحس بشىء مـن الراحـة ؛ وفى الطريق راحت تحّدث نفـسـها بوجـوب الإعلان عن المهـا

وشعورها بالخجل لأن إضاعة العفّة هى أعلى درجة من إضاعة الروح . وما إن وصلت إلى البيت ، محكومة بتلك الفكرة ، حتى انتزعت ورقة مقوّاة من علبة أحذية ، وكتبت عليها بفرشاة مضطربة : « الدكان مغلق لدواعى العار » .

ثم نزلت إلى الشارع وعلّقتها على باب الدكان .

وظل الدكان مغلقاً ، على ما حكى لدانييل (البوم) ، عشرة أيام بلياليها .



الفصل السادس

ولكن دانيـيل (البـوم) يعـرف الآن معـنى أن يكـون البطن يابسـا ويعرف المقـصود بالإجـهاض ، فعند بلوغ سّن مـعينة تصـبح هذه الأمور بسيطة مفهومـة . أما قبلها فتبدو للمرء ضـرباً من ضروب السحر . وليس من سبيل إلى فهم ازدواجية المرأة قبل ظهـور استدارة البطن الفاضحة جليّة واضحـة ، ولا سبيل إلى فـهم ذلك قبل سّن التناول الأول : ومـا العينان قبل هذه السن بكافيتين للتـحقّق من الأشياء الواضحة التى تحيّرنـا فيما بعد ببساطتها .

كان جـيرمان (الأقـرع) ، ابن الإسكافى ، يعرف هو الآخـر معنى البطن اليابس والمقصود بالإجهاض . وجيرمان (الأقرع) هذا كان الصديق الطيب على الدوام ، حتى فى أصعب الظروف ، وإن لم يصل فى صداقته لدانييل (البـوم) إلى درجة (البعرور) . ومـا كـان الذنب فى ذلك ذنبه ولا ذنب دانيل ولا ذنب أى شئ أو ظرف متّصل بإرادتنا .

كان جيرمان (الأقرع) صبيـا ضاويا شاحبا . ولو أن شعره كان أقل سوادا لما بدت قرعته على ذاك القـدر من الوضوح . لقد أصيب بالقرع فى طفولته ، وهو ما أورده لقـبه رغم أن ما به لم يكن قرعا حقـيقياً بالطبع . وكان لابيه الإسكافى ، فضلا عن ورشته الصغيرة الكائنة على يسار الطريق العام بعد قـصر (الماركيز) صعـودا ، عشرة أولاد ؛ ولد ستـة منهم كما يولد خلق الله : فرادى ؛ أما الأربعة الباقون فولدوا فى دفعتين من التوائم . زوجـتـه هى الأخـرى كانـت إحدى توأمـين ، وكذا أمّـهـا . وكـانـت للإسكافى فى قطلونية أخت توأم انجبت ثلاثة توائم فنشر الخبر فى الصحف وتبرع المحـافظ بمبلغ لإعانتهـا . ولكّل ذلك بالطبع دلالته ، فمـا كان فى

مـقـدور أحد أن يزحـزح الاسكافى عـن ايمانه بأن هذه الظاهرة ناتجـة عن عصبّية « شأن أى مرض آخر » .

كانت لأندريس الإسكافى ، إذا ما نظر إليـه من أمام ، هيئة يمكن أن تدل على أنه أب لعائلة كـبيرة ؛ فان نظر إليـه من جانب ، فمسـتحيل أن تدل هيـأته على ذلك . وعليه فـقد كـان أهل البلدة أكثـر من محـقّين إذ يقـولون عنه : « أندريس ، الرجل الذى لا يرى مـن جانبـيـه » . ويكاد الوصف يكون حرفيـا لفرط نحول الرجل وشدة هزاله . ثم إنه كـانت فيه انحناءة واضحة نحو الأمام ، فمن قائل إنها سبب طبيعة عمله ، ومن قائل إنها بسـبب حرصه الشـديد على التطلع إلى سيقـان الفتيـات اللاتى يقعن ضمن مرمى بصره ومـتابعته لهن لحين اختفـائهن عن النظر . كانت رؤيته على تلك الحالة ، من الأمـام أو من الجانب ، تبدو أدعى للفهم والـتصور من رؤيته أبا لعشرة أولاد .

ولكن الإسكافى ماكان يبدو مكتفيـا بما لديه من خلفة ، فترى ورشته الصغيرة وقـد امتلأت على الدوام بأقفاص تعج بطيور الخـضيرى والكنارى والحسون ، أما فى الربيع فكانت مجموعة من الجداجد تملأ المكان بزقزقاتها الحادة المتنافرة . كان هذا الرجل يبدو مسكونا بعفريت الإخصاب فهو يطّبق على تلك المخلوقـات كل أنواع التـجـارب فيـزاوج اناث الكنارى وذكـور الخضـيرى ويزاوج ذكـور الكنارى واناث الحّسون وينتظر مـا ينتج عن هذا المزيج ، وكان يؤكد أن للطيور الهجينة صـفات أرقّ وأكثر تناسقا من تلك المعرقة .

وأندريس الإسكافى كان ، فوق ذلك كله ، فيلسوفا . فإن قيل له : « أليس لديك فى أولادك العشرة ما يغنيك عـن الطيـور ؟ أجاب قائلاً : « الطيور تنسينى الأولاد » .

ثم إن معظم أولاده بلـغوا سنّا تمكنهم من الاعتـماد على أنفـسهم ، فلقد ولّت إلى غيـر رجعة سنوات الشّدة . يروى أنه عندمـا استدعى أول زوج من أولاده التوائم للخدمة العسكرية ، دخل فى جدل حام مع مسؤول التجنيد عندما أصر الإسكافى على أنهما من وجبتين مختلفتين .

– ولكن ، يا ابن الحلال – قـال مسئول التجنيـد – كيف يكونان من وجبتين مختلفتين وهما توأمان ؟

وزاغت عـينا اندريس الإسكافى خلف سـاقى فتـاة حضـرت لتبـرير تخلّف أخيها ، ثم عدّل رقبته مثل حلزون منسحب إلى قوقعته وأجاب :

– ببساطة ، لأن اندريس الصـغير ولد الساعة الثانية عـشرة إلا عشر دقائق من يوم القّـديس سلفسـتـرس بينما ولد ماريانو بعـد دقائق من بداية السنة الجديدة .

مع ذلك ، ولأن الولدين كـانا مسجلين فى مـواليد ٣١ ديسـمبرفـقد اضطر اندريس إلى التسليم باستدعاء الاثنين معا . أما ولده توماس ، فكان يعمل فى شركـة للحافلات فى المدينة أما (الأحـول) ، فكان يساعده فى ورشتـه . وأمـا البقية البـاقية فـهم جميعـا مـن البنات ، طبعاً باسـتثناء جيرمـان (الأقرع) الذى كان أصغر الجميع سنا .

وجـيرمـان (الأقرع) هـذا هو من قال عن دانيـيل ، يـوم دخـوله المدرسة ، إنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ، وهو ، بالتالى ، من عمّد دانييل بلقبـه . مع ذلك لم يضمر له هـذا أى حـقد بل وجد فيـه ، ومنذ اليوم الأول ، صديقا وفـياً ولـم تشكّل قرعة جيـرمان عقبة أمام التـفاهم بل لقد مـهّـدت لتلك الصـداقـة لأن دانييل (الـبوم) أحّس مـنذ اللحظة الأولى بفضول شديد تجـاه تلك الجزر البيض المفتوحة فى محـيط مظلم من الشعر الأسود الذى يغطى رأس (الأقرع) .

مع ذلك ، ومع أن قرعــة جيرمان لم تكن مــدعاة للقلق لا فى بيت الإسكافى ولا بين حلقة أصدقائه الضيقة ، فإن (الفلفلة) الكبرى ، بدافع من شعور بأمومة قاصرة تشــمل به البلدة جمعاء ، قررت التدخل فى الأمر رغم أنه لا يعنيها من قــريب ولا من بعيد ، فهى مغرمة بالتــدخل فيما لا يعنيها ، وهى تتــصوّر أن اهتمامها الشــديد بأمور الآخرين يأتى بوحى من حرصها المحموم على عمل الخير ومن إحســاسها العالى بالاخوة المسيحية ، والواقع هو أنها تلجــأ إلى هذا السلوك ليكون فى مقدورها تســقّط الأخبار تحت غطاء من الحكمة وعمل الخير .

وفوجئ اندريس ، الرجل الذى لا يرى مــن جانبيه ، ذات مــساء ، وهو فى ورشته منكبا على عمله ، بالسيدة لولا تقف أمامه لتقول له :

– كيف تترك الصبى هكذا ؟

ولم يفقد الإسكافى هدوءه ، ولم يرفع عينيه عما فى يديه بل قال :

– ليكن كذلك ، ياسيدتى . فبعد مائة عام يبق من قرعته أثر .

ومع صخب الجداجد وطيور الخضيرى والحسون كان على (الفلفلة) والإسكافى أن يتحاورا صراخا . قالت هى آمرة :

– خذ . ضع له من هذا المرهم ليلا .

ورفع الإسكافى بصــره نحوها . تناول المرهم وتأمله وقلّبــه ثم أعاده إليها قائلا ، قبل أن يعاود الانكباب على عمله :

– احتفظى به لنفسك . إنه غير نافع . فقد أصيب الولد بالعدوى من أحد الطيور .

وقــد يكــون الإسكافى محقاً ، وقــد لا يكــون ، فــقد كــان جيرمــان (الأقرع) شديد الولع بالطيور ، ولابد أن هذا الــولع هو من بقايا طفولته المبكرة التى أمــضاها بين طيــور الخضيــرى والكنارى والحســون وزقزقــاتها

الصاحبة المدوية .

لم يكن فى الوادى من يفهم فى الطيور مثل جيرمان (الأقرع) الذى كان مستـعداً أن يمضى من أجلها أسبوعاً كـاملاً من دون أكل ولا شرب . ولا شك أن هذه الموهبة أثّرت كثيرا فى قرار روكى (البعرور) بعقد صداقة مع ذلك الصبى ذى البنية الضعـيفة الواهنة . وكثيرا ما كان جـيرمان يقول لهم ساعة الانصراف من المدرسة عصرا :

- أعرف مكانا فيه عش لطائر الخورى . إنه على سياج الصيدلية وفيه اثنا عشر فرخا .

أو يقول :

- تعالوا مـعى إلى حقل (الأمريكـى) ، فمع المطر الخفـيف تخرج الزرازير لنقر الروث .

كـان (الأقرع) خـير من يفـهم الطيـور بملاحظة اضطراب طيرانهـا وتشنّجه أو طريقة زقزقـتها ، كان يخمّن ردود فعلها ويعرف جـيداً عاداتها وتأثير تـقلبات الجو علـيها ؛ بل يجـوز القول إنه لو كـان رغب في تعلم الطيران لكان له ما أراد .

وكل هذا فى عرف (البـوم) و (البعـرور) موهبة لاتقـدر بثمن . فكان لابد لهمـا ، إذا خرجا للـبحث عن الطيور ، من صـحبتـه ، شأن الصّياد المرموق لايخرج من دون صحبة كلبه .

لكن هزال ولد الإسكافى سـبب له ، من ناحـيـة أخرى ، حـوادث خطرة مؤلمة . فبينما هو مـرة يبحث فوق النفق عن عش الطائر السمّان بين الحراج ، فقد تـوازنه وسقط على السكة سقطة شديدة كسرت لـها قدمه . وبعد شهر أخـبره دون ريكاردو بتماثله للشفاء ، لكنـه ظل يعرج فى قدمه اليمنى طوال حياته ، ولم يشغل ذلك باله كثيراً بالطبع بل واصل بحثه عن الأعشاش بحماسه واندفاعه المعهودين .

وسقط فى مناسبة ثانية من شجرة كرز برّى ، حيث كان يتربّص بالزرازير ، على عوسجة متشابكة الاغصان . وشقّت شوكة شحمة أذنه اليمنى بالطول ، ولم يشأ أن يخاط له جرحة فبقيت الشحمة مشطورة مثل ذيل بذلة الفراك . كان ذلك عنده من متاعب المهنة ، فلم يخطر على باله يوما أن يأسف لعرج فى قدمه أو لانشطار فى شحمة أذنه أو لقرعة يقول أبوه إنها جاءته من أحد الطيور . فمرحبا بالمصائب أن جاءته من الطيور . كان تفكيره ذاك ضربا من القدرية الرواقية التى لايمكن التنبؤ بحدودها . وسأله (البعرور) يوما وهو يشير إلي ما بأذنه :

- ألا يؤلمك هذا ؟

وابتسم جيرمان (الأقرع) ابتسامته الشاحبة الحزينة :

- أحيانا تؤلمنى قدمى عندما يكون المطر وشيكاً ، أما أذنى فلا تؤلمنى أبداً .

ولكن (الأقرع) كان يتمتّع بميزة هى فى نظر روكى (البعرور) أهم من خبرته بالطيور ، وتكمن هذه الميزة في ضعف بنيته . فقد كان جيرمان (الأقرع) يمثل فى هذا المعنى طعما ممتازا لافتعال العراك . وكان روكى (البعرور) يحتاج إلى العراك حاجته إلى خبز يومه ويجد فى الاحتفالات الصيفية التى تقام فى القرى المجاورة مناسبات جيدة لتمرين عضلاته ، ويخلق لذلك المناسبة والمبررات الكافية ، فثمّة حرص يضمره بطل البلدة عماده القوة والهيمنة على أبطال البلدات والقرى والضياع المجاورة . وكان جيرمان (الاقرع) ، وهو السقيم الهزيل ، يشكّل نقطة تماس جيدة بين روكى وخصومه ؛ ومحكاً رائعا للكشف عن التفوّق .

كان المشهد حتى اندلاع المعركة واحدا لايتغيّر . فبعد أن يعاين روكى (البعرور) الموقع من بعيد ، يهمس فى أذن (الأقرع) :

- اقتــرب منهم ولاتكفّ عن النظر إليـهم فكأنّك تريد سرقـة البندق الذى أمامهم .

ويقتــرب هذا خائفاً . ولكن لامـفر من الصفـعة الأولى ، فهو غـير مستـعد للتفريط بصداقـته الحميمـة مع (البعرور) بسبب صفـعة عابرة . ويقف على مســافة مـترين من المجمـوعة ويحدق فى أفـرادها ، ثم تنطلق التهديدات :

- لاتنظر هكذا أيها الأبله . أم انك لم تجّرب الضرب من قبل ؟

ولكّن (الأقـرع) يظل رابط الجـاش لايرّف له جفـن ولايتحـّرك من موضعــه وإن ارتعشت بعـض الشىء قدماه : فقـد كــان يعـرف أن دانييل (البوم) وروكى (البعرور) يكمنان خلف منصّـة العازفين . ويعاود زعيم الخصوم الكلام :

- ألم تسمعنى أيها القذر ؟ انصرف وإلا شطرتك نصفين .

ولا يأبـه جـيـرمـان (الأقرع) لتـهـديـده بـل يركّـز عيـنيه ، مـثل مصبـاحين ، فى علبة البندق دون أن يبدى حركـة ودون أن ينطق بكلمة ، وإن كان يخمّن فى داخله مكان الضربة ويفكر إن كانت كثافة العشب الذى يقف عليه كافية لتخفيف أثر الصدمة .

وينفذ صبر العدو الشقى :

- خذ أيها المتطفّل . . . ليكون لك درساً .

الغريب فى هـذه المناسبات أن جيرمان (الأقرع) كــان يحس بنجدة (البعـرور) قبل إحساســه بحرارة الصفـعة . كان يحس بنجـدته وصوته القريب القوى الراعى :

- ضربت صديقى ، أليس كذلك ؟ - ثم يضيف وهو ينظر بتأثر إلى جيرمان - : هل قلت شيئاً يا أقرع ؟

- لم أفتح فمى . بل ضربنى لأنى كنت أنظر إليه وحسب .

وهكذا تتوفر لـلشجار عناصره ويكون (البـعرور) صاحب حق لأن الآخر ضرب صاحبه لمجرد أن هذا كان ينظر إليه ، أى من دون سبب كاف أو تبرير تجيزه قواعد الشرف الأساسية السائدة بين الصبيان .

ولما كان تفوّق روكى (البـعرور) فى هذا الميدان أمرا مـفروغاً منه ، فقد كان المشهد ينتهى دائما بجلوسهم فى « معسكر » الأعداء لأكل البندق الذى خلفّوه .

الفصل السابع

ما كان بين الثلاثة مجال للخلاف ، فالكل يعرف موقعه بين أقرانه : دانييل (البوم) يدرك أنه قادر على تجاوز (البعرور) رغم أنه يفوقه ذكاءً، وجيرمان (الأقرع) يّقر بأنه أدنى من الاثنين الآخرين مرتبة رغم أن خبرته في الطيور تفوق مالديهما منها سعة وتفصيلا . فالتفوق هنا ليس مرهوناً إذاً بالذكاء ولا بالقابليات ولا بالإرادة بل بالعضلات . وهو أمر معقول ومنطقى ومقبول . ولكن هذا لا يمنع أن يكون دانييل (البوم) الوحيد القادر على اللحاق بقطارات البضائع وهى تنوء بحملها صاعدة أو بقطارات البضائع والركاب شرط ألا تكون فرغت من حمولتها أو ركّبت لها مقطورات جديدة . وما كان (البعرور) و (الأقرع) يضارعانه فى الجرى ، ولكن خفّة الرجلين ما كانت هى الأخرى الأساس فى التفّوق ، أنها مجرد صفة جديرة بالتقدير ، لا غير .

كان الأصدقاء الثلاثة يتردّدون أيام الأحد والعطلة الصيفية ، على الحقول والتلال ، ويقصدون ملعب الصولجان والنهر . وكان لهوهم متنوعا وفيه شئ من البدائية والقسوة . وليس من العسير فى مثل هذه السن العثور على اللهو فى أى مكان . كانوا أحيانا يعملون بمصياداتهم تقتيلا فى الزرازير والشحارير وطيور السمّان ، فقد كان جيرمان (الأقرع) يعرف أن الزرازير والشحارير والسمّان ، وهى من فصيلة واحدة ، تفضّل أن تعشّش بين شجيرات العوسج والعلّيق ساعات القيظ . وكان اصطيادها ، وهى بعد غافية على الأشجار أو فى الطريق ، يستدعى الخروج باكراً ، لذلك كانوا يفضّلون البحث عنها وقت اشتداد الحر ، عندما تكون راقدة بين الأحراج ، فالرمية حينها تكون أقصر والهدف أثبت والصيد ، بالتالى ،

يكون أسلم وأضـمن . ماكـانت عند دانيـيل (البـوم) أكلة ألّذ من طبق الزرازير بالرز . وكـان إن اصطاد أحدها تمـتّع حتى بنتف ريشـه ، إلى أن اكتشف يوما أن جميع الزرازير تقريباً تحمل قملاً تحت ريشها . وعندما أبلغ جيرمـان (الأقـرع) باكتشافـه العجيب ، أصيب بخيبة أمـل إذ ردّ عليـه (الأقرع) قائلاً :

- أوّ لا تعرف ذلك ؟؟ كل الطيور تقريبـا تحمل القمل تحت ريشها . ويقول أبى إن القرع جاءنى من طائر الوقوق .

وقرر دانيـيل (البوم) ألاّ يحاول اكتـشاف جديد فى عـالم الطيور ، فان هو أراد معرفة شئ عنها ، فعنده (الأقرع) ، فذلك أيسر وأسرع .

وكانوا أحـيانا يذهبـون إلى ملعب الصـولجان ، وروكى (البـعرور) هناك هو المتفوّق المطلق ، ومـا كان يجدى ان يهبهما عـددا من النقاط قبل بداية اللعب ، لأنه عند النهاية يكون قد سجل أعلى النقاط ومن دون عناء بينما لم يضف أى منهمـا شيـئاً على النقاط التى نالوهـا هبة ومنّة . كـان (البعـرور) يبدى فى هذه اللعبة قـوّة الرجال وثباتهم وبراعتـهم . أما فى مسابقات أعياد العـذراء ، فلم يكن (البعرور) ، وهو ينافس جميع رجال البلدة تقريبا ، يرضى بأقلّ من المرتبة الرابعة .

وكان بلوغه المبكر هذا يغيظ سارة أخته :

- دابة . . . . لن تصبح إلاّ دابة كأبيك .

وينظر إليها ياكو الحداد بعينين مبتهلتين ليقول كمن يصلّى :

- اللهم آمين .

لكن الأصدقـاء الثلاثة كانوا يجـدون التسلية كامـلة والمتعة كبـيرة فى النهر ، على الطرف الثانى المقابل لحانة كينو (الأقطع) ، حيث يمتد حقل فسيح تتوسطه بلّوطـه عظيمة ويحدّه فى نهايته سور حـجرى وعر يفصلهم

عن بقية الوادى . وفى مقابل السور « بركة الانكليزى » وبعد أمتار قليلة منها يبدأ النهر بالانسياب على عمق بسيط بين صخور وأحجار صغيرة . وهنا كان الثلاثة يصطادون السرطانات بأيديهم : يرفعون الأحجار بحذر ويمسكون بالحيوانات بقوة من طرف درعها العريض بينما تلوى هى فكوكها وتجاهد فى فتحها وغلقها فى محاولة أخيرة عقيمة للتملّص .

أما فى « بركة الانكليزى » فكانوا يصطادون الاسماك الصغيرة التى تندفع فى مجموعات ضخمة تجعل لون المياه داكناً . كان يكفى لاصطيادها بالعشرات أن يرمى فى الشبكة بأى طعم اصطناعى حاد اللون . ولكن وفرتها وسهولة اصطيادها جعلت الأولاد يستهينون بها وانتهى الأمر بهم أن عافوها . وحدث لهم مثل هذا مع الآس والزعرور الشوكى والتوت والبندق البرّى . ومما عمّق شعور الازدراء هذا فيهم أن دون مويسيس المعلّم كان يفضّل الطلاّب الذين ينفقون ساعات الفراغ البليدة فى جمع التوت والزعرور الشوكى لاهدائه إلى أمهاتهم أو فى صيد الأسماك الصغيرة ، كى ينالوا ، فوق هذا كله ، الشهادات التقديرية والدرجات العالية ومراتب الشرف فى نهاية السنة الدراسية . كان روكى (البعرور) ودانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) يشعرون تجاه هؤلاء بالازدراء ذاته الذى يشعرونه تجاه التوت والبندق البرى والأسماك الصغيرة . وفى ساعات القيظ الصيفية ، كان الأصدقاء الثلاثة يسبحون فى « بركة الانكليزى » ، فلا متعة لديهم تعادل متعة الإحساس بالماء وهو يلامس جلودهم فيبرّدها . كانوا يسبحون على شاكلة الكلاب فيشقّون الماء ويزيحونه من دون أن يحدثوا ، وهم مغمورون فيه ، أدنى ما يوحى بوجود حياة على امتداد مائة متر صعودا ونزولا .

وبينما كانوا مرة يفترشون حقل البلوطة يجففّون أجسادهم الصغيرة ، عرف دانييل (البـوم) وجيرمان (الأقرع) مـا يعنى أن يكون البطن يابسًا والمقصود بالاجهـاض . كان عمر دانييل حينها سبع سنوات ، أمـا جيرمان فكان فى الشـامنة . وكان روكى (البـعرور) عـاريا إلا من سروال مـرقوع ارتداه بالمقلوب . أمّا (البوم) و (الأقـرع) فكانا عاريين تماما إذ لـم يكن الحياء قـد ولد فيهما بعـد ، وكان روكى (البعرور) هو من أيقظه فيـهما ذلك اليوم .

ويقرن دانييل (البوم) ذلك كلّه ، دون أن يعـرف له تفسيرا ، بحوار جرى له مع أمه قبل ذلك بأربع سنين عندما حمل إليها صورة بقرة هولندية عظيمة .

قالت هى :

- ما أجملها ، دانييل ، أليس ذلك ؟ . إنها بقرة حلوب .

نظر الطفل إليهـا مندهشا ، إذ لم يشاهد من قـبل لبناً إلا فى القدور والجرار :

- لا ، أماه ، إنها ليست حلوبا . انظرى ، إنها لا تحمل جرارا .

وضحكت الأم من سذاجته وأخذته فى حضنها وقالت :

- البقرة الحلوب لا تحمل جرارا ياولدى .

نظر إلى وجهها ليرى إن كانت تخدعه . رآها تضحك فخمّن أن شيئا خفيا يقف وراء ذلك كله . ما كـان يعرف وقتهـا ، بسنواته الثلاث ، أن « هذا » موجود ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة بـوجوده . وأضاف متسائلا وقد تملّكه حرص مفاجئ على معرفة كل شىء :

- فأين تحمل اللبن إذاً ، أماه ؟

وواصلت أمه الضحك ، وتلعثمت قليلا وهى تردّ عليه :

- فى البطن طبعاً . . .

ودوت حيرة الطفل فى ما يشبه الانفجار :

- ماذا ؟

فأضافت وهى تشير بظفرها الافطس إلى ضرع البقرة البنّى :

- البقرة الحلوب تحمل لبنها فى بطنها .

وتردد دانييل (البوم) برهة وهو ينظر إلى الضـرع المنتفخ ؛ ثم أشار إلى الحلمة :

- واللبن يخرج من هذه النقطة ؟

- نعم ، ياصغيرى ، من هذه النقطة .

ولم يستطع دانيـيل تلك الليلة التفكير فى شىء آخـر . كان يرى فى ذلك كلّه سراً خفيّـا عليه ، غير خفّى على أمه . فـهى تضحك على غير طريقتـها عندما يسـألها عن أمور أخـرى . ثم بدأ ينسى الأمر تدريجـيا . وبعد أشهر اشترى أبوه بقرة ، ثم رأى بقرات الصيدلى العشرين ، ،ورآها وهى تحلب ، وصار بعدها يضـحك كثيرا لمجرد التـفكير فى أنه تصوّر فى يوم من الأيام أن البقرات التى لا تحمل جرارا لا تعطى لبناً .

تذكّر دانيـيل صورة البقرة الهـولندية ذلك العصر بينمـا هم فى حقل البلوطة جنب النهر وبينما كان (البعرور) مسترسلا فى الكلام .

كانوا قـد خرجوا لتوهـم من المـاء ، وكانت سياط باردة من نسـمات عليلة تجفّف أجسـادهم ؛ مع ذلك ، فقد خيّمت على الجـو حرارة شديدة دبقة . وشـاهدوا ، وهم مسـتلقون على ظهـورهم ، طائرا كبـيرا مـحلّقا فوقهم . وصرخ (البوم) :

- انظروا . لاشك أنه اللقلق الذى تنتـظره معلّمـة « لاكويرا » فـهو ذاهب فى هذا الاتجاه .

وقاطعه (الأقرع) :

- ليس هذا لقلقا بل كركى .

وجلس (البعـرور) على العشب وهو يزّم شفتـيه متبرمـاً ساخطاً .

وتأمّله (البوم) بإعجاب وهو يملأ صدره العظيم بالهواء ثم يفرغه منه .

قال (البعرور) :

- أى لقلق هذا الذى تنتظره المعلمة ؟ أما زلتم على هذا التفكير ؟

وعدّل (البوم) و (الأقـرع) من وضعيهمـا وجلسا على العشب .

كانا ينظران إلى (البعرور) بتطلع ويخمنان أنه سيقول شيئا عن « هذا » .

ومهّد له (الأقرع) مستفهماً :

- من يأتى بالأطفال إذاً ؟

والتزم (البعرور) الجدّ وهو يعى تفوّقه فى تلك اللحظة .

- الولادة - قال بحزم ومن دون مقدّمات -

- الولادة ؟ - - تساءل الاثنان -

- نعم ، الولادة - قال مؤكّدا - . الم تشاهدوا أرنبة تلد ؟

- بلى .

- وكذلك الإنسان .

وارتسمت على وجه (البوم) أمارات ذهول مضحكة :

- تقصد أننا أرانب ؟

كانت بلادة محاوريه تثير غضبه . قال :

- ليس كذلك ، بل هناك ، بدل الأرانب ، امرأة هى الأم .

ولمع فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :

- فليس اللقلق إذاً من يأتى بالأطفال . لقد كان يـبدو لى غريبا حتى

أننى كنت أقول لنفسى لماذا يزور اللقلق أمى عشر مرات وهى التى لا ترغب فى كثرة الأولاد ، بينما لا يزور جارتنا (الفطساء) ولا مرّة وهى التى تتمنّى أن يكون لها ولد ؟

وخفض (البعرور) صوته . كان يخيّم على المكان صمت لا يشوبه غير طرطشة بلورية تنبعث عن تيارات النهر وغير حفيف ناعم تحدثه ملامسة الهواء لأوراق الأشجار . كان (البوم) و (الأقرع) فاغرى الفم . قال (البعرور) :

- أتدرون ؟ الولادة مؤلمة .

وانفلت التردد المكبوت فى نفس (البوم) :

- من أين تعرف كل هذا ؟

- هذه أشياء يعرفها كل الناس الا انتما لانكما تعيشان غافلين . أمى ماتت من شدّة الآلام التى أحست بها وهى تلدنى . لم تمرض بل ماتت من شدّة الألم . يبدو أن الألم لا يطاق أحيانا فيؤدى إلى الموت ، من دون علّة ، فقط من شدة الألم .

- وأضاف وهو يشعر بالنشوة لانشداد مستمعيه إليه : - نسوة أخريات ينشطرن من النصف . سمعت ذلك من سارة .

وعلّق (الأقرع) :

- ثم بعد ذلك يمرضن ، أليس كذلك ؟

ويخفض (البعرور) صوته أكثر ليؤكد سرية مايقول :

- يمرضن عند رؤية الطفل . فالأطفال يولدون والشعر يغطى أجسامهم ، دون عينين أو أذنين أو أنف . يولدون وهم لايملكون غير فم كبير للرضاعة ، بعد ذلك تبدأ العيون والآذان والأنف بالظهور .

كان (البوم) يستمع إلى (البعرور) مختلجا متلهفا . كانت تتفتح أمام عينيه آفاق جديدة هى فى نهاية المطاف ، علّة الحياة والخليقة . وأحّس فجأة بالخجل وهو يرى نفسه عاريا فى الهواء الطلق . وأحّس فى الوقت ذاته بحب متجدّد متدّفق نحو أمه ، وشعر فى داخله وللمرة الأولى بعاطفة الدم ، وإن لم يدرك كنهها . فبينه وبين أمه رابطة ، شئ ما يجعل منها عنصراً حيوياً لا يمكنه الاستغناء عنه . والأمومة هكذا أجمل ، لأنها لا ترتبط بصدفة ولا بنزوة لقلق مزيفة . وشعر دانييل (البوم) أن أكثر ما أعجبه من كل ما صار يعرفه عن « هذا » هو إدراكه أنه ثمرة ألم عظيم ، وأن أمه ما كانت لتتجنّب ذلك الألم لأنها راغبة فى أن تلده هو بالذات .

ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى أمه بطريقة مختلفة ، ومن زاوية أبسط وأكثر إنسانية ، ولكنها أصدق وأكثر عاطفة . وصار يلفّه فى حضرتها إحساس غريب ، إحساس بالموازاة وبالحاجة المتبادلة . فكأن قلبيهما ينبضان فى وقت واحد ، معاً .

وما عاد يذهب للسباحة فى « بركة الانكليزى » إلا وهو يرتدى ، بالمقلوب (كالبعرور) ، سروالا قديما مرقوعا . ويفكّر فى بشاعة صورته ساعة ولادته وقد غطى جسمه الشعر دونما عينين ولا أذنين ولا منخرين . . . غير فم عظيم شره ، ويقول فى نفسه : « كنت مثل حيوان الخلد » . ثم لا يلبث اختلاجه الأولى أن ينقلب إلى ضحكة طويلة متشنجة .

الفصل الثامن

كانت (الفلفلة) الصغرى ، حسب قول روكى (البعرور) ، واحدة من ذوات البطون اليابسة فى البلدة . ومع صعوبة التحقق من ذلك ، فليس لقوله دلالة خاصة لأن كل ما فى (الفلفلات) يابس .

لقد عادت صغرى (الفلفلات) إلى البلدة فى قطار المحافظات بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام من هروبها . وكان حادث عودتها ، كحادث هروبها من قبل ، موضوع الوادى كله وإن مرّ بعد ذلك وطواه النسيان كغيره وحلّ محله حدث آخر أعقبه غيره غطّى عليه . وهكذا كان يسطّر تأريخ الوادى بسيطا موجزا . (الفلفلة) عادت بالطبع بمفردها ، أما ديماس ، موظف المصرف ، فلم يعادو الظهور رغم أن دون خوسيه القس لم يجد فيه امرء سوء . وسواء أكان ديماس طيبا أم سيئا فقد تبخر فى الهواء كالصدى بين الجبال . ومن دون أثر يذكر .

وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من حمل الخبر إلى البلدة . فبعد « اذاعة » دون رامون الصيدلى ، كان مأمور المحطة يمثل وكالة الأنباء التى يفضلها أغلب سكان المنطقة فالأخبار التى يبثها غريبة دائما وطازجة رغم أنها ليست على الدوام بناءة . وكوكو هذا رجل ذو شخصية قوية طاغية . وكان دانييل (البوم) معجبا بطبعه ومعارفه والسهولة التى يصرّف بها دخول القطارات وخروجها وحركتها فى الوادى . فكل ذلك يستدعى مقدرة ، وما سماحة طبع المأمور وموهبة التنظيم عنده بالأمور المرتجلة أو الطارئة عليه . عندما نزلت ايرنيه ، صغرى (الفلفلات) ، من القطار كانت الدموع تملأ عينيها ، وبدت أشد نحولا وهزالا مما كانت عليه وقت هروبها قبل ذلك بثلاثة أشهر . وبدت وكأنها تسير مثقلة بحمل خفّى

أحـدودب له ظهرها . كـان ، بلا شك ، من أثر تأنيب الـضمـير . أمـا ملبسها فكان مما ترتديه الأرامل ، الأرامل المفـجوعات ، سواد فى سواد ، مع منديل أسود صفيق يغطى وجهها .

كان المطر قد هطل طوال النهار ، ولم تكن (الفلفلة) ، وهى ترتقى العقـبة فى الطريق إلى البلدة ، تحـرص على تجنب الحفر ، بل كـانت تجد عزاء غريبا فى غـمس قدميها الصغـيرتين المرة تلو المرة ، فى البرك الموحلة المتناثرة على الطريق .

وبدت (الفلفلة) الكبرى منذهلـة وهى ترى أختها تقف مـترددة أمام باب الدكان . مرّرت يدها أمام عينيها وكأنها تحاول طرد شبح مخيف .

- نعم ، لولا ، أنا ايرنيه - همـست الصغرى - لاتستـغربى . لقد عدت ، عدت خاطئة نادمة . هل تسامحينى ؟

- بحق دهر الداهرين . تعالى هنا . . . ادخلى .

وتوارت الأخـتان فى الحـجرة الملحـقة بالدكـان ، وهناك تأملت كل واحد منهـما الأخـرى بصمت . أما الصـغرى فظلت منكمـشة مـخذولة مطأطئـة الرأس . أما الكبرى فـبدت وكـأنهـا سمنت مع رجـوع الأخرى نادمة .

- هل تدركين - ، ايرنيه ، مافعلت ؟ - بادرتها القول .

- اسكتى ، أرجوك - تأوهت الأخت الصغرى وانخرطت على المائدة تبكى بمرارة .

واحتـرمت (الفلفلة) الكبرى بكـاء أختهـا ، فالبكاء لازم لتطهـير النفس . ولما اسـتعـادت ايرنيه هدوءهـا ، تبادلت النظرات مع أخـتهـا . ماكانت الأختان بحـاجة للكلمات لتتفاهما ، فقـد كان التفاهم ينبع مما لا يعبر عنه بكلام .

- ايرنيه ... هل ... ؟

- نعم .

- يا الهى .

- لقد خدعنى .

- خدعك أم خدعت نفسك ؟

- لا فرق ، أختاه .

- هل كان زوجك عندما ... ؟

- لا ... ولا هو كذلك الآن .

- يا الهى وهل تنتظرين ... ؟

- لا . لقد قـال لى ... قال لى ... - وقطع النحيب صـوتها .

وساد الصمت من جديد . ثم سألت (الفلفلة) الكبرى :

- ماذا قال لك ؟

- قال إنه عقيم .

- النذل .

- وهكذا ترين أننى لن أحمل منه .

وهنا فقدت (الفلفلة) الكبرى آداب اللياقة ومعها زمام الأعصاب :

- فأنت إذاً تعرفين مـافعلت ؟ لقد ضيّـعت شرفنا . أهدرت شرفك وشرفى وشرف والدينا المرحومين .

- لا ، هذا لا ، لولا ، بحق السماء .

- ماذا تظنين إذاً ؟

- كفاك وهما أختاه ، نحن الدميمات لاشرف لنا .

وعلت وجهها ايماءة تسليم وهدّها يقين راسخ . ثم أضافت :

- هو قال لى ذلك .

- ولكن الا تعلمين أن شرف المرأة أعز عليها من الحياة ؟
- أعلم ذلك ، لولا .
- إذاً ؟
- سأفعل ما تأمرين به أختاه .
- وهل أنت مستعدة ؟
خفضت (الفلفلة) الصغرى وقالت :
- نعم .
- تلبسين السواد بقية عمرك ، وتبقين حبيسة الدار خمس سنين .
هذه هى شروطى .
- أقبل بها .
- اصعدى إلى البيت إذاً .
وأغلقت (الفلفلة) الكبرى الدكان بالمفتاح وصعدت وراء أختها .
وفى الحجرة جلست ايرنيه على حافة السرير ، وجاءتها لولا بطست فيه ماء فاتر فغسلت لها قدميها . كانت الاثنتان فى تلك الأثناء صامتتين . ولما انتهتا تنهدت (الفلفلة) الصغرى ثم قالت :
- ما أحقره !
ولم تعلق (الفلفلة) الكبرى بشيء . كان بؤس أختها يضفى عليها وقارا صارما .
وواصلت هذه الكلام :
- كان طامعا فى مالى . كان ، ابن الحرام ، يظن أن لدينا مالا كثيرا

- ولماذا لم تقولى له منذ البداية إننا لا نملك غير ألف دورو ؟
- كان ذلك سيعنى ضياعى ، أختاه . كان سيهجرنى وأنا أحبه .

- ما أضاعك هو سكوتك يامجنونة .

- لقد صرف كل مامعى .

- ماذا ؟

- عاشرنى مادامت النقود معى ، ولما انتهت تركنى مرميّة تائهة . إنه نذل ، يا أختاه وفاسد وقاس .

واكتست وجنتا (الفلفلة) الكبرى الهزيلتان بمزيد من الحمرة وقالت:

- إنه لص . هذا هو وصفه . إنه مثل ديماس الآخر .

وسكتت بعد أن هدأت سورة غضبها ، ولكن الوساوس لم تلبث أن بدأت تنخر فى ضميرها . فما الذى تفوهت به عن اللص الطيب ديماس ؟ ألم يرض الرب عن هذا الصنف من التائبين ؟ وأحست بوخز شديد فى ضميرها « غفرانك اللهم وعفوك » وقررت أن تذهب من غدها إلى دون خوسيه للاعتراف ، فهو القادر على مواساتها والصفح عنها . وكان ذلك هو كل ماتحتاجه آنذاك : قليلا من المواساة . ومرّرت من جديد يدها من أمام عينيها محاولة طرد الكابوس . وخطت بقوة وقالت :

- حسنا أختاه : غيّرى ملابسك . أنا نازلة إلى الدكان . وعندما تنتهين من تغيير ملابسك يمكنك الخروج إلى الشرفة لسقى الجيرانيو كما كنت تفعلين من قبل . وغداً ستذهبين لزيارة دون خوسيه ، فعليك أن تعجلى بتطهير روحك الشقية .

وقاطعتها (الفلفلة) الصغرى :

- لولا .

- ماذا ؟

- أشعر بخجل شديد .

- وهل بقيت لديك فضلة منه ؟

- من ماذا ؟

- من الخجل .

وأبدت ايرنيه ايماءة يأس :

- لا استطيع أختاه .

- لو أنك خجلت عندما هربت مع رجل غريب لما فعلت مافعلت .

- لا أستطيع . . . لأن دون خوسيه . . . قديس . لولا ، افهمى ذلك . إنه لايقّدر ضعفى .

- دون خوسيه يقّدر كل الضعف فى البشر ، فالرب موجود فيه . ثم أن التوبة الخالصة هى إحدى شروطى أتفهمين ؟

وسمع صوت قطعة نقود تضرب بزجاج الدكان ، فقالت (الفلفلة) الكبرى وقد نفد صبرها :

- هيا ، عليك أن تقررى ، فهناك من ينادى فى الأسفل .

وأجابت ايرنيه فى نهاية الأمر موافقة :

- حسنا ، لولا ، سأذهب غدا للاعتراف .

ونزلت (الفلفلة) الكبرى إلى الدكان وفتحت الباب فدخلت كاتالينا (الأرنبة) . كانت هذه ، شأن أخواتها ، مقلوبة الشفة العليا ، وكان أنفها الصغير ينكمش وينبسط فكأنه لا يكف عن الشم . ومن هنا دعين بـ (الأرنبات) ؛ وكذلك لقبن بـ (الكاكات) لأن أسماءهن هى كاتالينا وكارمن وكاميلا وكاريداد وكاسيلدا ولأن أباهّن كان لجلاجا يتلعثم بالكاف وهو يناديهن .

واقتربت كاتالينا من طاولة البيع :

- أريد ملحا ببيزته .

وبينما كانت (الفلفلة) الكبرى تلبّى طلبها ، رفعت وجهها الأرنبى

صوب السقف وارتعشت ارنبتا أنفها لثوان :

- لولا ، هل عندك غرباء ؟

وانغلقت (الفلفلة) باحكام على نفسها ، فالأرنبات يدرن بدالة البلدة والأخبار تصل اليهن بالسرعة نفسها تقريبا التى تصل إلى كوكو مأمور المحطة .

- لا . لماذا ؟ - ردّت بحذر -

- كأننى سمعت صوتا فى الأعلى .

- قد يكون القط .

- كلا ، كلا ؛ إنه وقع خطوات .

- القط أيضا له خطوات .

- افهمينى ، لولا ، أنها خطوات آدمى ، ولا أظنه لصاً .

- خذى الملح - قالت (الفلفلة) الكبرى مقاطعة .

وتطلعت (الأرنبة) من جديد إلى السقف وتشممت حولها مرارا وتكرارا ، وعندما وصلت إلى الباب التفتت لتقول :

- لولا ، مازلت أسمع وقع الخطوات فوق .

- حسنا ، اذهبى أنت فى أمان الله .

ولم يحدث أن تردد عدد من الناس على دكان (الفلفلات) كما حدث ذلك المساء . كما لم يحدث أن خرج من ذلك العدد الضخم من الزبائن مبلغ على ذلك القدر من الضآلة .

كانت ريتا (البلهاء) ، امرأة الإسكافى ثانية الزائرات :

- اعطينى بريالين من الملح .

- ألم تشترى ملحا أمس ؟

- بلى ولكننى أريد المزيد .

ويعد توقف خفضت (البلهاء) صوتها .

- النور مضــاء فى الطابق العلوى ، ولا بد أن عدّاد الكهــرباء يجرى بسرعة .

- وهل ستدفعينه عنى ؟ .

- كلا بالطبع .

- دعيه يجرى إذاً .

وتقاطرت من بعد باسى ، خادمة الصيدلى ، ونيوكا ، امرأة الجانو ، وماريا (الفطساء) ، وكانت هى الأخرى يابسة البطن ، وسارة (البعرورة) و (الأرنبات) الأربــع الباقيات وخــوانـا ، القيمة على منزل دون انطونيو (الماركيز) وروفينا ، زوجة بانجو ، التى ما عادت منذ أن تزوجت ، تؤمن بالرب ولا بالقديسين ، وعشرون امرأة سواهن . جئن جميعهن ، باستثناء (الأرنبات) الأربع لشراء الملح ، وســمعن كلهّن وقع خطوات فى الطابق العلوى وقلقن كــافتّــهن وهّن يرين النور مــضاء وعـــداد الكهربــاء يســرع الجريان .

وفى الساعــة العاشرة ، عندمــا كان الهدوء يخـيم على البلدة ، علا صوت پاكو الحداد القوى الصارم كان يسيــر مترنحا فى الشارع فتوقف أمام شرفة (الفلفلات) . كان يحمل فى يمناه زجــاجة ويهرش باليسرى قفاه . ولو لم تكن البلدة كلها قد علمت بالخبر لما كــان لعباراته التى تفوه بها من معنى ولا كان بينها من ترابط .

- عــاشت الأخت الضالة ، عــاشت صاحـبــة الفخــذين الناشفــتين والصدر المتخشب . . .

وقام بحركة هزلــية متصنعا الذهول وعاود هرش قفــاه وتجشأ ثم نظر من جديد إلى الشرفة وقال :

- من خطف قلبك ؟ ديماس ؟ اللص الطيب ؟

كان يضحك وقد التصقت ذقنه الجبارة بصدره العريض . أما (الفلفلات) فقد أطفأن النور ورحن يرقبن مثير الفضائح من إحدى فتحات النوافذ . « ومن عساه يكون غير هذا السافل الساقط » دمدمت (الفلفلة) عندما لمحت ضياء مصباح الشارع الخافت منعكسا على شعر الحداد الأحمر الكث . وأصيبت (الفلفلة) الصغرى بما يشبه النوبة العصبية عندما نطق الحداد باسم ديماس . اطردى هذا الرجل من هنا . أتوسل إليك أختاه . اطرديه ، فصوته يفقدنى صوابى . وحملت (الفلفلة) الكبرى السطل الذى ينتهى إليه ماء المغسلة وفتحت الشباك قليلا لتسكب ما فى السطل على وجه پاكو الحداد الذى كان فى تلك اللحظة يبدأ هتافه من جديد :

- عاشت الأخ . . .

وقطعت رشقة الماء عليه العبارة فنظر إلى السماء ببلاهة وبسط ذراعيه العظيمتين ، اللتين شكلتا مع بدنه صليبا ، وقال مخاطبا نفسه وهو يتقدّم مترنحا صوب الطريق العام :

- عد إلى بيتك ياپاكو ، فالسماء تمطر من جديد .



الفصل التاسع

لقد أدرك دانييل (البوم) أن ليس من السهل عليه أن ينام ، فرأسه الجامح فى انفعال محموم نحو الذكريات كان يغلى باحتدام لا يعرف لحظة من الهدوء . المشكلة هى أن عليه أن يبكر فى غده ليأخذ القطار السريع الذى سيحمله إلى المدينة . ولكنه غير قادر على تجنب التفكير . لم يكن هو من يستحضر الأشياء والوادى بل كانت الأشياء والوادى هى التى تفرض نفسها عليه وتلّفه بلغط الحياة فيها وبسعيها الدؤوب وبتفاصيل يومه الكثيرة التافهة .

من خلال النافذة المفتوحة المواجهة لسريرة الشكّاء كان يشاهد قمة جبل « راندو» مغروسة فى جوف السماء المليئة بالنجوم . وكان الليل يضفى على الجبل لونا مظلما كالحا . فذلك الليل ، كعهده منذ احدى عشرة سنة ، يتحكم فى الوادى كما يتّحكم روكى (البعرور) فى صاحبيه (البوم) و (الأقرع) . كانت حكاية الوادى القصيرة تمر فى مخيلته فتراها عينا روحه ، بينما تؤجج صافرات القطارات القاصية وخوار الأبقار الحالم ونقيق الضفادع الكثيب المنطلق من تحت الأحجار وروائح الأرض النديّة حنينه وتضفى على ذكرياته لمسة من واقعه المحسوس .

مع ذلك فهذه الليلة لا تختلف عن كثيرات غيرها مررن على الوادى. إنها ، دون إمعان فى التذكر ، كتلك الليلة التى تسلقوا فيها سياج مزرعة (الامريكى) ليسرقوا التفاح .

ما كان التفاح فى الواقع يعنى شيئاً بالنسبة لـ (الأمريكى) الذى يمتلك فى المكسيك مطعمين فاخرين ومعرضا لاجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية . كما لم تكن تفاحات (الامريكى) تعنى الكثير بالنسبة إليهم

وهم الذين يجدون فى حدائق بيوتهم من التفاح ما يعدل تفاح تلك المزرعة جودة . أمّا لماذا يسرقون التفاح فتلك مسألة بالغة التعقيد . ربما ، وببساطة ، لأن أياً منهم لم يكن تجاوز حينها التاسعة من العمر ، ولأن الاحساس بالممنوع كان يطبع أفعالهم الصبيانية بمتعة لا يمكن وصفها . انهم يسرقون (الامريكى) تفاحاته للسبب ذاته الذى يجعلهم يتحدثون ، وهم فى الجبال أو فى حقل البلوطة بعد السباحة ، ويضربون أخماسا لأسداس حول « هذا» الذى هو فى الواقع علّة الحياة وسرّها .

لم يكن خيراردو ، قبل أن يهاجر من البلدة ، يدعى بـ (الأمريكى) كان ، وحسب ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيلا القصّابة ، والأشد خجلا بين أولادها على حّد قولها . وإذا كانت أمه تؤكد أنه « الأشد خجلا بين أخوته » فان أهل البلدة يجزمون أنه كان ، قبل رحيله ، نصف أبله وإنه لو قصد المكسيك حقا فلن ينفع إلا اجيراً أو حمالاً فى الميناء .

ولكن خيراردو ذهب وعاد ، بعد عشرين عاما ، ثريا . لم يكتب لأحد طوال ذلك الوقت ، وعندما عاد إلى الوادى كان الدود قد أتى على دفتى والدته القصابة وكبدها وكليتيها .

ويكى خيراردو ، الذى صار يدعى بـ (الأمريكى) . برهة فى المقبرة المجاورة لـلكنيسة دون أن يتدلى المخاط من منخريه كما كان حاله فى الصغر ، ودون أن يسيل رواله كشأنه آنذاك .

بكى بصمت دون أن يذرف دمعة واحدة ، وكما يبكى المتحضرون ، على حد تعبير القيّمة على بيت دون انطونينو (الماركيز) . ومعنى هذا أن خيراردو تغيرّ كثيرا . أما أخوته فقد بقوا فى مكانهم لا يبرحونه رغم أنهم كانوا ، فى نظر أمهم ، أكثر ذكاء منه . لقد حل الأخ الكبير - قيصر - فى دكان والدته ليبيع الأكباد ولحم الدفتين والكلى إلى أهل البلدة وليموت

بعد سنوات كما ماتت السيدة ميكائيلا وليهب ، كما فعلت هى ، كبده ولحم دفتيه وكليتيه إلى دود الأرض . فما أعجبه من سلوك متناقض غريب ! أما الآخر ، داميان ، فكان يمتلك أرضا زراعية على الجانب الآخر من النهر . ما كانت تساوى شيئا بل كانت مساحات من المروج وحقول الذرة الذاوية يقتات منها أربعة كوارتوس . يكسبها من دزينة الدجاج التى يملكها فى حظيرة داره .

عندما زار خيراردو (الامريكى) البلدة أول مرة . أحضر معه امرأة لا تحسن الكلام وابنة لا تتجاوز العاشرة وسيارة لا تصدر ضجيجا . كانوا جميعا ، والسيارة معهم ، فى أبهى حلّة . وعندما قال خيراردو إنه ترك فى المكسيك مطعمين فاخرين وباخرتين ملاحيتين ، تملق قيصر وداميان لشقيقهما كثيرا وأبديا رغبة فى العودة معه ليصّرفا له شؤون مطعميه وباخرتيه ولكنه لم يوافقهما على ذلك بل أقام لهما محلا للأجهزة الكهربائية فى المدينة . وهكذا رحل هذان عن الوادى وتنكرا له ولأسلافهم وصارا لا يزوران البلدة إلا من حين لآخر . فى أعياد العذراء عادة وهما يرتديان القبّعات المكوّية والياقات المنشأة وليجزلا فى العطاء لمن يخدمهما ولينظما مباريات الأكياس والأشرطة وليضعا على طرف عصا الكوكانيا جائزة الدوروات الخمسة .

سأل الأصدقاء خيراردو مّرة عن سبب زواجه من شقراء لاتحسن من الكلام إلا قليله وهو من هو شأنا ومكانه فابتسم (الامريكى) وردّ عليهم من دون انفعال قائلا لهم أن للشقراوات فى أمريكا قيمة عالية ، وأما عن لسانها فانها تتكلم ولكن بالانكليزية لأنها يانكى . ومنذ ذلك الوقت صار اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، يطلق اسم (يانكى) على كلبه لأنه ، كما يقول يتكّلم كما تتكلّم امرأة خيراردو (الامريكى) .

على أن (الامريكى) لم يتنكر لبلدته ، والناس عندما يصيرون أغنياء يتعلّقـون بالمكان الذى كانوا فيـه من قبل فقراء ، وهذه هى أفـضل طريقة للبـرهنة على الانقـلاب الذى طرأ على حـالهم وأوضح سـبيل لـلشعـور بالسعادة وهم يرون الآخرين ، وكانوا مثلهم فقراء ، وقد ظلوا على فقرهم رغم مرور الزمـان . لقد اشترى بيت أحـد المصطافين ، أمام الصيـدلية ، وحّوره وملأ حـدائقه بالنباتات الجمـيلة وبالأشجار المثمـرة وصار يأتى من وقت لآخـر لقضـاء بعض الوقت فى البلدة . وقد اعـترف مـؤخرا أمـام أصدقائه القدامى أن أحواله فى المكسـيك تسير على ما يرام وأنه يملك هناك مطعمين فـاخرين توكيلاً لأجـهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحـية أى بزيادة واحدة عن المرة الأولى التى زار فـيها البلدة . ولكن مـالم يرتفع عدده هم أولاده ، فما كان عنده غير ميكا التى كانوا يدعونها هكذا ، رغم أن اسمها كاسم جدتها هو مـيكائيلا ، لأن الأغنياء فى المدن ، حسبما تقـول القيّمة على بيت دون انطونينو (الماركـيز) ، لا يرغـبون فى إضـاعة وقتـهم فى مناداة الاشخـاص بأسمـائهم كاملة . ثم أن نحافـة الـ (يانكى) ، وهى التى ما كانت تـهبط على الوادى إلا لماما ، ما كانت تسـمح بإنجاب المزيد من هؤلاء الأولاد . ولو أن الأمر تعلّق بقيصر ودامـيان لفضّلا لو أن ميكا هى الأخـرى لم تولد وان حملوا لهـا عند قـدومهـا من أمريكا ، باقـات الزهور وعلب الحـلوى وحـملوها إلى أفـضل مـسـارح المـدينة وأرقى مطاعمها .هذا، على الأقل ، ماكانت تقوله القيّمة على بيت (الماركيز) .

لقد أحبت ميكا بلدة أبيها ، ولطالما صرحت بأن المكسيك لا تعجبها، أما اندريس الإسكـافى فكان يقول إنه عندمـا يمتلك المرء مطعمين فـخمين وتوكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية فى بلد ما فليس من الصعب التحقق مـن إعجابه بذلك البلد أو نفوره منه . ومـا كان لميكا أى من تلك

الأشياء فـى الوادى ، مع ذلك فقد كانت تبـدو سعيدة فـيه ، تزور البلدة كلما سنحت الفـرصة وتقيم فـيها حـتى يأمرها أبوها بالعودة ، حـتى أنها أقامت مـؤخرا ، وقـد صارت آنسـة ، مدة طويلة فى البلدة بينمـا والداها يقيمان فى المكسيك ، وعمّاها اللذان يدعيان فى البلدة بـ (خيال الأمريكى) يرعيان شؤونها ويزورانها بين الحين والحين .

لقد ولد دانيـيل (البوم) وقت أن ارتفع عدد البـواخر من اثنتين إلى ثلاث، أى عندما كان (الامـريكى) يدّخر لشراء الثالثة . كان عـمر ميكا تجاوز آنذاك التاسعة وكانت قد عرفت البلدة لتوها .

ولكن عندمـا خطرت لروكى (البـعرور) فكرة سـرقة التـفاح كـان خيراردو يمتلك البواخر الثلاث وكان عمر ميكا سبعة عشر عاما . وكان فى مقدور (البـوم) آنذاك أن يستنتج أن (الأمريكى) تقدّم كـثيرا رغم أنه لم ينفق أربعة عشر عاما فى الدراسـة ورغم أن أمه القصّابة كـانت تصفه بأنـه « الأشد خجلا من الآخرين » ورغم أنه كان يمضى اليوم متجوّلا فى البلدة وقد تدلّى المخـاط من أنفه وسـال الروال على حنكه . وسواء أكـان الأمر حقيقة أم لـم يكن فهو مـا يقال فى البلدة وليس هناك ما يدعو للظن بوجود اتفاق ليقصّ عليه الجميع كلاما ملفّقا .

عندما تسلقوا سياج مزرعـة (الأمريكى) أحّس دانييل (البوم) بقلبه يدق فى حنجرته . الواقع أنه ما كان راغبا فى تفاح بل فى إتيان شئ محرم . كان روكى (البـعرور) أول من هبط على الجانب الآخر من السـياج ، نزل بهدوء القطط ورشقـاتها فكأن نوابض شدّت إلى ركبتيـه وردفيه . ثم لوّح من مكمنه خلف الشجرة لرفيقيه كى يعجّلا بالنزول . ولكن ما عجّل فى دانييل كان قلبـه الذى راح ينّط مثل مجنون منفلت . كان يشـعر بخدر فى أطرافه ويحسّ برهبة غامضة تبدد جرأته .

قفز جيرمان (الأقرع) ثانيا ثم دانييل (البوم) آخرهم . كان (البوم) مطمئنا بعض الشئ بعد أن انتقلت إليه فى الأسابيع الأخيرة عدوى وساوس (الفلفلة) الكبرى . لقد سأل دون خوسيه صباح ذلك اليوم :

– سيدى القس ، أمن الخطيئة سرقة تفاح رجل غنى ؟

فكّر دون خوسـيه ، وهو القديس العظيم ، قليـلا قبل أن يسمّر فـيه عينيه النافذتين مثل طرفى دبّوس :

– فى ذلك نظر ياولدى . فـإذا كان غنيا جـدا وكان السـارق مضطرا للسرقة كيلا يموت جوعا فإن الرب يقّدر هذا فيرحم ويغفر له .

واطمـأن (البوم) فى سـريرته فخـيراردو (الأمـريكى) رجل غنى جدا. أمـا من ناحيـته هو ، أفلا يمكن أن يصـاب بما أصيب به پيـپه (ذو الرأس الكبير) الـذى صار كسيحـا بسبب نقص الفيتـامينات حتى أن دون ريكاردو الطبيب نصحه أن يكثر من أكل التفاح والبرتقال إن هو أراد الشفاء من مرضه ؟ ومن ذا الذى يضمن له أنه إن لـم يأكل من تفاح (الأمريكى) فلن يصاب بمثل ما أصيب به (ذو الرأس الكبير) ؟

أحّس دانييل (البـوم) بطمأنينة أكثر وهو يفكر فى ذلـك ، وخفّفت عنه كذلك معرفته بأن (الأمـريكى) وزوجته موجودان فى المكسيك ، وأن ميـكا و (خيـال الامريكى) مـوجودون فى المدينة وأن باسكوالون عـامل الطاحونة والمسؤول عن الـبستان ، موجود فى حـانة الجانو يلعب الموس . فإذا لـم يكن ثمـة ما يخشـاه فلماذا يدق قلبه إذاً بتـلك الصورة المضطربة ؟ ولماذا يحّس بفراغ هائل فى مـعدته ؟ ولماذا تنثنى رجلاه عند الركـبتين ؟ . ثم : ليس هناك مـن كـلاب ، ذلك الأسـلوب الوقـائى الـذى لا يروق لـ (الأمريكى) ، ولا من نوابض صائدة ولا شراك مدفونة فعلام الخوف ؟

وراح الثلاثة يتقدّمون بحذر ويتحركون بين أفياء الحديقة الواسعة تحت سماء سامقة مزدانة بنجوم دقيقة ، ويتخاطبون بهمس خفيف بينما العشب يهّس بنعومة تحت أقدامهم ، كان يخيّم على المكان جو من الأصوات الخافتة والهمسات الغامضة تشدّ أعصاب دانييل (البوم) وتوترها .

– وإذا أحّس بنا الصيدلى ؟ – تمتم دانييل فجأة . لكن همسة زاجرة آمرة من روكى (البعرور) أسكتته . إنهم يتقدمون فى المزرعة ، فلا تخاطب بينهم بغير الاشارات . كانت إيماءات روكى العصبية ، وهو يراهم يتأخرون فى فهم إشاراته ، تكتسب فى الظلمة قوة وتأثيرا كبيرين .

ولما بلغوا شجرة التفاح المقصودة ، وكانت ترتفع لعدة أقدام خلف البناء ، قال لهم (البعرور) :

– ابقوا هنا وأنا سأهزها .

وتسلّق الشجرة ، وتسارعت دقات قلب (البوم) عندما بدأ (البعرور) يهزّ أغصانها بكل قوته وعندما بدأت التفاحات الناضجة تسقط على العشب وتنقر الأرض نقر البرد . ماكان هو وجيرمان (الأقرع) قادرين على جمع كل الثمار الساقطة ، بل كان (البوم) يفتح فمه مع كل انحناءة لشعوره بأن الهواء يعوزه وبأنه موشك على الاختناق . وفجأة توقف (البعرور) عن هز الشجرة :

– انظرا . . . السيارة قادمة ! – قال وهو بعد فى أعلى الشجرة بصوت منقبض غريب .

ونظر (البوم) و (الأقرع) ناحية البيت المظل . كان جناح سيارة (الأمريكى) السوداء ، وهى أقل ضجيجا من تلك التى جاء بها أول مرة إلى البلدة ، يتلألأ من خلف ركن البناية . كانت شفتا جيرمان (الأقرع) ترتجفان وهو ينادى :

- انزل . . . بسرعة . . . إنها هى .

كان دانييل (البوم) وجيرمان (الاقرع) يتحـركان وقد ثنيا جسميهما من الوسط ليتـمكنا من حمل كومة التـفاح . وخشى (البوم) أن يفـاجئه أحد وهو على هذه الهيأة فأيد بحرارة قول (الأقرع) :

- هيّا ، بعرور ، انزل . فلدينا منه الكثير .

لقد أفقدهم الخوف اتزانهم فبدا صوت دانييل مضطربا ونبراته عالية . ولما حاول (البـعرور) الإسراع فى النزول داس على غصن فـدّوى صوت انكساره فى ذلك الجـو الخالى إلا من الحفـيف والهمس مثل عـيار نارى .

كان اضطرابهم فى ازدياد :

- انتبه (بعرور) .

- سأخرج .

- اللعنة !

- جبان من يجتاز السياج أولا !

ليس من اليسير تحديـد المكان الذى خرج منـه الشبح ، ولكـن دانييل (البوم) صار من يومهـا يؤمن بالسحر والعفاريت والأشبـاح . إنها ميكا تقف أمامهم طويلة ممشوقة القوام وقـد ارتدت بدلة بيضاء . كانت صورتها تكتسب فى الظلمة الدامسة حضورا علويا كحال جبل (راندو) .

- فأنتم إذاً من يسرق التفاح ؟ .

وترك دانييل (البـوم) وجيرمان (الأقـرع) التفاحات تسـقط واحدة فواحدة . كان الذعر يقطع أنفاسهم . أما ميكا فكانت تتكلّم على سجيتها دونما اضطراب فى نبرة صوتها :

- هل يعجبكم التفاح ؟

وتلجلج دانييل (البوم) المفزوع للحظة :

- نـ . . . نعم . . .

وأطلقت مـيكا ضحكة بدت انعكاسـا لشعـور خفى بالانبـساط . ثم قالت :

- ليأخذ كل واحد تفاحتين ويتبعنى .

وامتـثلوا لأمرها . واتجـه الأربعة صـوب الرواق . ولما وصلوا هناك أنارت ميكا المكان بعد أن حرّكت عتلة مخفية وراء أحد الأعمدة . كان من حـسن حظ (البوم) أن حـال العـمود بين النـور وبين وجهـه المكروب . وعاودت مـيكا إطلاق ضحكتها الغـريبة ، وخامر (البـوم) خوف من أن تقدم الفتاة على تسليمهم إلى الحرس المدنى .

لم يكن (البوم) شـاهد ابنة (الأمريكى) عن قرب من قـبل . لقد أنساه وجهها وقوامـها لبرهة موقفه المحرج وذكّرته نعومة صـوتها وموسيقاه بطائر الحسـون . كانت بشرتهـا رقيقة مـحمّصـة وعيناها غامـقتين مظلّتين برموش كالحة السواد . أما ذراعاها الطويلتـان المطاطيتان وساقاها الطويلتان الرشيقتان فلها حمرة صدر ذكر الحـجل . وكانت خفّة حركتها وهى تنتقل من مكان إلى آخر توحى بقدرتها على الطيـران والانطلاق إلى الفضاء مثل فقاعة من الصابون .

- حسنا . فأنتم الثلاثة إذا لصوص صغار - قالت فجأة .

وأقر دانييل (البوم) فى دخيلته أن فى مـقدوره إمضاء كل وقته وهو يسمـعها تقـول فى حقّه إنه لص صـغير دون أن يمـل من ذلك أو يتعب . فوصفـها له بـ « اللص الصغـير » تعدل مداعـبتها لخدوده بيـديها ، يداها الصغيرتان الناعمتان الرقيقتان .

واستندت ميكا على أريكة فتحدّدت معالم جسمها . قالت :

- لن أعاقبكم هذه المرة - سـأترككم شرط أن تعدونى أنكم إن أردتم التفاح ثانية فعليكم أن تطلبوه منى لا أن تتسلقوا السياج كاللصوص .

ونظرت إليهم الواحد بعد الآخر وهم يهزّون رؤوسهم موافقين .

- يمكنكم الذهاب الآن .

وخرج الأصدقاء الثلاثة من البـاب الكبير فى هدوء . ساروا دون أن يتبادلوا الكلام . كان الصـمت ثقيلا مطبقا يفرضـه عليهم إدراكهم أنهم ما كانوا أحرارا طلقـاء إلا لعفو الآخرين وكرمـهم وليس لمهارتهم هم وحسن تخلّصهم . وفى هذا ما يبعث على الخيبة وخصوصا لدى الأطفال .

نظر روكى (البعرور) عرضا إلى (البـوم) الذى كان يسير بفم فاغر وعينين شاردتين . فجذبه من ذراعه قائلا :

- ما بك يا (بوم) ؟ أراك كالمشدوه .

ولـم ينتظر الرّد بل رمى بتفاحتيه على جسمين داكنين كانا يرعيان بأمان فى مزرعة الصيدلى .

الفصل العاشر

كانت صداقة (البعرور) تلزم دانييل (البوم) أحيانا بمضاعفة جرأته وهووضع شجاعته موضع اختبار ، ذلك أن (البعرور) كان يرى أن شجاعة المرء قد تتغير بين ليلة وضحاها كالمطر أو كالريح فهو شجاع اليوم مسلوب الإرادة غدا وبالعكس ، أما تقرير ذلك فيعتمد على قبوله مجاراة (البعرور) فى مآثره اليومية أو رفضه لذلك .

- جبان من لايفعل هذا - كان يستفزهم المرة تلو الأخرى ، ليجد دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) نفسيهما مجبرين على اجتياز الجسر مشيا على حافته ذات السنتيمترات الخمسة عشر ، أو الانجراف مع تيار النهر والغوص ومن ثم معاودة الظهور ، مدفوعين بتيار الأعماق ، فى « بركة الإنكليزى » أو ملاقاة القطار وهو داخل النفق . ولطالما أفاق دانييل من نومه مذعورا لاهثا وهويمسك متشنجا بمرتبة سريره إذ لم يفلح فى مجاراة (البعرور) فى مآثره . انه لايغرق فى النهر كما رأى فى منامه ولايتدلّى من حافة الجسر ويرتطم بالصخور بعد سقوطه ولاينجرف تحت حدائد القطار المزمجرة . إنه بخير ويرقد مرتاحا فى سريره الحديدى ولاشىء يدعو البتة إلى الخوف .

ومن هنا كانت أيام المطر تعنى هدوءا غير مألوف .

وأيام المطر فى الوادى كثيرة رغم ما يقال من أن كل شئ قد تغير فى السنوات الأخيرة حتى لقد عزّ الكلأ بسبب شحّة المياه ، وهو ما لم يحدث من قبل اطلاقا . ان دانييل يجهل مقدار ما كان يسقط من مطر فى الوادى ، ولكنه يستطيع الجزم أنه الآن يسقط بغزارة ، ثلاثة أيام من كل خمسة وهو مقدار لايستهان به .

ومع سقـوط المطر تتغيّـر معالـم الوادى ، فـالجبال تكـتسى لونا داكنا مكفهرا لايخفّف من حـدّته إلا الضباب والحقول تتفجّـر فى صخب أخضر متلألئ يوشـك أن يكون أليما . أما لهـاث القطارات فيسمع من مـسافات أبعد ، وتتـقاذف الجبال صـفيرها حتى يختـفى بعد أن يتحـول إلى أصداء قاصية ثم إلى رنين خـافت يكاد لايسمع . وقد تعلق الغيوم بالجبـال فتبدو قممها مثل جزر معزولة فى لجة محيط رمادى مضطرب الموج . وما كانت عـواصف الصيف تفلـح فى التخلص من طـوق الجبـال ، فكانت تواصل الهبـوب أحيـانا لثلاثة أيام دونما انقـطاع . على أن البلدة كانت مـستـعدة لمواجهة هذه الحالات الطارئة : فمع أولى القطرات تخـرج الأحذية الخشبية فيضج الوادى على مدار الساعة بطقطقـاتها الرتيبة الموزونة . ويـرى دانييل (البوم) أن الوادى لايكتسب هيأته المنـاسبة إلا فى مثل تلك الأيام الممطرة أو فى أيام الميلاد حين ينهـال الثلج بغزارة ، فما يناسـبه هو المطر والرطوبة والحـزن والكآبة ، حتى أن الكسل والخـمول اللـذين يميزانه يتـلاشيـان مع الشمس الساطعة ومع الآفاق الزرق الرحبة .

كان لأيام المطر عند الأصدقاء الثلاثة سـحر خاص وفتنة لازمة . فهى عندهم مناسـبات للتخـطيط والتأمل والتـذكر ، وهم أثناءها لاييـدعون بل يجترون ، ولاينشطون كان الحـديث الهـامس فى متبن بيت (البوم) يمثل عنده مناسبة لاستحضار أيام الشتاء اللذيذة حين كان أبوه يجلسه أمام الموقد ليقص عليه حكاية النبى دانييل أو عندمـا كانت أمه تضحك لقوله بأن على البقرة الحلوب أن تحمل جراراً .

كان الثلاثة يفترشون الـتبن ويراقبون الطريق العام والسكة الحديدية من الكّوة الأمامية ويخططون لمشاريعهم .

وحدث فى واحد من تلك الأيام أن تكونت لدى (البوم) ، وهم فى متبن بيته ، فكرة واضحة عن قوة روكى (البعرور) وعن مقدار المرارة التى

يحسّها المرء عندما لايحمل ندبة في جسمه . حدث ذلك عصر يوم صائف ، بينما كان المطر يدق على سقف معمل الجبن القرميدى ، وبينما كان الوادى يقبع تحت وطأة سماء ثقيلة رمادية رتيبة .

ما كان (البعرور) يكتفي بمجرد النظر إلى عضلاته المفتولة :

- انظر . تحسّس ! تحسّس !

ثم ثنى ذراعه فبرزت كتلة غير متناسقة من العضلات والأوتار المتعرّجة . ومدّ (البوم) متردداً أصبعه وتحسسّها . .

- صلبة أليس كذلك ؟

- بلى .

- طيب فانظر هنا .

ورفع بنطاله المخملي وكشف عن ساقه ووتر عضلاته فصارت كالهراوة صلابة :

- عاين ! تحسّس ! تحسّس !

ومن جديد تحسّس أصبع دانييل كتلة العضلات الضخمة تلك ، متبوعا عن كثب باصبع (الأقرع) .

- إنها أشد صلابة من عضلات الذراع . أليس كذلك ؟

- بلى .

ثم كشف عن صدره وجعلهم يتحسّسونه أيضا ثم يعدّون حتى المائتين قبل أن يزفر ويعاود استنشاق الهواء . وطلب إليهما أن يجربا ذلك :

أما (الأقرع) فبلغ الأربعين ، وأما (البوم) فقد بلغ السبعين ولكن بعد جهد كبير امتقع له لون وجهه .

ثم انبطح (البعرور) ووضع راحتيه على الأرض ثم بدأ يرفع جسمه ويخفضه ، وعندما وصل إلى السبعين توقف ليقول لهما :

- لم أواصل العد يوما لأعرف عـدد المرات التى أقدر . أمس الأول وصلت إلى الثلثمائة واثنتين وعشرين ثم توقف لأنى شعرت بالنعاس .

ونظر إليه صاحباه قلقين مكسوفين ، فذلك الاستعراض يفوق كل تصوراتهم عن قوة (البعرور) ولياقته البدنية .

- لنر كم تستطيع أنت يا (بوم) - وجّه كلامه إلى دانييل فجأة .

- ولكنى لا أعرف . . . لم أجرب هذا من قبل .

- جربّه الآن .

- ولكن . . .

وانبطح (البوم) أخيرا ليحاول الثنية الأولى ، ولكن ذراعيه الرقيقتين لم تعتادا التمرين فراح جسـمه كله يرتعش بسبب الجهد العضلى غير المألوف . رفع عجزه أولا ثم ظهره وعدّ بنشاط :

- واحد .

ولكنه ما لبث أن سقط بتثاقل على الأرض المرصوفة .

فقال (البعرور) :

- لا ، ليس هكذا . فلا فضل لك فى رفع عجزك أولا ، فأنا هكذا أفعلها مليون مرة .

وتخلى (البوم) عن المحاولة مبتئسا بعدما رأى أنه بعد كل هذا الجهد لم يفعل شيئا سوى أنه خيّب ظن صديقه به .

وخيّم على المتبن بعد المحاولة الفاشلة صمت وسكون . وعاود (البعرور) فتل ذراعه ومعاينة عضلاتها ترقص مرنة منتفخة ، وخطر لـ (البوم) أن يسأله وهو ينظر إلى ذراعه :

- أنت تستطيع أن تتغلب على بعض الرجال . أليس كذلك يا (بعرور) ؟ .

لم يكن روكى (البعرور) حينها قد ضرب الطبال فى المهرجان الشعبى .

ابتسم (البعرور) برهة ثم قال :

- بالطبع إننى اقدر أن أتغلب على الكثير من الرجال لأن كثيرا منهم لايمتلكون صلابة فى اجسادهم غير صلابة عظامهم وفروة رؤوسهم .

كان جيرمان (الأقرع) يدوّر عينيه اعجابا بينما اتكأ (البوم) مطمئنا على كومة التبن وهو يحسّ إلى جانبه حماية روكى ورعايته .

كانت تلك الصداقة ضمانة قوية بالنسبة إليه وإن أصرت أمه و (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) على اعتبار رفقة (البعرور) شرا محتوما .

وكما هو شأن تلك المسامرات فى متبن معمل الجبن أيام المطر فقد انتهت مسامرة ذلك العصر بمسابقة : رفع (البعرور) بنطاله الأيسر وعرض دائرة من الجلد المجّعد الطرى :

- انظرا صورة الندبة هذا اليوم . تبدو كالأرنب .

وانكفأ صاحباه على ساقه ليقولا موافقين :

- صحيح . تبدو اليوم كالأرنب .

واغتم دانييل (البوم) لمسار الحديث . إنه يعلم أن تلك المقدمات ستقود إلى جدال حول الندب والجروح . وما كان يخجله من شىء ، بأعوامه الثمانية ، مثل خلو جسمه من ندبة يباهى بها أقرانه ، إنه ليعطى عشر سنوات من عمره مقابل ندبة واحدة لأن خلو جسمه منها يشعره بأنه أقل رجولة من أصحابه الذين يمتلكون العديد منها فى أجسامهم . وكانت هذه الأفكار تبعث فيه شعورا كئيبا بالنقص والصغار . الواقع أنه لاذنب له فى أن يمتلك استعدادا أفضل من (البعرور) و (الأقرع) لالتئام الانسجة ولا فى أن تلتئم جروحه العديدة دون أن تترك أثرا يذكر ، ولكنه لايفهم الأمور هكذا ، وهو يرى أن نعومة جسمه وخلّوه من الندب مصيبة وأن

رجلا من دون ندبة هو ، عنده . مثل فتـاة مطيعة مؤدبة . إنه لايطمع فى ندبة معركة ولا فـى تفـاهة بل فى ندبة ناتجة عن حادث أو عن أى شىء ، المهم أن تكون ندبة .

كان يحفظ عن ظهر قلب قصة ندبة (البعرور) . وقعت الحادثة قبل خمس سنوات أثناء الحرب يكاد دانييل (البوم) لايذكـر شيئا عن الحرب ، ولايحتـفظ عنها إلا بفكرة غامضـة مشوشة : أزيز طائرات مـرّت من فوق رأسه ودوّى قنابل تنفجـر فى الحقول . كان سكان البلدة يهـرعون ، كلما حلقت الطائرات فـوق الوادى ، إلى الغابة وقـد أمسكت الأمهـات بالأبناء وراح الآباء يسوقون الأغنام المتعثرة ويضربونها ضربا مبرّحا .

هربت سارة وقتها صوب الغابات وهى تمسك بيد شقيقها وتجره جراً . وما كان هو ، بأعـوامه الستة يخاف الطائرات أو يخـشى القنابل . إنما كان يعدو مجاراة للآخـرين ورغبة فى قضاء الوقت لاهيا عـابثا . وكان السكان يتجـمعون فى الـغابة ويعسكـرون مع أثـاثهم وأغنامهم فكأنهم قـبيلة من الغجر . فى البداية كانت أجراس نواقيس الكنيسة تعلن انتهاء الغارة بثلاث دقّات غليظة تتبعها اثنتان حادتان ، ولكن النواقيس رفعت من بعد لصهرها وبـقيت البلـدة من دون نواقيـس حـتى الحـرب وعنـدها تبرع دون انطـونينو (المـاركيز) بناقوس جديد .

وقد شهد الوادى يومها احتفالا كبيرا على شرف المتبرع تحدث فيه دون خوسيه القس وعـمدة البلدة آنذاك انطونيو (الحوصلة) واختتـمه (المـاركيز) شاكراً بصوت متهدج الجـميع . وهكذا أنفق القس والعمدة ساعة للإعراب عن الامـتنان لـ (المـاركيـز) على تبـرعه بالناقـوس ، وأنفق هذا نصف ساعـة أخرى للرد على امتنانهم ذاك . كـان احتفـالا سادته مشـاعر المودة والوقـار والمجـاملة ولكن جـرح روكى (البـعرور) نـتج عن شظيـة قنبلة انفجرت فى أحد الحقول بينما يـعدو هاربا ، صباح يوم صيفى ، مع سارة

باتجاه الغـابة . يقول العـارفون إن الحـادث نتج عن قنبلة طائشة ألـقت بها احدى الطائرات بغرض « تخـفيف حملها » ، ولكن (البـعرور) يقول إنه هو الحمل الذى حاولت الطائرة تخفيفـه . وعلى أية حال فقد شكر للطيار ذلك الوسام الذى علّقه له فى لحم فخذه .

واصل الأولاد الثـلاثة النظـر إلى النـدبة التـى بدت فى شكـلهـا كالأرنب. وانحنى روكـى (البعرور) فـجأة ولحسهـا بطرف لســانه وأردف قائلا :

- مايزال طعمـها مالحا . يقول لوكـاس (الأبتر) إن سبب ذلك هو الحديد فـالجروح الناتجة عن الحـديد لها دائما مذاق مـالح . فعضلة سـاقه مالحـة وكذلك الحال مع فـضلة ذراع كينو (الأقطع) ، ولكنها تفـقد هذه الملوحة مع الوقت .

كان الآخران يستمعان إليـه مرتابين . ولاحظ هو ارتيابهم فقرب ساقه منهما ودعاهما قائلا :

- تذّوقا وستريان أننى لا أخدعكما .

وتبـادل (البوم) و (الأقـرع) نظرات مـترددة . وانحنى (البـوم) أخيرا وذاق الندبة بطرف لسانه :

- نعم إنها مالحة .

وجرب (الأقرع) بعده وهزّ رأسه موافقا :

- صحـيح أنها مالحـة ، ولكن ليس هذا بسبب الحـديد بل العرق . ذوقا شحمة أذنى وستجدان أنها مالحة كذلك .

واقترب دانييل (البوم) ، وقد أثارت القضية اهتمامه ، من (الأقرع) ولطع شحمة أذنه المشقوقة .

- هذا صحيح - قال - إن أذن (الاقرع) مالحة كذلك .

- دعنى أرى - قال (البعرور) متشككا .

ورغبة منه فى غلق القـضية فقد مّص (البعرور) شـحمة أذن (الأقرع) بشراهة من يرضع . ولّـما انتهى كان وجهه يعكس خيبة أمل كبيرة .

- صحيح . أنها مالحة . ولكن سبب ذلك أنك أصبت بسلك شائك وليس بشوكة العوسج كما تظن .

- لا - قفز (الأقرع) غاضبا - فقد شقت شحمة أذنى شوكة العوسج . أنا متأكد من ذلك .

- هذا ماتظنه أنت .

ولم يشأ جيرمان (الأقرع) أن يهزم فقدم رأسه من فمى صاحبيه :

- وقرعتى ؟ إنها مالحة كذلك . ولاعلاقة للحديد بها بل جاءتنى من أحد الطيور .

ونظر (البعرور) و(البوم) إلى بعضهما مذهولين ، ولكنهما انحنيا على قرعة جيرمان السمراء ولطعاها الواحد بعد الآخر .

أما دانييل (البوم) فاعترف فى الحال :

- حقا إنها مالحة .

أما روكى (البعرور) فلم يشأ أن تلوى ذراعه :

- نعم ، ولكنها ليست ندبة . القرعة ليست ندبة ، وأنت لم تصب بأى جرح فى راسك فلا علاقة لذلك بملوحتها .

كان الضوء الداخل من كوّة المتبن فى تناقص ، وكان الوادى يكتسى كآبة وحزنا بينما يواصل الأولاد جدلهم دون أن يلحظوا أن الوقت صار ليلا وأن المطر يواصل نقره على السقف القرميدى وأن القطار كان لحظتها يصعد بجد ، مطلقا بين الحين والآخر حلقات من الدخان الأبيض المزبد . كان (البوم) يحسّ بالابتئاس وهو يفكر فى حاجته إلى الندبة ، فلعله سيقدر ، إن هو امتلكها على حسم الجدل حول سبب ملوحتها : أهو العرق ، كما يؤكد جيرمان (الأقرع) ، أم هو الحديد كما يدّعى روكى (البعرور) ولوكاس (الأبتر) ؟ .

الفصل الحادى عشر

ولما علم روكى (البعرور) أن كينو (الأقطع) بكى يوم ماتت زوجته بكاء مراً ما عاد يكّن له إعجابا ولا تقديرا وكان (الأقطع) قد فقد امراته ماريوكا فضلاً عن يده ، وما كان ذلك لأن أحداً لم يحذره ، فخوسيفا المغرمة به كانت لاتكف عن تذكيره بالأمر .

- فكّر فى الأمر ، كينو . إنها مسلولة ولا شفاء لها .

ويردْ عليها (الأقطع) بغضب :

- وما دخلك أنت ؟ .

فتتركه حزينة مغتمة . وفى المساء تدخل حجرتها لتبكى حتى تبتل مخدتها بالدمع وتقسم ألا تعاود التدخل فى الأمر ، ولكنها تنسى فى صباح اليوم التالى ما أقسمت عليه . كانت شدة إعجابها به تمنعها من ترك الميدان قبل إفراغ آخر ما فى جعبتها من سهام . كان يعجبها فيه تكامله ، فهو قوى وجاد وكامل : قوى دون أن يكون حيواناً شأن باكو الحداد ، وجادّ دون أن يبلغ حد الارتياب مثل بالجو (الملحد) ، وكامل دون أن يكون قديساً كدون خوسيه . إنه ، على وجه الإجمال ، رجل متوازن بكل معنى الكلمة ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، رجل يقف على لسان الميزان .

والواقع هو أن كينو لا يؤمن بوجود السل ، فالعالم عنده موزع بين نحيفين وبدينين . ماريوكا كانت نحيفة شأن (الفلفلتين) لولا وايرينه وشأن اندريس الإسكافى ، أما هو فبدين كحال كوكو مأمور المحطة ، دون أن يعنى ذلك أن أولئك مرضى وهؤلاء أصحاء معافون . إنهم يقولون عن ماريوكا إنها مسلولة منذ أن ولدت ، ولكنها مازالت ، بسنواتها الثلاث والعشرين ، غضة نضرة كالزهرة .

لقد تقرب كينو منها منجذباً لا عاشقاً . وكان ميله الطبيعي سيفضى به إلى إمرأة من ذوات التقاطيع الضخمة المثيرة الظاهرة ، امرأة مثل خوسيفا صلبة جسيمة ثقيلة الوزن ، إلا أنه فكر بطريقة مختلفة فما دام السادة المتمدنون يتزوجون بالنحيفات ، فلابد أن فيهن خصوصية تجعل هؤلاء السادة المهذبين المتعلمين يطلبونهن هكذا .

وتقرب من ماريوكا لأنها نحيفة ، وبعد أيام أحبها . أحبها بلا تبصّر ولا تفكير بل لنظراتها الحزينة المنقادة كنظرات حمل صغير ولبشرتها المزرقة الشفافة كالخزف . وتفاهما ، وأعجبت ماريوكا بكينو (الأقطع) لأنه كان على العكس منها ضخم الجسم قويّه ، حاد العينين دقيقهما ، كانت عيناه كمبضع الجرّاح .

وقرر كينو (الأقطع) الزواج منها فانقضّ عليه الناس : « إنها هزيلة » « معلولة » ، « السل رفيق سوء » . . .

ولكنه قفز من فوقهم جميعاً وتقدم صباح يوم ربيعى رائع إلى بوابة الكنيسة وهو يرتدى بدلة مخملية زرقاء وقد عقد منديلاً أبيض حول عنقه . وباركهما دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ووضعت ماريوكا الحلقة فى أصبع يده اليسرى لأن يمناه مقطوعة .

ولم تفلح خوسيفا ، رغم ما فعلت ، فى أن تفسد عليه شهر عسله . وخططت لأن تجعل ظلال نكبتها تخيم على حياته،ولكنها لم تبلغ مرادها . ففى الكنيسة ، وأثناء الإعلان الأول عن الزواج ، قفزت كالنمر صارخة وهى تركض صوب مذبح القديس روكى تشهّده على بطلان زواج كينو من ماريوكا لأن العروس مسلولة . حدث فى البداية هرج ومرج ثم خيّم على المكان صمت مطبق .

كان دون خوسيه أدرى منها بالمحرّمات وقضايا الشرع :

- ولكن شريعة الرب يا ابنتى لاتمنع المرضى من الزواج . هل فهمت ؟ .

وألقت خوسيفا بنفسها مخذولة على بعض دكاك المقصورة تبكى كالمجنونة وتجز شعرها وتستجدى العطف وراح الجميع يواسونها ، فليس فى الإمكان الأتيان بكينو بآخر . أما (الأقطع) فقد راح من مكانه فى المقاعد الخلفية المخصصة للرجال يبتسم مشفقاً وهو يسدّد إلى حنكه ضربات خفيفة بفضلة طرفه المقطوع . أما (الفلفلة) الكبرى فقد دنت من خوسيفا وحملتها برفق من تحت إبطيها إلى خارج المعبد بعدما رأت دون خوسيه يقف متردداً لا يدرى ماذا يفعل . ثم طلبت بعد ذلك من دون خوسيه أن يقيم قداساً خاصاً بها تعويضاً عما فاتها بينما كانت تخرج خوسيفا من المعبد وتعتنى بها لبرهة فى الباحة ، وراحت تؤكد أنها ليست ممن يفوتون القداس من أجل عمل إنسانى ، فليس ذلك من العدل ولاهو معقول ولامنطقى ولا أخلاقى وأن ضميرها ليؤنبها وينهش سريرتها وأنها المرة الأولى التى يحدث لها ذلك فى حياتها . . .

ولم يتمكن دون خوسيه من تهدئتها وإعادة الطمأنينة المزعزعة إلى ضميرها إلا بعد جهد ومشقة . ثم استؤنف القربان المقدس وكأن شيئاً لم يحدث .

وفى الأحد اللاحق حضر الجميع إلى القداس ، حتى بالجو (الملحد) الذى وقف خلف الأرغن منحشراً بين فرقة المنشدين .

وقرأ دون خوسيه يومها اعلان الخطبة فلم تسمع غير زفرة عميقة علت لحظة نطق القس باسم العريس من الدكة التى كانت خوسيفا تجلس عليها ، ولاشئ آخر . أما بالجو (الملحد) فقد صرح عند خروجه من الكنيسة أن لا فائدة ترتجى من التقوى ولذا فإنه لن يطأ عتبة الكنيسة . ولكن الحادث الخطير وقع يوم الزفاف ، أثناء حفلة الشرب ، عندما كان الجميع فى شغل عن خوسيفا . ولابد أن انشغالهم عنها هو الذى حملها على التفكير فى شدّ انتباههم بتلك الطريقة البربرية . كانت على أية حال ، واقعة غامضة ومؤلمة .

انطلقت من ناحية الجسر صرخة وصلت بوضوح إلى مسامع المدعوين المجتمعين فى اسطبل (الأقطع) نظر الجميع صوب تلك الناحية . وكانت خوسيفا تقف عارية على الحاجز وقد يمّمت وجهها نحو النهر تنظر إلى تياره الجارف بعينين جاحظتين . أما النسوة فلم يفعلن لمنع وقوع الكارثة غير الصراخ وتقليب العيون والسقوط مغشياً عليهن . وركض رجلان صوبها قصد منعها ، كما ادّعيا ، ولكن زوجتيهما أمرتاهما زاجرتين أن يعودا خشية التطلع عن قرب إلى خوسيفا العارية .

وعاودت خوسيفا إطلاق صرخة فى جو الحيرة والارتباك ذاك ثم رفعت ذراعيها وبحلقت بعينيها وألقت بنفسها بين تيارات النهر المعتمة .

وهرع الجميع إلا العروسين . وبعد قليل عاد القاضى إلى الحانة وكان كينو لحظتها يقول لماريوكا :

- خوسيفا هذه دابّة

فعقب القاضى قائلاً :

- كانت . . .

وهكذا علمت ماريوكا وكينو أن خوسيفا قد انتحرت .

وحدث ما حدث لما أرادوا دفنها فى المقبرة المجاورة للكنيسة ، إذ لم يوافق دون خوسيه على دفن المنتحرة إلا بعد مشاورة الأسقف . وأخيراً جاءت الموافقة من المدينة وتم الأمر على خير فقد انتحرت خوسفيا ، فيما يبدو ، وهى فى حالة من الجنون العارض .

ولم يُعكّر شبح خوسيفا صفو كينو فى رحلة زواجه ، فقد أمضى هو وعروسه أسبوعاً فى المدينة ، ولما عادا راحت ماريوكا تعلن على الملأ أنها حبلى .

- أبهذه السرعة ؟ ! سألتهـا (الفطساء) التى أثار استغرابها أن بعض النسوة يحملن من مضاجعة رجل لليلة واحدة بينما لا يقع هذا لغيرهن ولو ضاجعته العمر كلّه :

- وما الغرابة فى ذلك يا امرأة ؟ . قالت ماريوكا مضطربة

وتمتمت (الفطساء) فى داخلها بكلمات نابية .

لم يكن حمل البنـت طبيعيـاً . فمع تكّور بطنها كـان وجههـا يهزل بصورة تبعث على القلق .وبدأت النسوة يتحدثن عن أنها تحتمل المخاض .

واحتملت ماريوكا المخاض لكنها لم تتـخطّ عتبة النفاس ، فقد ماتت بعـد أسبوع ونصـف من الوضع ووضعت بعـد خمـسة أشـهر من انتـحار خوسيفا . وأدركت فضوليات البلدة حينها سبب اعلان ماريوكا خبر حملها وهى بعد على ظهر القطار الذى جاء بها من المدينة .

وأمضى كـينو (الأقطع) كما قـيل الليلة وحيداً أمـام الجثمـان يبكيه حامـلاً بين ذراعيـه الوليد ومداعـباً بفـضلة يده خصلات الشـعر الأشـقر المسترسلة الهامدة .

وعلقت (الفلفلة) الكبرى حال سماعها بالخبر قائلة :

- إنه عقاب الرب لمن أكل الطبيخ قبل الثانية عشرة .

كـانت تشير بذلـك إلى الولادة المبكرة . ولـكن القيّمـة عـلى مـنزل (المـاركـيز) كـانت على حق إذ قالـت بأن ذلك لم يكن عقـاباً من الرب بدليل أن (الفلفلة) الصغـرى لم تأكل الطبيخ وحسب بل والحـساء ، مع ذلك لم يقع لها مكروه ! .

كان عـمر دانييل (البـوم) آنذاك سنتين ، وعمر روكى (البـعرور) أربع سنوات . وبدأ هذان يعـرجان على كينو بعـد خمسـة أعوام من ذلك وهما عائدان من « بركة الإنكليـزى » أو من صيد السرطانات أو السمك . كان (الأقطع) كريماً جداً ، فكان يقدم لهما قدحـاً كبيراً من عصير التفاح

مقابل خمسة سنتات متواضعة. ولكن حال الحانة كانت أيامها فى تدهور ، فقد صار يـعيد إيصالات الدين دون تسديدها ، وبدأ مجـهزوه يمتنعون عن مدّه بالبضاعة ، وكفله خيـراردو (الأمريكى) مرات عديدة قبل أن يتوقف بعد أشهر عن ذلك لمّا لم يجد فيه أملاً يرتجى. وراح وضع كينو (الأقطع) يسير من سئ إلى أسوأ ولكنه ، مع ذلك ، واصل ثرثرته مع زبائنه وواصل تقديم القـليل الباقى لديه . كـان روكى (البعرور) وجـيرمـان (الأقرع) ودانييل (البوم) يجـالسونه عند الدكة الحجرية القـريبة من الطريق العام . وكان (الأقطع) يفـضل محادثة الأطفال عـلى الحـديث مع الكبار ، ربما لأنه لم يكن فى حقيـقته سوى طفل كبير . وقـد يرد اسم ماريوكا فى أثناء الكلام ، فتجـدّد الذكرى وتندى عيناه ويبدأ بضرب ذقنـه بفضلة يده تمويهاً ومداراة ، فينهض عندها (البـعرور) الذى يكره الدموع والمواقف المؤثرة ، وينصرف دون أن يتفوه بشيء، وينصرف معه صاحباه فكأنهما خيطان بينطاله . أما كـينو (الأقطع) فينظر إليـهم مسـتغرباً ، غـير مـدرك السبب الذى يحملهم على تركه فجاة ومن دون عذر .

لم يحدث أن تبجّح (الأقطع) أمام الأولاد الثـلاثة بأن امرأة انتحرت عارية بسببه ، بل لم يشر إلى الحادث إطلاقاً ، ولم يعرف دانييل وأصحابه بأن خوسيـفا ألقت بنفسهـا عارية إلى النهر من على حاجـز الجسر إلا عن طريق باكو الحداد الذى ما كـان يخفى أن تلك المرأة كانت تروق له وأنها لو كانت طاوعـته لأصبـحت أما ثانية لروكـى (البعرور) ، ولكنهـا فضلت الموت على صدره العريض وشعره الأحمر فكان لها ما أرادت .

كان أشدّ مـا يثير فضول الأصـدقاء الثلاثة أيام كانت حـانة كينو تقدم عصـير التفـاح بخمسة سـنتات هو سبب فـقدان (الأقطع) يده . ويكمن السبب فى حكاية بسيطة يرويها (الأقطع) نفسه :

- أخى كان هو السبب . لقد كان حطاباً ، وفى المسابقات كان الأول دائماً لأنه يقطع الجذع الغليظ قبل الآخرين فى دقائق قليلة . وكان يريد أن يصبح ملاكماً .

ويثير كلام (الأقطع) عن هواية أخيه اهتمام الأولاد . ثم يواصل الحديث :

- بالطبع هذا لم يحدث هنا بل فى بثكايا قبل خمسة عشر عاماً . بثكايا ليست بعيدة عنا ، انها خلف تلك الجبال - ويشير إلى قمة جبل راندو الداكنة المجللة بالضباب - كل الرجال فى بثكايا يريدون أن يصبحوا أقوياء ، والكثيرون منهم أقوياء فعلاً. أما أخى فكان أقوى من فى البلدة . لذلك كان يريد أن يصبح ملاكماً لأنه كان يغلبهم جميعاً . قال لى ذات يوم : « أمسك لى بهذا الجذع ياكينو. سأشطره بأربع ضربات من فأسى » . كان مجرد كلام ، فلطالما طلب منى ذلك ولكنه لم يستطع أبداً شطر الجذع بأربع ضربات . وأمسكت بالجذع بقوة ، وحدث أننى ، وبينما كان يهوى بالفأس على الجذع ، حركت يدى للفت انتباهه . . طاخ ! - وارتسم على الوجوه الثلاثة الصغيرة تعبير واحد . أما كينو فراح ينظر بحنان إلى فضلة طرفه المقطوع مبتسماً : - لقد طارت يدى مثل فلقة خشب مسافة أربعة أمتار ، وعندما ذهبت بنفسى لحملها كانت ماتزال حارّة وكانت الأصابع تنثنى من ذاتها وتتحرك مثل ذنب السحلية .

ويسأله (البعرور) بصوت مرتجف :

- وهل يمكننى أن . . أن أعاين يدك عن قرب ؟ .

ويقدّم كينو ذراعه وهو يبتسم :

- بالطبع .

وينتهز الأولاد الثلاثة هذا الترخيص السخى فيعاينون الطرف المقطوع مراراً ويتحسسونه ويغرسون أظفارهم القذرة فى أخاديده ويتناوبون الإشارة

عليه بأصابعهم قبل أن يتركوه على الدكّة الحجرية كحاجة ماعادت ذات نفع ولافائدة .

رضعت ماريوكا الصغيرة لبن الماعـز ، إذ كان كينو يحضّر لها زجاجة الرضاع حتى أتمت سنة واحدة من العمـر . وعندما ألمحت له جدّتها لأمها مرة أن فى مقدورها كفـالة الطفلـة والنهـوض بأعباء تربيتها ، حمل كينو (الأقطع) هذا الكلام على غير مـحمله واستاء وغضب وما عـاد أحدهما يكلم الآخر . ويؤكد الـناس فى البلدة أن كينو قطع على نفسه عـهداً أمام المرحومـة أنه لن يترك الصغيـرة فى أيد غريبة وإن اضطر إلى تربيتـها على صدره .

وكان دانييل (البوم) يرى فى ذلك مبالغة وتطرفاً واضحين .

كان جميع سكان البلـدة باستثناء دانييل يحبون ماريوكـا - أوكا ،كما كانوا يسمونها إشارة إلى أنها من خلـفة الفقيدة . كانت طفلة زرقاء العينين ذهبيـة الشعر يغطى النمش أعلى وجـهها . وقد تعـرف دانييل على الطفلة مبكراً ، حتى إن أول ما يذكره عنها يبـدو فى ذاكرته مشوشاً مطموساً . ثم يذكرها بعـد ذلك وهى طفلة فى الرابعة تدرج فى الأعـياد على مـقربة من معمل الجبن ، كانت الطفلة توقظ فى أم دانييل غـريزة الأمومة التى فقدتها باكراً . إنها تتـمنى لو أن لها طفلة وإن ملأ النمش وجهها مـثل ماريوكا - أوكا ، ولكن ذلك مـا عاد ممكناً بعد أن أخبـرها دون ريكاردو الطبيب بأن بطنها صار بعد الإسقاط يابساً . فقد شاخت أحشاؤها إذاً وما عاد هناك من أمل . ومن هنا يأتى احساس أم (البوم) نـحو اليتيمة الصغيـرة كإحساس الأم الوالدة ، تناديهـا عندما تراها تتسـكع قريباً من مـعمل الجبن وتجلسـها على المنضدة .

- ماريوكا - أوكا بنيّتى ، أتريدين شيئاً من الجبن المحلّى ؟

وترد الطفلة موافقة ، فتجلب لها أم (البوم) الجبن المحلّى .

- هل فيه كفاية من السكر ، صغيرتى ؟ هل أعجبك ؟

وتردّ الطفلة بالإيجاب دون أن تنطق بحرف . ثم تسـألها أم دانييل ، بعد انتهائها من أكل الحلوى عن تفاصيل الأعمال المنزلية فى بيت كينو :

- ماريوكا أوكا بنيتى ، من يغسل لك ملابسك ؟ وتبتسم الصغيرة :

- أبى .

- ومن يعدّ لك طعامك ؟

- أبى .

- ومن يمشط لك شعرك ؟

- أبى .

- ومن يغسل لك وجهك وينظف أذنيك ؟

- لا أحد .

وتشعر أم دانييل بالشفقة فتنهض وتصب الماء فى الإناء وتغسل للطفلة أذنيها ثم تمشط لهـا بعناية شعرها . وكانت ، هى تقـوم بذلك ، تتمتم ، وكأنها ترتل :

- يا للطفلة المسكينة ، يا للطفلة المسكينة ، ياللطفلة المسكينة . . .

وعندما تنتهى تقول لها وهى تضربها على عجزها مداعبة :

- هيا بنيتى ، فأنت أجمل هكذا .

وترسم الطفلة ابتسامة هادئة على وجهها فتأخذها أم دانييل (البوم) بين ذراعيها وتطبع على وجهها قبلات كثيرة . وربما أثر فى دانييل (البوم) حنان أمه المفرط تجاه ماريوكا - أوكا بما لا يترك لها هوى فى نفسه . ولكن لا . إن ما يغيظه هو أن الصغـيرة كانت تحشر أنفهـا فى كل مسألة وتحاول المشاركة فى أمور لا تخص النساء ولاتعنيهن .

صحيح أن مـاريوكا - أوكا كانت تتمـتع بحرية تحسد عليـها ، حرية متوحشة بعض الشىء ، ولكنها فى نهاية المطاف امرأة ، ولايمكن لامرأة أن تأتى ما يأتونه هم ، كما ليس فى مقـدورهم هم أن يتحـدثوا أمـامها عن « هذا » فليس ذلك من الأدب ولا من الليـاقة . أما مـسألة حب أمـه لها

ودعوتها لها أيـام الآحاد والأعياد لتناول الجبن المحلّى فذلك أمر لا يشيرفيه حراً ولا برداً . كـانت تغيظـه من الصغيـرة نظراتهـا المتواصلة إلى وجـهه وحرصها على معرفة حركاته وسكناته .

- أين ستذهب اليوم ؟

- إلى الجحيم . هل تريدين أن تأتى معى ؟

- نعم - تردّ عليه الطفلة دون تفكر .

أما روكى (البـعرور) وجيرمـان (الأقرع) فكانا يضحكان ويثيـرانه قائلين له إن ماريوكا - أوكا مغرمة به .

وأراد دانييل (البوم) يوماً أن يتخلص منـها فأعطاها قطعة من النقود وقال لها :

- خذى هذه واذهبى إلى الصيدلية لتقيسى وزنى .

وذهب الأولاد إلى الجبل ، وعندمـا عادوا مساءً وجدوها قـاعدة عند باب معمل الجبن تنـتظر عودتهم .وما إن رأتهم حتى نهـضت واقتربت من دانييل ، أعادت له قطعة النقود وقالت :

- بوم . يقول الصيدلى إن عليك إذا أردت قياس وزنك ، أن تذهب بنفسك .

وانفجر الأصدقاء الثلاثة ضاحكين بينمـا كانت هى تنظر إليهم بعينيها الزرقاوين الحادتين دون أن يبدو عليها أنها فهمت شيئاً .

وقد تلجأ ماريوكـا - أوكا إلى كل حيلة لمصاحبة البوم . التقـيا عصر يوم فى الطريق العام فقالت له :

- بوم . أعرف مكاناً يعشش فيه (أبو زريق) مع أفراخه .

- أين هو ؟ قولى .

- تعال معى لأدلك عليه .

وذهب هذه المرة معهـا . لم تكف عن النظر إليه طول الطريق . كان عمرها آنذاك تسع سنوات وحسب ، ومع ذلك فقـد أحس بأثر حدقتيها فى

لحمه فكأنهما تحفرانه بمخرز .

- ماريوكا - اوكا . لماذا تنظر إلّى هكذا بحق الشيطان ؟

وأحست هى بالخجل ولكنها لم تحرف نظرها عنه :

- يعجبنى النظر إليك .

- لاتنظرى إلّى . هل سمعت ؟

لكن الطفلة لم تسمعه أو لم تعره أذناً صاغية .

- قلت لك الا تنظرى إلّى ألم تسمعينى ؟

وعندها خفضت عينيها .

- بوم . هل صحيح انك معجب بميكا ؟

واحمر وجه (البوم) واضطرب لبرهة وأحس وكأن شيئاً غريباً يفور فى رأسه . كان لا يدرى إن كان من الأنسب فى مثل هذه الحالات أن يغضب أو أن يبتسم ؟ واستمر الدم بالتجمع فى رأسه . ولم يشأ أن يطول تردده فاصطنع الغضب ، مع ذلك حاول إخفاءه متعللاً باجتياز حاجز أحد الحقول .

- وما دخلك أنت إن كانت ميكا تعجبنى أم لا ؟

فردت ماريوكا - أوكا بصوت منخفض :

- إنها أكبر منك . إنها تكبرك بعشر سنين .

وتخاصما . تركها (البوم) فى الحقل وعاد إلى البلدة وقد نسى تماماً موضوع العش ، لكنه لم ينس كلمات ماريوكا - أوكا طيلة الليل . ولما آوى إلى فراشه أحس بقلق غريب ، لكنه تغلب عليه ، وتذكر ، وهو على الفراش ، أن الحداد ،وهو يقص عليه حكاية (الفلفلة) الصغرى ودون ديماس ، كان يستهلها دائما بقوله : « كان النصاب يصغر (الفلفلة) بخمسة عشر عاماً . . . »

وابتسم (البوم) فى الظلام ، وفكر فى أن الحكاية قد تتكرر ، ثم نام يهدهده إحساس بعبير سعادة غريبة هائمة تحفّ به .



الفصل الثانى عشر

كتب اليهم الخـال اوريليو من استريمادورا . وكـان الخال اوريليو رحل إلى استـريمادورا لإصابته بالربو ولأن رطوبة الوادى ، القريب من الـبحر ، كانت تضايقه . أما المنـاخ فى استريمادورا فإنه أكثر جفافاً ومـلاءمة لصحته والخال أوريليو يعمل بغالاً فـى إحدى المزارع الكبيرة ، ومع أن الأجر الذى يتقاضاه بسيط فإنه يسكن مجانـاً ويحصل على ما تنتجه الأرض لقاء أسعار زهيدة « وليس لأحـد أن يطلب أكثر من هذا فى الوقت الحاضـر » - كتب لهم فى رسالته الأولى .

لم يبق لدانييل (البوم) من ذكـرى خاله غير صور مطمـوسة للهاث مخنوق ، فكأن قاطرة صاعدة بمشقة تلهث قريباً من أذنيه . كان الخال يضع الكمادات فى أعلى صدره ويستنشق أبخرة الكالبتوس فى حجرته ،ولكنه ، رغم هذه وتلك ، ما كـان يتعافى من حـشرجة النفس والصـدر إلا خلال الأيام الخمـسة عشـر الأشد جفـافاً من أيام الصـيف . لقد أخبـرهم الخال أوريليو فى رسالته الأخيرة أنه سيرسل للصغير دوقاً كبيراً أمسك به حياً فى حقل الزيتـون . وأحس دانييل بقشـعريرة وهو يقرأ الرسالة ، فـقد ظن أن الخال سـيرسل له شـيئـاً من قبيل دوق انطونـينو (المـاركيـز) تملأ صدره النيـاشين والميداليـات والأوسمة ، ومـا علم أن الدوق الكبيـر هو نوع من الطيور يجول طليقاً فى حقول الزيتـون وإن بإمكان البغّالين الإمساك به كما يمسك بالأرنب من دون أن تطالهم أية عقوبة .

وضحك الأب عندمـا عرض عليه الولد مـخاوفه ، وفـرح دانييل فى قرارة نفسه لأنه أضحك والده الذى ما عـاد فى السنوات الأخيرة إلا عابساً مكفـهر الوجـه لا يقوى عـلى اضحـاكه حـتى الهنغـاريين الذين يقدمـون عروضهم الكوميدية ويحركون الأرجوزات فى الساحة .وعندما كفّ الأب عن الضحك قال موضحا :

- الدوق الكبير هو يوم عظيم ، وهو طعم جيد لصيد الحدّان عندما نتسلّمه سآخذك معى للصيد فى جبل راندو .

كانت المرة الأولى التى يعده أبوه برحلة صيد مع علمه بولوع الصغير بذلك .

كان الجبّان ، مع بداية كل موسم صيد ، يركب القطار ويتجه منذ اليوم الأول إلى قشتاله ليعود منها بعد يومين وهو يحمل أرنباً وعنقوداً من طيور الحجل متدلياً من نافذة القطار بادياً لكل ذى عين . ما كان يطلق نيران بندقيته على طيور السمّان «فإنها - كما يقول - لاتساوى ثمن الإطلاقة . أما العصافير فإما أن تقتلها بالمصيادة وإما أن تتركها حيّة » . أما هو فكان يتركها حيّة ، وأما دانييل (البوم) فكان يقتلها بالمصيادة . كان الولد يخفّ إلى المحطة لاستقبال أبيه العائد من رحلات الصيد أوائل الخريف . وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من يبلّغه بموعد وصول القطار متأخراً أم فى وقته . وعلى أى من الحالين فقد كان دانييل ينتظر ، بقلب فرح ونفس متشوقة ، طلوع القاطرة من المنعطف ، وكان يحدد مكان أبيه دائماً من عنقود طيور الحجل . ثم يلتقيان عند رصيف المحطة فيناوله أبوه البندقية بجدّية صياد رغم ثقلها ورغم ما يثيره زنادها فى نفسه . ثم ما كان يفارق أباه وهو ينظف البندقية ويزيّتها بل كان يطرح عليه السؤال تلو السؤال ، وكان الأب يشبع فضول ولده أولا يشبعه بحسب ما هو عليه من مزاج. وكان الأب ، كلّما يحاكى صوت طيران الحجل ، يقول : پررررر ، حتى أيقن دانييل أن الحجل لابد وأن تحدث هذا الصوت « بررررر » ، عند الطيران وأنها لاتحسن أن تصوت بغيره . وقصّ ذلك على صديقه (الأقرع) وتجادلا لأن الصديق ذهب إلى أن طيور الحجل تحدث بالفعل صوتاً عند الطيران ، ولاسيما فى الشتاء أيام هبوب الريح ، ولكن الصوت الذى تحدثه هو « برررر» وليس « پررررر » كما يدّعى دانييل (البوم)

وأبوه . ولم يستطع أى منهما أن يقنع صاحبه برأيه حول حقيقة الصوت الذى تصدره طيور الحجل عند الطيران ، وافترقا ذلك المساء متخاصمين .

كان شعوره حينئذ شبيهاً بشعوره وهو ينتظر لقاء أبيه العائد منتصراً وهو يحمل زوجاً من الأرانب ونصف دزينة من طيور الحجل متدلية من نافذة القطار ، شعوره عند لقاء تولا ، كلبة الكوكر الصغيرة ، بعد يومين أو ثلاثة أيام من الفراق . كانت تولا تنط من القطار ، وما إن تراه حتى تضع يديها على صدره وتلعق وجهه بلسانها وتملأه بمداعبات رطبة متواصلة . وكان هو الآخر يداعبها ويلاطفها بكلمات حانية وصوت مختلج حتى إذا عادا إلى البيت كان دانييل (البوم) يخرج علبة قديمة من الصفيح فيها فضلات من الطعام مع جردل من الماء ويحملهما إلى الزريبة ليشهد بحنو وليمة حيوانه الصغير . كان خلو الوادى من طيور الحجل يثير فضول دانييل (البوم) ، فلو أنه كان واحداً من هذه الطيور لما فكّر فى مغادرة الوادى . إنه يتشوق للتحليق عالياً فوق المروج والتمتع بالنظر إلى الجبال وغابات الكستناء والكالبيتوس الكثيفة والقرى الحجرية والضياع البيض المتناثرة ولكن يبدو أن هذا لايروق لطيور الحجل لأنها تفضل الأكل وفيراً يسيراً .

وقصّ عليه أبوه أنه قبل سنوات كثيرة فر من اندريس الإسكافى زوج من طيور الحجل واتخذا عشاً لهما فى الجبل ، وبعد أشهر اتفق صيادو الوادى على اصطيادهما . واجتمعت اثنتان وثلاثون بندقية وخمسة عشر كلباً وجهّزوا لكل شئ عدته وخرجوا من البلدة فجراً ولكنهم لم يعثروا على ضالتهم إلا عند الغروب ، وجدوا الأنثى مع ثلاثة أفراخ هزيلة جائعة تلقت الموت دون أية مقاومة ، لكن الصيادين الاثنين والثلاثين تنازعوا حيازة الحجلات الأربع وانتهى بهم الأمر أن تبادلوا النار بين الصخور ووقع فى ذلك اليوم من الضحايا بين الرجال ما زاد على عددهم بين الحجل ..

وعندما قصّ (البـوم) ذلك على جيرمان (الأقـرع) قال له هذا إن قصة فرار الطيور من أبيه ولجوئها إلى الجبل صحيحة وليس ما عداها سوى سلسلة طويلة من الأكاذيب .

عند وصـول رسالة الخـال أوريليو أحـس دانييل (البـوم) باضطراب وتوتر شديدين . إنه لايتصور لحظة وصول الدوق الكبير وذهابه هو مع أبيه لصـيد الحـدآن وإن كـان لديه شيء من القلق فسـببـه الخوف من أن يـبدأ أصدقاؤه ، مع مـا جدّ من الأمور ، بتلقيبه بالدوق الكبـير بدلاً من دعوته بـ (البوم) . فتـغيير اللقب يؤلمه ، بعد كل هذا الوقت ، قـدر ما قد يؤلمه تغـيير اسم العـائلة . ولقـد وصل الدوق الكبـيـر ، ومع ذلك لم يجـد الأصدقاء ، وكان فيهم من الانفعال مـا فى صاحبهم ، ما يكفيهم للاحظة أن الطائر الذى خلب ألبابهم لم يكن إلا بوما كبيراً .

ربط الجبان الطائر من احدى رجليه فى زاوية من زوايا الزريبة وكان إن دخل أحدهم للتفرج عليه نفخ وكأنه قط هائج .

كان يأكل أكثـر من كيلو غرامين من فتات اللحم يومـيـاً ، حتى أن أم دانييل أشارت ذات مـساء تعريضاً إلى أن الدوق الكبيـر يستهلك فى الأكل أكثر مما تستهلكه البقـرة ، مع أنه خلافاً للبقرة التى تعطى اللبن ، لا يعطى شيـئاً البتة . ولمـا بقى الجـبّان صامتـا سألته امـرأته إن كان ينتظر من ذلك الطائر ريعاً ما أم مـجرد ضيف مدلّل ؟ واهتز دانيـيل (البوم) وهو يتوقع أن يحطّم أبوه ، كما هى عادته عند الغـضب ، صحناً أو آنية فخارية ، ولكن الجبّان كظم غيظه هذه المرة واكتفى أن قال متجهماً :

– بل أنتظر منه ريعاً .

وفاجأ الأب ولده (البوم) ذات ليلة وقد هدأت أحوال الجو ، قائلاً :

– جهّز نفسك فسنخرج غداً لصيد الحدآن . سأوقظك عند الفجر .

وأحس دانييل (البـوم) ببرودة تسرى فى ظهره ، وبدأ أنفـه فجاة ومن

دون سبب يتحسّس أريج الزعتر المنبعث من البنطال الذى كان الجبّان يرتديه عند ذهابه للصيد ورائحة البارود الحادة الصادرة من الخراطيش المستعملة التى كان أبوه يعبّئها بصبر واقتصاد المرة تلو الأخرى إلى أن تصبح غير ذات نفع . كان الصغير يعيش المعركة مع الحدآن الماكرة السريعة قبل وقوعها ويدوّر فى رأسه تفاصيل الرحلة المقررة .

وخرجا مع الفجر . أعشاب السرخس ، على حافة الجادة ، تتلألأ مكسوة بالندى . وعلى أطراف الحشائش تكونت قطرات دقيقة بدت وكأنها من زئبق . ومع بداية انحدار جبل واندو كانت الشمس تطل من ورائه بينما التصق ضباب أبيض كثيف بقاع الوادى فبدا هذا من شاهق مثل بحيرة مملوءة بسائل خفيف غريب .

كان دانييل (البوم) ينظر إلى جميع الجهات مبهوراً وهو يحمل على ظهره الدوق الكبير محبوساً فى قفصه الخشبى ينفخ هائجاً كلما مروا بكلب فى الطريق .

قال دانييل لأبيه عند خروجهما من البيت :

– الا نأخذ تولا معنا ؟

– لا مكان لتولا اليوم .

وحزّ فى نفس الصبى أن يتركا الكلبة فى البيت بعد ما أبدته من لهفة وهى ترى البندقية وتشم رائحة حذاء الصياد وبنطاله . وتذكرها ثانية وهو يتسلق الجبل المغمور من ناحيته الجنوبية بضياء النهار وأريج الحقول . لكنه ما لبث ونسى كل شىء وما عاد غير وجه أبيه الذى يقبع متربصاً بين الصخور الرمادية وغير الدوق الكبير وهو يخفق بجناحيه ويزفر مسافة خمسة أمتار مربوطاً من رجله اليمنى . أما هو فقد اختبأ بين الأحراج قبالة أبيه .

– لاتتحرّك ولاتحدث أى ضجيج ، فالحدآن يتقنّ اللاتينية – قال له أبوه محذّراً .

فاندسّ دانيـيل فى مكمنه وراح يسأل نفـسه إن كان ثمّ عـلاقة بين أن تعرف الحدآن اللغة اللاتينية ، كما يقول أبوه ، ولون ريشها البنى الغامق ، ذلك اللون القاسى الخالص الذى يشبه لون قفاطين الرهبان ؟ أم تراه قال ما قال مازحاً ؟

وخيّل لدانييل (البوم) أنه لمح والده يسترعى انتـباهه وهو يشير بأصبعه إلى السماء . ونظـر بهدوء إلى أعلى فرأى ثلاث حدآن ببطء دوائر مـتحدة المركز فـوق رأسه . وأحس بقلق غـامض ، ونظر من جديد إلى أبيـه فرآه شاحب الوجه وهو يهيىء البندقية بـحذر . وانفعل الدوق الكبير وبدأ يزفر ، والتصق دانييـل بالأرض وحبس أنفاسه وهو يرى الحدآن تـنزل فوقهم ، بل كان فى مقدوره أن يراها بكل تفاصيلهـا . كانت إحداها عظيمة الحجم . وأحس (البوم) بـحكة مفاـجئة فى إحدى رـجليه ولكنه بقى ـساكناً لئلا يحدث حركة أوضجيجاً .

وتدلّت إحداها فجأة من السماء متعامدة وانقضت مسرعة لتمس رأس الدوق الكبير ، وانقضت الأخريان فى الأثر . كان قلب دانييل (البوم) يدق مسـرعا . وانتظر ، مـقطّب الوجه ، دوىّ الإطلاقة ، لكنـه لم يسمع أى دوىّ فنظر إلى أبيه منذهلاً .

كان أبوه يتـابع ببندقيته الحـدأة الكبرى التى عاودت التحليق عـالياً ، لكنه لم يطلق النار هذه المرة أيضاً . وظن دانييل (البوم) أن أمراً خطيراً ألم بأبيه ، فهو لم يشاهد من قبل حـدأة تقترب كل تلك المسافة دون أن تطلق عليها النار .

وعاودت الحدآن الانقضاض ، وازداد دانييل اضطراباً وتوتراً ، ومرقت الحدأة الأولى قريبة حتى أن (البوم) شاهد عينها البراقة المدورة مصوبة نحو الدوق الكبير كما شاهد مخالبهـا الجارحة المقوسة ومرقت الثانية بعد الأولى فيـما يشبـه سرباً من الطائرات تنقض متـتابعة . ثم برزت الـكبرى لتنقض

وهى تبسط جناحيها فتغطى جزءاً واسعاً من زرقة السماء . لابد أنها اللحظة التى ينتظرها الجبّان . ونظر دانيل إلى أبيه الذى كان يلاحق الطائر مصوباً إليه بندقيته . وحلّقت الحدأة فوق الدوق الكبير بجناحين ساكنين ، وهنا سمع دوىّ إطلاقة تردد صداها فى أرجاء الوادى وترك الطائر أخدوداً من الريش سابحاً فى الفضاء وخفقت جناحاه العظيمتان محمومتين عاجزتين تحاولا عبثاً الابتعاد عن دائرة الخطر ، ولكن الجبّان عاجله بإطلاقة ثانية فخرّت الحدأة وهى تطلق صيحة مأتمية فى بحر من الريش .

ولكن صرخة الفرح التى أطلقها الأب لم تجد صداها فى ولده ، فمع دوىّ الإطلاقة الثانية رفع هذا يده إلى خدّه عندما أحسّ وكأن سلكًا محمياً اخترق لحم وجهه ، أو لسعة سوط أصابته . وتأمل يده فوجدها ملطخة بالدم وأحس بشىء من الخوف ثم أدرك بعد ذلك بقليل أن أباه أصابه بعيار نارى .

- لقد أصبتنى ، أبتاه - قال باستحياء .

وتسمّر الجبّان فى مكانه وانحسر حماسه فجأة ، وعندما اقترب منه كان يوشك أن يبكى غيظًا :

- هل الأمر خطير يابنى ؟ هل الأمر خطير ؟ - سأله منفعلاً .

وأسودّ كل شىء فى عين الجبّان لثوان ، الأرض والسماء وكل شىء . وما عادت مدخراته التى جمعها بحرص ، لحظتها ، مهمة ولا حياته الشحيحة ذات معنى . وما عساه يفعل لو أنه قتل ولده ؟ لو أن ولده لن يقوى على التقدم ؟ لكن أفكاره السوداوية ما لبثت أن تبددت عندما اقترب من الصبى . فأطلق قهقهة حادّة منفعلة وراح يؤدى حركات مضحكة :

- آه لا بأس عليك . لا بأس .لقد ظننت الأمر خطيرا ، إنها مجرد كرة رصاصية . هل تؤلمك ؟ هل يؤلمك هذا ؟ ها . . . ها . . . ها . إنها كرة رصاصية واحدة وحسب .

لم يرق لدانييل (البوم) ذلك الاستخفاف بجرحه ، فلقد كان عياراً ناريّاً صغر أم كبر . وتحسّس بلسانه وجود عقدة صغيرة فى باطن خدّه ، إنها الخردقة ، خردقة ربعية ، أى بمثابة طلقة ، طلقة صغيرة .

– الآن تؤلمنى أقل . إنها كالخدرانة ، لكنها كانت تؤلمنى من قبل .

كان الجرح ينزف لكن رأس أبيه اتجّه من جديد صوب الحدأة المجندلة ، فما حدث للولد ليس ذا بال :

– هل رأيت كيف سقطت ، دانييل ؟ هل رأيت كيف أرادت الماكرة أن تلتقط أنفاسها بعد الإطلاقة الأولى ؟

ولحقت بدانييل (البوم) عدوى حماس الأب فقال :

– بالطبع أبتاه ، لقد سقطت هناك .

وخفّ الاثنان نحو المكان المحدد . كانت الحدأة ، التى تبلغ المترين باعاً ، ماتزال تتلوى فى النزع الأخير .

وفى طريق العودة سأل دانييل (البوم) أباه :

– هل تظن والدى ، أن الجرح سيترك أثراً فى وجهى ؟

فرد عليه الجبّان دون أن يعيره اهتماماً يذكر :

– كلا ، بل سيندمل تماماً .

وأوشكت عينا دانييل أن تدمعا :

– لكن . . . لكن ألم يترك الجرح ندبة ؟

– كلا بالطبع فليس الأمر ذا بال – قال أبوه بفتور .

واضطر دانييل (البوم) أن يشغل فكره بشئ آخر كى لا يجهش بالبكاء ، ولكن الجبّان أوقفه فجأة ممسكاً برقبته :

– اسمع . لاتخبر أمك بأى شىء مما حدث ، مفهوم . لاتتكلم عن هذا أن كنت تريد أن تصحبنى ثانية إلى الصيد ، هل اتفقنا ؟

وطاب لدانييل أن يشعر بأنه مشترك مع أبيه فى الجرم فقال :

– اتفقنا .

وفى اليوم التالى ذهب الجبّان إلى المدينة حـاملاً الحدأة القتيل ، وعاد فى العصر فحمل الدوق الكبير فى قفصه وذهب به من دون أن يغير ملابسه إلى كويّرا ، الضيعة المجاورة .

وفى المساء ، بعد العشـاء ، وضع على الطاولة ، وهو يتوجه بالكلام إلى زوجته ، خمس أوراق نقدية من فئة المـائة قائلاً :

- اسمـعى ، هذا هو ريع الدوق الكبـير . وكـما ترين فـإنه لم يكن ضيفاً مدّللاً ، لقد بعته إلى قس كويرا بأربعمائة ، وأعطتنى جمعية مكافحة الحيوانات الضارة مائة أخرى لقاء الحدأة .

ولم تعلّق أم دانييل بشىء فقـد كان زوجها على الدوام عنيداً مـتصلباً فى الدفاع عـن رأيه ولم يكن يخفى طبـعه هذا بل كان يقـول : « منذ يوم عرسى أعجـبنى أن أكون دائماً فوق امرأتى » ، ثم كـان يضحك ويضحك مقهقهاً لسبب هو أدرى به .



الفصل الثالث عشر

ثمة أمور لاتحكمها إرادة الانسان . ذلك ما اكتشفه دانييل (البوم) مؤخرا وكان من قبل يظن أن الإنسان حر فى الاختيار بين ما يريد وما لا يريد . بل إن فى مقدوره ، هو نفسه ، أن يذهب ، إن هو أراد ذلك ، ليقلع ضرسه الذى يؤلمه عند طبيب الأسنان الذى يقعد صباح كل خميس ليمارس عمله فى شرفة محل كينو (الأقطع) لقاء إيجار بسيط . وقد يبلغ الأمر ببعض الرجال أنهم يقررون الاستغناء عن عضو من أعضائهم إن تحوّل هذا العضو إلى مشكلة بالنسبة إليهم ، وهو ما فعله لوكاس (الابتر) .

اى أن (البوم) كان يظن حتى ذلك المساء الذى تسلقوا فيه سور مزرعة (الأمريكى) لسرقة التفاح وحتى افتضاح أمرهم إذ فاجأتهم ميكا ، أن بإمكان الرجال أن يتصرفوا على هواهم تجاه كل ما يقف حجر عثرة فى طريقهم سواء أكان متصلا بالجسم أم بالروح . لكنه ، ما إن غادر عزبة (الأمريكى) بأذنين معقوصتين وتفاحة فى كل واحدة من يديه ، حتى أدرك أن إرادة الإنسان هى ليست كل شىء فى الحياة وأن ثمة أشياء تفرض عليه إرادتها ، تقهره وتخضعه لسلطانها الطاغى المستبد . إنه يعى الآن بعض الأمثلة كحسن ميكا الأخاذ وارتيابية بالجو (الملحد) وحميّة دون خوسيه المتوقدة ونفور سارة من أخيها (البعرور) .

لقد أدرك دانييل (البوم) ، منذ محاولة سرقة التفاح الفاشلة ، أن ميكا رائعة الجمال وأن جمالها أشعل فى صدره جذوة لا يعرف كنهها ، جذوة تشوى وجهه عندما يذكر اسمها أمامه . كان ذلك شيئا غريبا عليه غيّر مجرى حياته التى كانت حتى ذلك الوقت فاترة وبلا ارتباط . وتقبل دانييل (البوم) هذه الحالة بخضوع من يتقبل الأمور المقدرة . إنه لا يستطيع أن يتجنب التفكير فى ميكا كل ليلة عند النوم أو وهو يأكل اللبن

المحلى أيام الآحـاد وأثناء الأعيـاد . وحملـه هذا على الاعتـقاد بأن مـيكا ستكون للسعيد الذى يفوز بحبها واحة سلام عذبة هانئة .

وحاول (البـوم) فى البداية التملص من هـذا الضغط الداخلى الذى كان يهدّد استـقلاليته التى ما كانت تقبل المسـاومة ، ولكنه تقبل فى النهاية حالة التفكيـر الدائم بميكا باعتبارها حـالة مكملة له وباعتبارها شـيئا يكّون جزءا حـميمـا من ذاته : تغيب عن البلدة فيـسود الوادى فى عينيـه وتبدو السماء والأرض جردانين مـفزعتين رماديتين ، وتعود فيتغـير الحال ويكتسب لونا آخر ، فخـوار البقر يصير أحـلى وخضرة الحقول تصـبح أشدّ إغراءً ، حتى غناء الشحارير يكتسب،بين العوسج ، نغمات أوضح وأكثر شفافية . كان يحـدث وقتها ضـرب من الانبعاث العجـيب فى الوادى ، أو العرض المفعّـل لإمكانياته ولعطوره ولأصـواته ولهمـساته التى تميـزه . فكأن ليس للوادى من شمس غيـر عينى ميكا ، كأن ليس له من أنسـام غير تلك التى تهّب مع كلماتها .

كان دانييل(البوم) يكتم اعجابه الشديد بميكا ويحافظ عليه فى سرّه ، لايشاركه فى معرفته أحـد . مع ذلك فثمة شىء فى عينيه أو ربما فى صوته كان يفضح دواخله يصعب إسكاته .

كان أصدقاؤه معجبين كذلك بالفتاة : كـان يعجبهم منها جمالها كما يعجبهم من الحداد قـوته ، ومن القس ، وهـو القديس العظـيم ، رقّة قلبه ومن كـينو (الأقطع) ، قـبل أن يعـرف (البعـرور) أنه بكى يوم مـاتت زوجته ، فضلة يده . نعم كانوا هم أيضا معجبين بها .

ولكن إعجابهم كـان من قبيل الإعجاب بالإشياء الجـملية أو القوية التى لاتخلّف أثرا من بعدها . كانوا ، بلا شك ، يحسون فى حضرتها بما يشبه انفعالاجـماليا جديدا لا يلبث أن يتبدد أمام زرزور صرعـته مصيداتهم أو ضربة من مسطرة دون مويسيس المعلم .

وهكذا فان تولههم لم يكن دائما بل عابرا زائلا كالفرقعة .

لقـد لاحظ دانييل (البـوم) أن معنوياته وهي مـوجودة تخـتلف عن معنويات أصدقـائه ، إنها حالة خاصة ، وإلا ، فلماذا لايفـقد (البعرور) أو (الأقرع) ثلاثة كيلو غرامات من وزنهمـا عندما تسافر ميكا إلى أمريكا أو كيلو غـرامين إن هي اكتفت بالسفـر إلى المدينة ؟ ولمـاذا لايستعـيدان ما فقـداه من وزن ويزيدان عليه كيـلو غراما واحـدا إن هي عادت إلى الوادى لتقيم فيـه لمدة طويلة ؟ هنا يقوم البرهان على أن مشاعره نحو ميـكا متميزة ومختلفة جدا عن مشاعـر زملائه . وهم إن رسموا الصلبان وهم يتحدثون عنها أو أغلق (البعرور) عـينيه وأطلق صافرة حادة قصيـرة كما يفعل أبوه عندما يشاهد فتاة جميلة ، فـما ذاك إلا من قبيل التظاهر المجرد والإعجاب السطحي وليس هو بالحركة الجياشة المتواصلة الصادرة من الأعماق .

وتحدثوا عصر أحد الأيام في حقل البلوطة عن ميكا . ذكروها بمناسبة الحديث عن الـقتيل الذى يقـال إنه مدفـون من زمن الحرب تحت الشـجرة المعّمرة وسط الحقل . قال (الأقرع) :

– لابد أنه صـار رمادا ولم تبق منه ولاحـتى العظام . أتعـتقـدان أنه عندما تموت ميكا ستنبعث منها رائحة كريهة كالآخرين وستصبح ترابا ؟

وأحس (البـوم) بدفقـة دم تصعد إلـى وجهه وهّـب غاضبـا فكأن أحدهم شتم أمه :

– لا . ذلك غيرممكـن أن تصدر عن ميكا رائحة كـريهة ، ولا حتى عندما تموت .

واطلق (البعرور) ضحكة خبيثة وقال :

– يا لك من غبى . فـعندما تموت ميكا سـتصدر رائحـة نتنة مثل أى آدمى .

ولم يستسلم (البوم) :

– إنها طيبة . ويمكن أن تموت برائحة القداسة .

– وماذا يعنى هذا ؟ – دمدم (البعرور)

- أنها رائحة القديسين .
واحتّد (البعرور) :
- هذا كـلام فارغ . أو تظن أن للقـديسين رائحة الكولونيـا ؟ نعم ، هذا عنـد الرب ولكن لـيس عندنا نـحن الذين نشـم بأنوفنـا . عندك دون خوسيه ، لا أظن أن هناك قديسا مثله ، ولكن ، ألا تنبعث من فمه رائحة كريهـة ؟ إنه قديس قدر ما تـريد ، ولكنه عندما يموت ستنبـعث منه رائحة كريهة كما هو حال ميكا وحالك وحالي وحال جميع البشر .
وغيّر جيرمان (الأقرع) مجرى الحديث ، وكان قد مر أسبوعان على حادثة سطوهم على مـزرعة (الأمريكى) . قلب (الأقرع) عينيـه ليتكلّم فقد كان الكلام يكلفه جهدا كبيرا وكان أبوه الاسكافى يقول عنه إن الافكار تتسرب من قرعته . سأل فجأة :
- هل دققتم . . . هل دققتم فى جلد ميكا ؟ كأنه من حرير .
- هذا يسـمى بشرة . . . يقـال « عندها بشرة » - قـال (البعـرور) موضحا ثم أضاف - : ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة .
وأحس دانييل (البوم) بسعادة كبيرة وهو يسمع بأن ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة ، وقال باستحياء :
- إن جلدها يشبه تفاحة صقيلة .
وواصل (البعرور) كلامه :
- خوسيـفا ، التى انتحرت بسبب (الأقطع) ، كـانت سمينة ، مع ذلك فقد كانت لها ، حسبما يقول أبى وسارة ، بشرة ناعمة .
الكثيرات فى المدن يمتلكن بشرة ناعمة ، أما فى القرى فالأمر مختلف لأن الشمس تحرق الجلد والمـاء يجعّده .
كان جيرمان (الأقرع) يعرف شـيئا من ذلك ، فقد كان لديه أخ فى المدينة ، وكان هذا الأخ يحكى له أشياء كثيرة عن المدينة عندما يزورهم فى بعض السنين أيام أعياد الميلاد :
- ليس هذا هو السبب - قال مقاطعا بنـبرة من يمتلك معرفة مطلقة -

أنا أعرف لمــاذا . لأن الآنسات الصغيرات يضعن فى الليل الدهون ويتناولن العقاقير التى تزيل التجاعيد .

ونظر إليه الاثنان الآخران ببلادة :

- بل أعرف أكــثر من هذا . خفض صوته بينمــا اقترب منه صاحــباه مدفوعين بجو التكتم الغامض الذى أشاعه - .

هل تدريان لمــاذا لايتجعد جلد ميكا ولمــاذا تحافظ على بشرتها ناعمة طرية كالأطفال ؟

وامتزج استفهامهما فى صوت واحد :

- لمــاذا ؟

- لأنها تضع حقنــة شرجية كل ليلة قبل النوم ، وهــو ما يفعله أهل السينما . هذا ما يقوله أبى ، وقد قال دون ريكاردو إن هذا يمكن أن يكون صحيحا لأن الشيخوخة تخرج من البطن ، ولأن الوجه يتجعد عندما تمتلئ المصارين بالأوساخ .

وما كان أشدّ وقع هذا القول على دانييل (البوم) . لقد راحت ميكا والحقنة الشرجية ترسمان فى مخيلته صورة مهينة . « إنهما طرفا نقيض غير قابلين للالتقاء » . لكنه تذكر فجأة مــا كان دون مويسيس المعلم يقوله دائما من أن النقيضين قد يلتقيان ، فأحس بكآبة عمــيقة وكأن شيئا ما يغادر بدنه متدفــقا . فكلام (الأقرع) إذا صحيح ووارد تمامــاً . ولكنه ، عندما رأى ميكا بعــد يومين من ذلك ، شعر أن تلك الصــور الوضيعــة قد تلاشت ، وأدرك أن ريكاردو والإسكافى وجيرمان (الأقــرع) وجميع أهل البلدة إنما يقولون مــا يقولون عن الحقنــة الشرجيــة لأن أمهاتهم ونســاءهم وأخواتهم وبناتهم لايمتلكن بشرة ناعمة كبشرة ميكا .

كانت صورة الفتاة ترافق (البوم) فــى جده ولهوه ، لقد استحكمت صورتها فى رأســه حتى أصبحت هاجســا ، وما كان يقدّر حــينها أن ميكا تكبره بعشرة أعوام ، ومــا كان يقلقه أنهما ينتميان إلى طبقتين اجتماعيتين مخــتلفــتين . وإن أسف على أنه ولد فقــيرا وولدت هى غنيــة ، وعلى أن

والده الجبّان لم يهاجر إلى الأمريكتين كأبيهما خيراردو ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيلا ، ولو أنه فعل ذلك لامتلك مطعمين فاخرين ومحلا لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية ، أو على الأقل معرضا تجاريا للاجهزة الكهربائية المنزلية كذلك الذى يديره « خيال الأمريكى » فى المدينة . فلو أنه امتلك مثل ذلك المعرض لما فصله عن ميكا غير المطعمين والبواخر الثلاث ، وفضلا عن هذا وذاك ، محل أجهزة الراديو ، وما هو بالشيء التافه القليل .

ومع إعجاب (البوم) بميكا وحبّه لها ، فقد مرّت سنوات قبل أن يتمكن من الكلام معها ، إذا استثنينا بالطبع التوبيخ الرقيق يوم حادثة التفاحات . كان يكتفى بوداعها والترحيب بها بنظرة حزينة أو مشرقة تبعا للظروف ،حتى حدث صباح يوم صيفى أن حملته إلى الكنيسة فى سيارتها ، تلك السيارة الطويلة السوداء اللامعة التى ما كانت تصدر صوتا أثناء سيرها . لم يكن هو قد أكمل العاشرة ، ولم يكن أمامه سوى عام واحد للدخول إلى المدرسة وبدء مسيرة التقدم . أما هى فكانت قد أكملت التاسعة عشرة دون أن تؤثر السنوات الثلاث التى مرّت منذ ليلة التفاحات على بشرتها الناعمة ولا على وجهها ولا على جسمها ، بل لقد جعلت بشرتها ووجهها وجسمها أكثر تناسقا واكتمالا .

كان يرتقى العقبة وقد أتعبته شمس أغسطس بينما كانت تتلاحق فى أرجاء الوادى أجراس الإعلان الأخير عن القداس . كان ما يزال أمامه نحو من كيلو متر واحد ، فراح يحث الخطى للوصول قبل أن يبدأ دون خوسيه بقراءة الإنجيل . وفجأة سمع بوق سيارة ميكا السوداء قريبا منه . والتفت مفزوعا فتلقته من لدن الفتاة ابتسامة صادقة غير متوقعة . وشعر دانييل (البوم) بخدر وتساءل إن كانت ميكا ما تزال تذكر المحاولة الفاشلة لسرقة التفاح . لكنها لم تشر إلى ذلك الفصل المؤلم .

- هل أنت ذاهب إلى القدّاس ، أيها الصغير ؟

وفقد (البوم) لسانه فلم يردّ بغير حركة من رأسه . فتحت بنفسها باب السيارة ودعته :

- اصعد فالوقت متأخر والجو حار .

وعندما ثاب دانييل (البوم) إلى وعيه وجد نفسه جالسا إلى جنب ميكا يستعرض الأشجار وهي تمر مسرعة من خلف زجاج السيارة .

وأحس قرب الفتاة في عروقه وفي ضغط أعصابه المضطرب . كان ذلك يبدو كالحلم الذي يؤلم ويوجع وهو في قمته . « ربّاه - فكّر - هذا يفوق ما كنت أتصوّره ، وتسمّر وتيبّس لما داعبت بيدها الناعمة قفاه ، وسألته برقة :

- ابن من أنت ؟ .

وتلعثم (البوم) وهو يجاهد أعصابه :

- ابن . . . بائع الجبن .

- ابن سلفادور ؟

وخفض رأسه موافقا ، وقدّر أنها كانت تبتسم . وفكر ، لما لامس جلدها الناعم قفاه ، أن الفتاة تمتلك بشرة حتى في راحة يدها .

وبدأ برج الكنيسة يلوح من بين الأشجار .

- هل يمكنك أن تأتيني بقطعتين من جبن القشدة هذا العصر - قالت .

وعاود دانييل (البوم) اجابته الآلية برأسه بعد أن أعياه الكلام . ولم يحدد وهو يصلي ، مكان رأسه من مكان قدميه ، فأدى علامة التصليب مرتين في غير وقتها بينما راح آنخل ، عريف الحرس المدني ، يضحك بانفعال مغطيا وجهه بقبعته المثلثة وهو يرى سوء أداء الصغير .

وفي العصر ارتدى ثيابه الجديدة وصفّف شعره وغسل ركبتيه وانطلق إلى بيت (الأمريكي) حاملا الجبن . وذهل وهو يتأمل فخامة بيت ميكا :

أثاث لامع وأرضية صقيلة ناعمة فكأن لها ، هى الأخرى ، بشرة ناعمة .

ومع ظهور ميكا أضاع (البوم) ما جمع من شجاعة أثناء الطريق ، وبينما تتفحص الجبن وتدفع له ثمنه راحت تطرح عليه السؤال تلو السؤال . إنها فتاة بسيطة لطيفة ولاتتذكر إطلاقا حادثة التفاحات المزعجة . سألته :

– ما اسمك ؟

– دا . . . دانييل

– هل أنت تلميذ فى المدرسة ؟

– نعم .

– هل عندك أصدقاء ؟

– نعم .

– ما أسماؤهم ؟

– الـ . . . (بعرور) والـ . . . (اقرع)

وأبدت الفتاة إيماءة امتعاض وقالت :

– ما هذا ؟ لماذا تدعو أصدقاءك بهذه الأسماء القبيحة ؟

وارتبك دانييل (البوم) وأدرك أنه ردّ بغباء ومن دون تفكير . كان عليه أن يقول إن أسماءهم هى روكيتو وجيرمانين . فميكا فتاة رقيقة مهذبة وقد جرح بألفاظه تلك أحاسيسها . وندم فى أعماق نفسه على تسرعه ، وشعر فى تلك اللحظة ، أمام وجه ميكا الباسم الجذاب . بأن فكرة الذهاب إلى المدرسة للتقدم تروق له . سيجتهد فى دراسته ، وقد يكسب بعد ذلك أموالا طائلة ، وعندها سيكون وميكا على قدم المساواة وسيمكنه الزواج منها وربما ستلقى ماريوكا – أوكا بنفسها ، بعد سماعها بزواجه ، إلى النهر عارية كما فعلت خوسيفا يوم زفاف كينو . ولازمه شعور بالارتياح والحماس وهو يفكر فى المدينة وفى أنه قد يصبح فى يوم من الأيام رجلا ذا شأن وخطر وفى أن ميكا ، هكذا ، ستفقد مسافتها وستكون

على مـقـربة من امكانيـاته . سيـتـرك ، عندها ، عـادة النطق بالالقـاب والكلمات الـبذيئة ، ولن يتـبادل الضـرب مع أصدقائه بالـروث اليابس بل سيفوح منه أريج العطور الثمـينة بدلا من رائحة القريش . ولن تعامله ميكا ، حينها ، معاملة الصبى القروى غير المهذب .

عندما غادر دانييل (البوم) بيت (الأمريكى) كان الوقت ليلا ووجد الفتى أن التفكير فى الظلمة يبعث فى نفســه المتعة . ولكنه فزع عندما شعر بأصابع تضغط على لحم يده . كانت أصابع اوكا - اوكا :

- لمـاذا تأخرت كل هذا الوقت فى ايصال الجبن إلى ميكا ؟

وساءه أن تفسـد اوكا - اوكا عليه وحدته بهذه الســهولة ، وألا تدعه وشأنه وهو ينضج أو وهو يفكر فى مستقبله .

وانتصب ، بظرف ، متعاليا :

- هلّا تركتنى وشأنى وإلى الأبد أيتها التافهة ؟

كان يسير مسرعا وكانت ماريوكا-أوكا تجاريه عدوا وهو ينزل العقبة :

- لمـاذا ارتديت بدلتك الجديدة وأنت توصل الجبن ؟ أجبنى .

وتوقف هو فى وسط الطريق مغتـاظا ، وفكّر للحظة فى صفع الطفلة قبل أن يقول لها :

- لا دخل لك أنت فى شؤونى . هل فهمت ؟

وردّت ماريوكا - أوكا بصوت مرتعش :

- الأن ميكا تعجبك أكثر منى ؟

فأطلق (البوم) قهقهة واقترب من الطفلة صارخا فيها :

- اسمعى. ميكا هى أجمل فتـاة فى الوادى . إنها ذات بشرة ناعمة ، أما أنت فقبيحة كجوزة الهند ووجهك ملىء بالنمش ، ألا ترين الفرق ؟

وواصل طريقه إلى البيت ، أمـا مأريوكا - اوكا فتوقفت عن مـتابعته وجلست على جانب الطريق الأيمن ثم أـخفت وجهها الـصغير المنمش بين يديها وراحت تبكى بكاءً مرّا .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع عشر

ليقل الآخرون مايحلو لهم ، فليس أحد بقادر على منعهم من ذلك ، ولكن ليس كل ما يقول هؤلاء عنهم هو الحقيقة . فلا الذنب كله يقع على روكى (البعرور) ، ولاهـم يريدون أكثر من قضاء الوقت عـلى أفضل وجه ممكن . أما ألا تروق طريقتهم فى قضاء الوقت لـ (الفلفلة) الكبرى وللجبّان ولدون مـويسيس المعلم فـذلك شئ آخـر . ولكن من يستطيع أن يقـرر أن السبب فى ذلك لا يكمن فى سلوكهم الشـيطانى بل فى غرابة طبع الفلفلة والجبّان والبـيدق ؟ فالناس تنحى باللائمـة مباشرة على الصـغار وإن صدر غضب الكبـار فى أحيان كـثيرة عن طبـيعتـهم النزقة المرتابة لا عن أفـعال الصغار الخـبيثة . خـذ باكـو الحداد مثلا . أنه يفـهمهم لأنه يتمـتع بصحة جيدة ومعدة صحـيحة ، بينما لايفهمهم (البيدق) بسـبب أحماضه ووجهه الملتوى وكـبده المعلولة . أما أبوه الجبّـان فإن حرصه الشـديد على الإدخار يمنعه من رؤية الأشياء بمنظار متفائل منشرح وبالوضع الذى هى عليه عادة . أما (الفلفلة) الكبرى فـلأنها فى نهاية المطاف صاحبة القط الـذى تحبه وكأنه ثمرة غيـر منطقية لبطنها اليابس . كمـا لا ذنب لهم فى أن تحمل (الفلفلة) ذلك الشـعور الودود وغـير المنتظم تجـاه الحيـوان ، ولافى أن يدخل القط الواجهة الزجاجية عندما تطل الشـمس بوجهها المحتقن الأشقر على الوادى فى غفلة من الغيوم . لا ذنب لأحد فـى ذلك حقا . ولكن دانييل (البوم) يسـتنتج أن الأطفال يحـمّلون وزر كل ما لا يقع وزره على أحـد ، وأنهم لايستطيعون من ذلك خلاصا .

أمـا ماجـرى للقط فلم يكن خـارجا على المألوف . ولو أن القط كـان لانطونيو (الحـوصلة) أو حتى للأرنبات لمـا حدث شئ ، أما الفلفلة فـإنها ميّالة لإثارة الفضائح ، وهى بـحبها للقط تبدى نزعة مريضة وغيـر طبيعية فيها ، فلو كانت الفعلة خطرة أو كان فيها مقدار ذرة من الخطيئة لما ضحك دون خوسيـه القس كل ذلك الضحك عندما حكيت له . لقد كـان الحيوان بخروجه إلى الواجهـة الزجاجية للتشمس يبـحث عن المشاكل ، وإن كانت هذه العادة ، من نـاحية أخـرى ، تمثل مكسبـا اقتصـاديا جيـدا لـ (البوم) وأصدقائه . فـقد كانت (الفلفلة) تسـألهم حين يذهبون إلى محلـها لشراء ريال من الكعك المحمّص :

- أتريدون من كعك العلبة أم من الكعك الذى داسه القط ؟

فيردّون عليها دائما :

- من الكعك الذى داسه القط .

فالكعك الذى داسه القط كان للعـرض ، ومنه كانت (الفلفلة) الكبرى تبـيع كل أربع بريال ، بينمـا تبيع كل اثنتـين بريال إذا كـانتا من العلبـة . وماكـان يهم الأولاد كثيرا أن يكون القـط قد داس الكعكات ، بل لم يكن القط أحيانا يكتفى بأن يدوس الكعك ، وماكـان ذلك يقلقهم كثيرا ، فأربع خير من اثنتين دائما ومهما كانت الأحوال .

أما العدسة المكبرة فقد كان جيرمان (الأقرع) هو من حملها إلى المدرسة صباح ذلك اليوم الربيعى . كان أبوه يحتفظ بها فى دكانه لفحص الأحذية . ولما كان نظر اندريس قويا فما كان يستخـدمها إلا نادرا . كان سـيستعملها لو أنهـا قدرت على رفع ثيـاب النسوة قليـلا ولكنه كان يقـول : «لاداعى لاستخدام آلات لرؤية السيقان أغلظ مما هى عليه» .

وقام الأولاد صباح ذلك اليـوم بكل أنواع التجارب مستخـدمين عدسة جـيرمـان (الأقرع) المكـبرة . فـأحرق روكى (البـعـرور) ودانييل (البـوم) سيجارتين رديئـتين مصنوعتين من ورق البطاطا بعد أن ركـزا أشعة الشمس عليهما ، ثم تفحصا الندب ، التى بدت من خلال الزجاج الغليظ تضاريس مرعـبة غير منتظمـة . ثم عاين كل منهمـا عين الآخر ولسانه وأذنيـه حتى تعبا منها ومن الصور الغريبة التى كانت تحدثها .

وبينمـا كان الأولاد يقطـعون البلدة فى طريق الـعودة إلى بيـوتهم من المدرسـة شـاهدوا قط الفلفـلات مـتكورا على صـحن الكعك فى أقـصى الواجهة الزجاجية من الدكـان . كان يغط فى نوم هانئ وهو يعرض كرشه الأسود المشعر للشـمس وينعم بالدفء . واقتربوا ففتح مرتـابا عينا خضراء مدورة مرعـبة . ولكنه عاود إغماضـها مطمئنا إلى الحمـاية التى يكفلها له زجاج الواجهة ويبقى سـاكنا مستلقيا . ليس فى مقـدور أحد أن يعين على الدماغ المكان الذى تولد فيه الأفكار العظيمة . ولا حتى دانييل (البوم) يقدر أن يقول صـادقا فى أية ثنية أو فى أى ركن من دماغـه ولدت فكرة توسيط العدسة المـكبرة بين الشمس وكرش القط الأسـود . لقد ولدت الفكرة فى رأسه ولادة عفوية ، بل تكاد تكون طبيعـية ، شئ من قبيل تدفق المياه من النبع . لقد تركزت أشعة الشمس على شعر القط الأسود مؤلفة لثوان خالا برّاقـا . وراح الأصدقـاء الثلاثـة ينتظرون حدوث العـمليـة الفيـزياوية ، ولاحظوا كيف أن طبقة الشعر العلوية بدأت تطلق شررا بينما الحيوان ملتزم بوضعه الحـالم الهانئ . وفجأة ارتفع من الخـال النارى المثبت على الكرش الداكن خيط من الدخان فـانتفض قط الفلفلات فى قفزة بهلوانيـة مصحوبة بعواء وحشى :

- مارراميااوو . . . مياووو . . .

ثم راح المواء المتألم يخفت شيئا فشيئا فى داخل المحل .

ومن دون سابق اتفاق ، انطلق الأصدقاء الثلاثة يعدون ، ولكن (الفلفلة) الكبرى كانت أسرع منهم . وأطلت بوجهها المعكر من الباب قبل أن يفلح الصبيان فى الاختفاء نزولا من العقبة . كانت ترفع قبضتها عاليا باكية وهى تحس بالغضب والعجز :

- يا أنذال ، ياسفلة ، ومن سواكم يفعل هذا ؟ لقد أحرقتم القط ولكنى سأنتقم منكم وستذكرون ذلك .

وتذكرونه فعلا . فقد فاقت فعلة دون مويسيس المعلم بهم فعلتهم بالقط ، وأنزل بهم عقوبة الاعتبار ، فكان (البوم) يسأل نفسه : «لماذا نعاقب بدزينة من ضربات المساطر فى كل يد وبالبقاء طول النهار حاملين مجلد «التاريخ المقدس» الضخم بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة لمجرد أننا أحرقنا القط ؟ ولماذا لايفرض أحد على من يخضعنا إلى هذا العقاب المتعسف عقوبة أشد لنصل هكذا ، من عقوبة لأخرى ، إلى عقوبة الإعدام؟» ولكن لا . فمع أنه مصيب فى حجته فلابد أن يحل العقاب به دائما . فهذا هو حال النظام التربوى القائم وهكذا تجب طاعته بإذعان . إنها عدالة الرجال المبنية على المزاج وغياب المنطق وانعدام المساواة .

وتمر الدقائق بطيئة ، إن ركبتاه تؤلمانه وساعده يرتجف ، إنه يحس بوخز الأعصاب فيه وهو يرفع «التاريخ المقدس» عاليا ، وراح (البوم) يفكر فى أن التجارة الوحيدة الرابحة فى الحياة هى أن يعجل فى ترك مرحلة الطفولة والانتقال إلى مرحلة الرجولة . فى هذه الحالة فقط سيكون فى إمكانه

مطمئنا حرق قط بعدسة مكبرة دون أن تهتـز قواعد البلدة الاجتماعية ودون أن يتعسف المعلم مـويسيس فى استخدام صلاحيـاته دون أن يتعرض بدوره للعقاب .

وماذا عن حـادثة النفق ؟ لقد نتج عـن حادثة العدسـة المكبرة سـقوط ضحـية بريئة هو القط ، أما فى حـادثة النفق فلم تسقط أية ضحـية . ولو قدر لضـحية أن تسـقط لكانوا هم الضحيـة . مع ذلك فقد انهـال الضرب على راحتـهم وأمضـوا الساعات راكـعين على ركـبهم وحاملـين «التاريخ المقدس» بأيديهم المرفوعة دائما فوق رؤوسهم . ياله من عمل غير إنسانى ، إنه بالمخـتصر المـفيد استـغـلال واضح للسلطة . أمـا كان دون مويسـيس (البيدق) سيرتاح لو أن القطار السريع جـرفهم ثلاثتهم ذلك المساء ؟ فلماذا عوقـبا إذا ، هل لأن القطار لم يجرفـهم أمامه ؟ لقـد كانوا فى الواقع فى ورطة ، وكان الموقف صعـبا : فإما الموت تقطيعا بين عـجلات القطار وإما قضاء ثلاثة أيام ركـوعا على الركبتين ، و«التـأريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة مرفوعا فوق مستوى رؤوسهم .

روكى (البعرور) هو الآخر لايحسن تحديد المكان الذى انبثقت منه تلك الفكرة الغريبة :

فكرة نزع السراويل الداخلية داخل النفق وانتظار القطار السريع هناك . كانـوا من قبل ينتظرون القطار المخـتلط أو قطارا المحـافظات داخل النفق ، ولكن هذين القطارين بطيئان ولايحـدث مرورهما فى النفق المظلم إلا تأثيرا طفيفا فى نفوسهم . فكان لابد إذا من الإبداع . واقترح روكى عليهم هذه التجربة الجديدة : أن ينتظروا القطار السـريع داخل النفق ويتغوطوا ثلاثتهم مع مروره .

وأبدى دانييل (البوم) اعتراضا حكيما قبل أن يوافق ، قال :

- ومن لاتحدث عنده رغبة ؟

فرد عليه (البعرور) بحزم :

- ستحدث بمجرد أن يحس باقتراب القطار .

وناقشوا مسألة وضع السراويل . ولو أنهم أحسنوا التصرف فى هذه النقطة لما افتضح أمرهم ، ولو أن الشمس قبلها لم تشرق يوم حمل (الأقرع) العدسة إلى المدرسة لما حدث ماحدث . ولكن ثمة كيانات شيطانية تطير فى الهواء دائما وتتلذذ بتعقيد أفعال الأطفال البريئة وتعقيد كل ماهو بسيط وطبيعى .

فمن ذا الذى كان يفكر فى مصير سرواله وهو الذى يغامر بمصيره ذاته ؟ وهل يلتفت مصارع الثيران إلى قطعة القماش عندما يكون القرنان على بعد شبرين من ردفيه ؟ وحتى لو مزق الثور تلك القطعة فلن يسمع المصارع توبيخا من أمه ولن ينتظره معلمه الغاضب ليعاقبه بدزينتين من المساطر وبالركوع على ركبتيه رافعا «التأريخ المقدس» فوق مستوى رأسه . ثم إن المصارع يكسب فوق هذا نقودا كثيرة ، أما هم فإنهم يغامرون دون أن ينتظروا مكافأة أو تصفيقا ، ودون أن يأملوا الحصول على مدخنة أو عجلة من عجلات القطار . إنهم يحاولون وحسب إثبات جدارتهم أمام أنفسهم ، فهل يستحق ذلك كل هذا العقاب الصارم ؟

ودخل القطار السريع النفق مصفّرا نافخا يطلق الشرر فتهتز لحركته الجبال والصخور . أما الأولاد الثلاثة فقد قعدوا القرفصاء ، شاحبى الوجوه مُكشِّفين عن أعجازهم على مقربة نصف متر من السكة . وأحس

دانييـل (البوم) أن الأرض تميد مـن تحت قدميـه ورسم علامـة الصليب فى ذهنه . مر القطار يزأر من جنبه فلسع سوط من البـخار الساخن مؤخرته ، وارتجت جـدران النفق الذى عج بصـخب حديد مـدو . ومن بين قـصف الحديد وهدير السـرعة المحصورة بلغ سـمعه صوت (البعـرور) الجالس إلى جواره محذرا :

- امسكوا بركبتيكم .

وأمسك قويا بركبتيه تنفـيذا لأمر الزعيم ولأن جذب القطار كان شديدا لايقاوم ، أمسك بركبـتيه وأغمض عينيه وقلّص احـشاءه . وأحس بسعادة وهو يرى أنه أنجز تماما ما طلبه روكى منه .

وبعد مرور القطـار أطلق الأصدقاء الثلاثة ضحكات مـكتومة . ونهض (الأقرع) وهو يسـعل بعد أن امـتلأ جوفـه بالدخان ، ثم سـعل (البوم) ، وأخـيرا سـعل (البعـرور) . لم يكن (البـعرور) فى يوم من الأيام البـادئ . بالسعال وإن شعـر بالحاجة إلى ذلك . كانت ثمة منافسة غـير معلنة بينهم حول هذه المسألة .

كانوا لايزالون يضحكون عندما صاح روكى (البعرور) منبها :

- السراويل غير موجودة .

وتوقـفوا عن الضـحك فى الحال . وقـال (البـوم) وهو يتحـسس فى الظلام :

- لابد أنها هناك .

وقال الأقرع :

- احذرا لا تدوسا . . .

ونسى (البعرور) للحظة موضوع السراويل وسألهما :

- هل تغوطتما ؟

وامتزجت فى ظلمة النفق الداكنة ردود (البوم) و (الأقرع) المرضية :

- نعم .

- وأنا كذلك - أقر (البعرور) وضحك عندما تأكد من إجماع أحشائهم الغريب . ولم تظهر السراويل . وواصلوا التفتيش حتى بلغوا فتحة النفق . كانت أعجازهم ملطخة برذاذ السخام ، وكانت خشيتهم من فقدان سراويليهم تطبع على وجوههم علامة ذهول مضحكة . مع ذلك لم يجرؤ أحد على الضحك . ماكانت معرفتهم بأبوين ساخطين ومعلم قاس تترك لهم مجالا كبيرا للشعور بالابتهاج . ولاحظوا فجأة على مسافة أربعة أمتار إلى الأمام وفى وسط السكة ، خرقة مشوهة المعالم مسوّدة . تناولها (البعرور) وعاينها الثلاثة وأخيرا تجرّأ (البوم) ليقول متمتما وبصوت خافت :

- إنها قطعة من سروالى .

أما بقية الملابس فراحت تظهر على طول الطريق قطعا صغيرة ممزقة . كانت قوة العصف قد انتزعت الملابس من مكانها ليتلقفها القطار بين حديده وليمزقها مثل وحش ضار . ولولا ذلك العارض ماعلم أحد بالمغامرة ، ولكنها الكيانات المنحوسة الطائرة على الدوام فى الفضاء تظهر من جديد لتعقد عليهم الأمور . بالطبع فإن عقوبة دون مويسيس مبررة حتى قبل

معاينة تصرفهم الشيطانى من كل جوانبه ، فهو متطرف فى العقاب دائما . ويبدو أن معاقبة التلاميذ كانت تمنحه متعة كبيرة ، فقد كان شدقه الأيمن ينفرج فى مثل هذه الحالات حتى يوشك على بلوغ سالفه قاطع الطريق السوداء .

ورّب سائل يسأل إن كانوا أثاروا فضيحة وهم يدخلون البلدة من دون سراويل؟ هذا ماحدث بالطبع . وماذا عساهم فاعلين فى مثل هذا الموقف ؟ هل كان يتوجب عليهم ، لمجرد أنهم أضاعوا سراويلهم ، عدم العودة إلى البلدة ؟ ما أفضح ماكان يعنيه عندهم ثلاثتهم وقوفهم دائما فى موقف القرار والاختيار بين مفترقات صعبة جدا . وكم كانت صعبة عليهم ماكانت تحدثه أشياؤهم من حدة فى دون مويسيس المعلم ، أشياؤهم التى ماكانت تعنيه من قريب ولا من بعيد .



الفصل الخامس عشر

طالما صرخ المعلم دون مويسيس أن حاجته إلى المرأة تفوق حاجته إلى الطعام . إنه يردد ذلك فى البلدة منذ عشر سنوات ، مع ذلك فمازال محروماً من المرأة المنشودة (الفلفلات) ، و(الأرنبات) ودون خوسيه القس ، وهو القديس الكبير ، يقرّون بحاجته تلك وخاصة لدواعى مكانته الوظيفية . إذ لايمكن لمعلم الذهاب إلى المدرسة كيفما اتفق ، فليس المعلم جبّاناً ولا حدادا بل هو موظف ، وللوظيفة متطلباتها ، وأولى متطلبات الوظيفة أن يحصل الموظف على أتعاب كافية ، ولكن دون مويسيس لايتقاضى أية أتعاب ، فليس غريباً إذا أن يرتدى كل يوم بدلته البالية المرقعة التى جاء بها إلى البلدة من عشر سنوات خلت . وليس غريبا ألا يرتدى ملابس داخلية ، لأنها تكلف ماتكلفه إحدى العينين ، وهو بحاجة إلى كلتا عينيه لمواصلة عمله . ولاشك أن (الأرنبة) كاميلا أخطأت فى حقه ، فقد شغف المعلم بها حبا فى وقت من الأوقات ولكنها صدته بدعوى أن وجهه ملتو وأن فمه منحرف ، ويالها من حماقة . وقد أصاب باكو الحداد إذ قال إن ذلك ليس عيباً كبيرا لأن (الأرنبة) قادرة ، إن هى تزوجت منه ، على إعادة فمه إلى مركزه وتعديل وجهه بالإكثار من تقبيله . ولكن كاميلا لم تكن متحمسة للفكرة وكانت تكرر أنها لكى تقبل المعلم فى فمه فإن عليها إن تقبله فى أذنه وهى غير راغبة فى ذلك . ولم يرد عليها باكو الحدّاد سلباً ولا إيجاباً ولكنه فكر فى أن تقبيل رجل فى أذنه ليس أسوأ من تقبيل أرنبة فى مشفرها . وهكذا انتهى المسعى دون نتيجة ، وواصلت هى عملها فى البدالة وواصل هو الذهاب إلى المدرسة يوميا دونما ملابس داخلية وبسترة تمزقت أطراف

أكمامها وامـتلأت منطقة الكوع فيها بالثقوب . كـان اليوم الذى عرض فيه روكى (البعرور) أفكاره على صاحبيه يوماً مشمساً من أيام العطلة بينما كان باسكوال ، عامل الطاحونة ، وأنطونيو (الحوصلة) يلعبان فى ملعب البولو .

- اسمع (بوم) ، لماذا لاتتـزوج سارة من (البيدق) ؟ - قـال (البعرور) فجأة .

ومرّت لحظة أحسّ دانييل فيهـا وكأن أبـواب السماء انفرجـت . فكيف لم تخطر هذه الفكرة البسيطة المناسبة على باله من قبل ؟ فأجاب :

- حقا لماذا لا يتزوجان ؟

وأضاف (البعرور) فى صوت منخفض :

- فلكى يتزوج اثنان يكـفى أن يتفـقا على أمـر من الأمـور ، وسـارة و (البيدق) يتفقان على أن أيا منهما لايطيق النظر الىّ ولو فى الصورة .

وبدأ (البعرور) لدانييل (البوم) مخلوقـاً ذكياً . لم يكن قادراً على تغيير نبرة التعجب فقد بدا له كل ذلك صحيحا تماما وباعثا على التأمل :

- حقاً .

وواصل (البعرور) كلامه قائلاً :

- تصـور وضعـى وأنا مع أبى فى البـيت وحيـدين بلا سـارة ، وفى المدرسة حـيث سيرعـانى دون مويسيس دائمـا لكونى شقيق زوجـته ، بل سيرعاكما لكونكما خير أصدقاء شقيق زوجته . أظن أن الصورة واضحة ؟ كان إصرار (البوم) يعكس حماسه الطاغى :

- بالطبع .

وكرر (الأقرع) وقد أصابته عدوى التعجب :

– بالطبع .

وهزّ (البعرور) متشككاً رأسه :

– ولكن المهم أن يكونا راغبين فى الزواج .

– ولماذا يمانعان ؟ – قال (البوم) . فمنذ عشر سنوات و (البيدق) يبحث عن امرأة . أما سارة فلن تمانع أن يغازلها رجل فأختك ليست جميلة .

– إنها قبيحة كالشيطان . أعرف ذلك . ولكن (الأرنبة) قبيحة هى الأخرى ؟

وسأل (الأقرع) :

– هل تؤمن سارة بالوساوس ؟

قال (البعرور) :

– على الإطلاق . فلو أن ذبابة سقطت فى اللبن لضحكت وقالت لها : «استعدى للرحلة» ثم تشربها مع اللبن وتعاود الضحك كأن شيئا لم يكن .

– وإذا ؟ – سأل (الأقرع) :

– الذبابة لن تضايقها من جديد لأنها شىء عابر ، ولكن الزواج مختلف – قال (البعرور) .

وظل الثلاثة صامتين هنيهة وبعدها قال دانييل (البوم) :

- لماذا لانرتب موعدا بينهما ؟

- كيف ؟ سأله (البعرور) .

ونط (البوم) نافضًا التراب عن ردفيه :

- تعالا معى وستريان .

خرج الأولاد من الملعب إلى الطريق العام . كان جواب صاحبهم يوحى بإثارة محمومة - سنكتب رسالة لـ (البيدق) عن لسان سارة ، أتفهمانى ؟ . أختك تخرج عصر كل يوم إلى الباب للتطلع إلى المارة . سنقول له إنها تنتظره . وعندما يذهب هو ويراها سيظن أنها تنتظره حقا .

وبدت على وجه روكى (البعرور) علامات التجهم والغضب ، وهو مايبدو عليه عادة عندما لايكون مقتنعا تماما :

- وأن تعرف (البيدق) على الخط ؟

- سنغيّره - تدخّل (الأقرع) مندفعاً .

وأضاف (البعرور) :

- وإن أطلع سارة على الرسالة ؟

وتروّى دانييل (البوم) قليلا :

- سنقول له أن يحرقها قبل أن يذهب للقاء سارة وألا يذكر لها شيئاً عنها إن هو أراد ألا تموت الفتاة حياء وشاء أن تعاود النظر إليه .

- فإن لم يحرقها ؟ - عاود (البعرور) السؤال .

- سيحرقها - قال (البـوم) . لأن (البيدق) المقرف يخشى ، وقد صار كهـلا ، أن يبقى دون زواج ، فضـلا عن أنه يعلم أن فمـه أعوج وأن هذا عيب فيه وأن النساء لايرغبن فى تقبيل رجل فى أذنيه كما قالت (الأرنبة) .

وأضاف (البعرور) وكأنه يكلم نفسه :

- إنه لن يرفض بسـبب ماجرى له من قـبل . فمازالت فـيه بقـية من الخوف منذ أن خيبت كاميلا أمله . معك حق .

كانت الثقة تنبعث فـى صدره العريض شيئا فشيئـا . فها هو يرى نفسه من دون سارة فى البـيت ومن دون تهديد مـسطرة (البيـدق) فى المدرسة ، متمتعا بالاستقلال الذى لم يعرفه من قبل ، قال :

- متى نكتب الرسالة إذا ؟

- الآن .

ودخلوا معمل الجبن ، وكانوا يقفون قبالته . وتناول (البوم) قلما وورقة وكتب بحروف كبيرة : «دون يسـيس . إن كنت فى حاجة إلى امرأة ، فأنا فى حاجـة إلى رجل . سأنتظرك الساعـة السابعة عند باب بيـتى . لاتذكر شيئا عن هذه الرسالة . أحرقها وإلا مُت من شدة الحياء وامتنعت من النظر إلى وجهك ثانية . تصنّع أنك التقيت بى صدفة . سارة» .

وحشـر جيـرمان (الأقـرع) الرسـالة سـاعة الغـداء مـن تحت باب بيت المعلم .

وفى السـاعـة السـابعـة إلا ربعـا دخل (الأقـرع) و (البـوم) إلى بيت (البعرور) لمراقبة الأحداث من كوة المتبن .

ومع أن الخطة كانت محكمة الإعداد فقد حدث ماهدد بإفشالها . كان (البعرور) عند وصولهما محبوساً كالعادة فى المتبن . وقدر دانييل أن (البيدق) الذى يبحث منذ عشر سنوات عن زوجة لن يتأخر دقيقة واحدة عن السابعة .

كان صوت سارة ينساب من فتحة السلم . ومع أن دانييل (البوم) كان سمع تلك الاسطوانة آلاف المرات ، فإنه لم يستطع تجنّب الإحساس بالرعشة :

- عندما تسمّر عيناى الزجاجيتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقا من الموت الوشيك . . .

ولابد أن (البعرور) كان يعرف أن الساعة تقترب من السابعة لأنه كان يرد بسرعة دون أن ينتظر انتهاء سارة من جملتها :

- رحماك يايسوع !

وتوقفت سارة عندما سمعت وقع خطوات (البوم) و (الأقرع) وهما يصعدان السلم .

- مرحبا سارة . - قال (البوم) متلهفا - اصفحى عن (البعرور) . إنه لن يعود إلى فعل ذلك .

- وما أدراك أيها الفضولى بما فعل ؟ - قالت .

- لابد أنه قام بفعل سئ . فأنت لا تعاقبينه أبداً دون سبب لأنك عادلة .

وتبسمت سارة راضية .

- انتظر لحظة - ثم استمرت على عجل متلهفة لبلوغ قمة عقابها .

- عندما أفقد حواسي ويختفى العالم من ناظرى وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت . . .

- رحماك يايسوع . سارة هل انتهيت ؟

وأغلقت هى كتاب الصلوات :

- نعم .

- هيا افتحى .

- هل اعتبرت ؟

- نعم سارة . لقد اخفتينى اليوم .

ونهضت سارة وفتحت باب المتبن وقد بدت عليها علامات الرضى . وبدأت بنزول السلم ببطء ، والتفتت عند الدرجة الأولى وقالت ، وقد اهتزت لهاجس غامض يلفها :

- حذار أن تخبثوا .

وخف (البعرور) و (البوم) و (الأقرع) صوب الكوة دون أن يتفوّهوا بشيء . وأزاح (البعرور) بيده نسيج عنكبوت ليطل على الشارع . وسأل (البوم) متلهفاً :

- هل خرجت ؟

- إنها تخرج الكرسى ولوازم الخياطة . . . إنها تجلس - واختنق صوته فجأة :

- (البيدق) قادم من ناحية الشارع . . .

وراح قلب (البوم) يرقص كالمجنون . إنه ليسرع أكثر مما كان عليه لحظة سماع صفارة القطار وهو يدخل النفق بينما هو بالانتظار من دون سروال . كما أنه ليسرع أكثر مما كان عليه عندما سألت أمه أباه مستغربة إن كان الدوق الكبير قد حلّ عليهم ضيفاً كريماً . أما حادثة اليوم فإنها أكثر تأثيراً وأهم من كل ذلك . ووضع (البوم) وجهه بين وجهى صاحبيه ورأى دون مويسيس يتوقف قبالة سارة وقد أمال جسمه قليلا ووضع يديه خلف ظهره . كان يغمز لها بإحدى عينيه ويبتسم لها فارجا فمه من ناحيته اليسرى حتى أذنه ، أما سارة فكانت تنظر إليه مستغربة ثم مضطربة لكثرة غمزاته وابتساماته الجانبية . وتمتمت :

- مساء الخير ، دون مويسيس . ماذا جرى ؟

وعندها جلس على الدكة الحجرية إلى جانبها وعاود سلسلة الإيماءات السريعة بفمه للتعبير عن سعادته .

كانت سارة تراقبه مستغربة . قال :

- ها أنا ذا أيتها الصغيرة . لم أتخلف عن الموعد ، أليس كذلك ؟ أما عن بقية الأمور فلن أنطق بكلمة . لا تقلقى .

كان المعلم يجيد الكلام . وإذا لم يوجد فى البلدة اتفاق على أفضل المتكلمين فقد كان هناك اتفاق على أن المرشحين هم دون خوسيه القس ودون مويسيس ودون رامون العمدة . وأربك صوت (البيدق) العذب الغريب ولغته الغامضة التى كان تستعملها الفتاة . فسألته :

- هل . . . جرى لك اليوم شيء دون مويسيس ؟

ولم يرد عليها ، بل عاود الغمز ليوحى لها بالتفاهم والمواطأة .

.

وهناك فى كوة المتبن همس (البعرور) فى أذن (البوم) :

- ياله من خنزير مهذار . إنه يتكلم عما لايجب الحديث عنه .

- اسكت .

وانحنى (البيدق) فى هذه اللحظة نحو سارة وأخذ يدها بجرأة :

- إن أشد ما يعجبنى فى النساء هى الصراحة ياسارة ، فشكرا لك . أنا وأنت لسنا بحاجة إلى لف ولا إلى دوران .

واحمّر وجه الفتاة بما فاق حمرة شعرها . وسحبت يدها من يده لما رأت (الفطساء) تقترب وهى تحمل جرة الماء على كتفها . مع ذلك فقد قالت وهى فى نشوة لذيذة مكتومة :

- دون مويسيس ، سألتك الله ، فقد يرانا أحد .

أما الأولاد الثلاثة فكانوا فى كوة المتبن يبتسمون ببلادة دون أن يتبادلوا النظرات . وعندما طوت (الفطساء) عطفة الشارع عاود (البيدق) نشاطه :

- هل تريدين أن أساعدك فى خياطة هذا ؟ - قال .

وأمسك بيديها كلتيهما هذه المرة . وتنازعا . وأخفت سارة القطعة التى كانت تخيطها دونما إرادة بعد أن ضايقها فرط الخجل . ودمدمت :

- أبعد يديك ، دون مويسيس .

وضحك (البعرور) من مكمنه بصوت خافت :

- خى . . . خى . . . خى . . . إنه سروال داخلى .

وضحك صاحباه كذلك . ولم يفلح اضطراب سارة وغيظها الظاهر فى إخفـاء تلذذها الجارف . وعندها بدأ (البيـدق) يسمعهـا كلاما جمـيلا عن عينيها وعن فمها وعن شعـرها دون توقف ودون أن يمنحها فرصة لالتقاط أنفاسها . ومن بعد فـرسخ كان يلاحظ أن قلب سارة البكر ، المحروم من تذوق طعم الغـزل ، كان يذوب كـما الثلج تحت حـرارة الشمس . وبـعد انتهائه من ترتيل سلسلة كلمات الغزل راح المعلم ينظر عن كثب ويحدق فى سارة . ثم قال :

- هل تعلمين الآن كيف هى عيناك أيتها الصغيرة ؟

وضحكت هى ببلادة :

- ما أظرف كلامك دون مويسيس .

وعـاود هو الكرّة . كان يـلاحظ أن سارة كـانت تتـجنب الكلام لكى لاتخيب بعباراتهـا السوقية ظن (البيدق) فيـها ، وهو الذى يعد بين أفضل المتكلمـين فى البلدة . ولابد أنها كـانت تحاول أن تتذكـر شيـئاً من الكلام الجميل الـذى كانت قرأته . كلاماً رفـيعاً وشاعـرياً ، ولكن ما خطر على بالها كان هو ذاته الذى طالما رددته :

- عيونى . . . عيونى . . . زجاجـية جاحظة ، دون مويسيس - قالت وهى تطلق ضحكات قصيرة ومنفعلة .

وبدت الفتاة عـلى أفضل حال . لم تكن سارة ذكيـة . كانت تظن أن تلك النعوت ، لمجرد ورودها فى الكتب ، هى مما يناسب الملائكة أكثر من مناسبتها لبنى البشر ، لذلك فقد بدت مرتاحة . وفسرت علامة الاستغراب التى ارتسمت موجزة على وجه المعلم بأنها دليل على أنه فوجئ عندما تبين

له أنها ليست جـاهلة فظة كما تصورها . أما (البعرور) فـتساءل من مكانه المرتفع :

- لابد أن سارة تفوهت بحماقة . أليس كذلك ؟

وشرح (البوم) قائلا :

- العيون الزجاجية الجاحظة هى عيون الموتى .

وشعر (البعـرور) رغبة فى إلقاء حجر على رأس أخـته . مع ذلك فقد ابتـسم (البيـدق) من جانب أذنه اليـمنى بعد صـحوته من ذهوله العـابر . لاشك أنه فى حاجة شديدة إلى امـرأة ، وإلا لما أجاز دونما اعتراض ودونما تعليق ماتـفوهت به الفتـاة . وعاد إلى المغازلة بـحماس أشـد ، وبعد ربع ساعة كانت سارة كالبلهاء وقد توردت وجنتاها وضاعت نظراتها فى الفضاء فكأنها تمشى فى نومها . وأراد (البيدق) أن يضمن المرأة التى يحتاجها :

- أحبك سارة . أتعلـمين ذلك ؟ وسأبقى أحبك حتى نـهاية العالم . سآتى لرؤيتك كل يوم فـى هذه الساعة . قولـى أنت - وضغط على يدها بعاطفة جياشة - هل ستحبيننى دائماً ؟

ونظرت إليه سارة مذهولة . وراحت الكلمات تجرى على لسانها بطلاقة غريبة ، فكأنها ليست هى ، وكأن غيرها كان يتكلم بلساتها من داخلها .

- سأحبك ، دون مويسيس ، - قالت - حـتى أفقد حواسى ويختفى العالم فى ناظرى وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت .

- هكذا قال المعـلم منشرحاً . وضـغط على يديها وغـمز لهـا مرتين وانفرج فمه أربع مرات حـتى أذنه ثم انصرف ، وقبل أن يصل إلى النـاحية التفت إليها عدة مرات مبتسماً بانفعال .

وهكذا أصبح (البيدق) وسارة خطيبين ، ولكنهما لم يراعيا دانييل (البوم) ، إذا أخذنا بالحسبان الدور الذى لعبه فى أن يبلغا التفاهم . لقد دامت الخطوبة عاماً ونصف العام ، وهاهما يحددان موعد الزواج فى الثانى من نوفمبر وهو «يوم الأرواح المباركة» بينما يستعد (البوم) للرحيل إلى المدينة لكى يبدأ التقدم . اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لم يوافق هو الآخر على موعد الزواج وقال :

- الرجال الذين يبحثون عن زوجة يتزوجون فى الربيع ، أما الذين يبحثون عن خادمة فإنهم يتزوجون فى الشتاء قاعدة لاتقبل الخطأ .

وفى ليلة الميلاد التالى كانت سارة منشرحة جداً . لقد تحسّن طبعها كثيراً منذ أن خطبها (البيدق) ، فلم تحبس (البعرور) فى المتبن لتتلو عليه نصائح الروح سوى مرتين ، وفى ذلك شىء من الربح ، فضلا عن أنه صار ينال درجات أعلى فى المدرسة ولم يضطر من ساعتها إلى رفع «التأريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة فوق مستوى الرأس . أما دانييل (البوم) فلم يخرج من ذلك كله إلا بالقليل .

كان أحيانا يلوم نفسه على ضلوعه بالعملية ، أفليس من الأفضل له أن يرفع «التأريخ المقدس» و (البعرور) إلى جانبه يرفع آخر مثله من أن يضطر إلى حمله من دون صحبة ؟

وفى يوم الميلاد سألت سارة أخاها (البعرور) بينما كانت تقلب الدجاجة فى الفرن ، وكانت سعيدة منشرحة :

- قل لى روكى ، هل قمت أنت بكتابة رسالة إلى المعلم تخبره فيها أننى أحبه ؟

- كلا سارة ، كلا .

- هل أنت متأكد ؟

- أقسم لك سارة .

ورفعت أصبعها الذى لفحته النار إلى فمها ، وعندما أخرجته قالت :

- كنت أحسب ذلك . ولو أنك قمت بتلك الفعلة لكانت خير ما فعلت فى حياتك . هيا انصرف من هنا أيها الماكر .



الفصل السادس عشر

كان دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، يستخدم من على المنبر كل ضروب الإقناع ، فيعصر قبضتيه ويرفع عقيرته ويعنف فتتصبب جبهته وعنقه عرقا وينتف شعراته البيض القليلة ويتجوّل بين المقاعد رافعا أصبع الاتهام ، بل لقد شق فى إحدى المرات عباءته طولا فى واحد من أكثر المشاهد إثارة وعنفا فى تاريخ الوادى . مع ذلك فما كان الناس ، والرجال منهم خصوصا ، يعيرونه اهتماما كبيرا . كانوا يستحسنون الصلاة ، لكنهم ، حين يبدأ الموعظة ، يقلبون الوجوه ويقطبون الجباه . إن تعاليم الرب لاتأمر بالاستماع كل أحد وكل عيد إلى موعظة مطولة . فالقس كان يبالغ إذاً فى تطبيق شريعة الرب . يقولون إنه يحاول أن يكون بابوياً أكثر من البابا ، وليس هذا بالتصرف المطلوب من راهب ، ولاسيما إذا كان من قدر دون خوسيه المفرط فى ورعه والعالم بنقاط الضعف لدى الرجال . كان فى رجال الوادى شيء من التجهم والبؤس ، غير أن روحاً رياضية صادقة فيهم كانت تضفى عليهم مسحة إنسانية واضحة . كان منتقدو خطابة دون خوسيه يقولون إنه لايمكن وصف رجل لايكف عن ترديد عبارة «فى الواقع» بأنه فصيح . ولكن لماذا لايمكن أن يكون فصيحاً من لايكف عن ترديد عبارة «فى الواقع» ؟ الأمران ، فى رأى (البوم) ، غير متنافرين ، ولكن بعض الناس لايفهمون الأمر هكذا ، وهم إذا حضروا خطبة دون خوسيه ، فلكى يتراهنوا على عدد المرات التى ينطق فيها بعبارة «فى الواقع» من على المنبر : أهو عدد زوجى أم فردى ؟ كانت (الفلفلة) الكبرى تؤكد أن القس يردد هذه العبارة متعمدا ، وأنه يعلم أن الرجال اعتادوا المراهنة أثناء خطبه على العدد الزوجى أو الفردى ، مع ذلك فإنه يفضل الاستمرار

فى ذلك لأنهم ، وإن لم يستمعوا إليه ، فلابـد أن شيئا ما سيعلق بأذهانهم بين «فى الواقع» و «فى الواقع» ، وبخلافـه فإنه يغامر بتـركهم يفكرون فى أثناء الخطبة فى العشب والمطر والذرة والبـقر ، وسيكون ذلك شرا لايرتجى له صلاح .

كان سكان الوادى أناسا ذوى نزعة فردانية متأصلة ، وماكان دون رامون العمدة يبالغ عندما يقول إن كل فـرد فى البلدة ليموت قبل أن يحرك ساكناً خدمة للآخرين . الناس يعيشون فى عزلة ولاتهمهم إلا أنفسهم . والحقيقة إن هذه النزعة القـوية لاتنحسر إلا عـصر أيام الأحد عند الغـروب ، حين يلتقى الفتـيان والفتيات ويذهـبون إلى الحقول أو الغابات ، وحـين ينحشر الشـيوخ فى الحـانات للتدخـين أو للشرب . وهذه هى المصـيبـة ، لأنهم لايتخلون عن تلك النزعة الفردانية إلا إرضاءً لملذاتهم الدنيوية .

وحمل دون خـوسيـه ذات صباح على أولئـك الفتيـة والفتـيات الذين ينسلون إلى الحـقول والغـابات أيام الأحد سـاعة الغـروب ، وعلى اللائى يتزاحمن فى حلقات الرقص وعلى الذين يسكرون ويقامرون حتى بشعورهم فى حانة الجـانو وعلى كل من يحصـد القت أو يحفر البـطاطس أو يمشط حقول الذرة أيام الأعياد . إنه اليوم الذى احتد فيه دون خوسيه وشق عباءته طولا . إنه اليوم الذى كشف فـيه الجميع ، فالذين لايمـضون عطلتهم أو احتفالاتهم فى الحقول والغـابات ، والذين لايتزاحمون فى حلقات الرقص أو السكر أو اللعب فى الحانة ، والذين لاينفقون أعـيادهم فى حصاد القت أو حفر البطاطس قليلون ويعدون على أصابع اليد الواحدة . لقد أكد القس قائلا : «إن أناسا قليلين ، فى الـواقع ، سيقفون يوم الحسـاب على ميمنة الرب إذا لم تصلح التقاليد السائدة جذرياً .

وزار وفد تراسه (الفلفلة) الكبرى القس فى مقر إقامته فى الكنيسة عقب انتهاء الصلاة :

- أخبرنا ، حضرة القس ، إن كان فى أيدينا تبديل هذه العادات الفاسدة ؟ - قالت (الفلفلة) .

وتنحنح الراهب العجوز وقد بدا عليه أنه فوجئ ، فما كان ينتظر أن يكون رد الفعل سريعا إلى هذا الحد . وتفحص تباعا تلك الوجوه القريبة من الرب وتنحنح من جديد كسباً للوقت ثم قال :

- فى أيديكن ، بناتى ، إن أردتن ذلك .

وفى فناء الكنيسة كان أنطونيو (الحوصلة) يسدد لأندريس الاسكافى بيزتتين لأن دون خوسيه نطق بعبارة «فى الواقع» أربعا وأربعين مرة بينما راهن هو على عدد فردى .

وأضاف دون خوسيه فى مكتبه :

- فى إمكاننا أن نقيم مركزا يلهو فيه الشباب دون أن يغضبوا الرب . فإن توفرت الإرادة الخيرة فلن يكون ذلك صعبا : قاعة كبيرة تحتوى على كل أنواع التسلية . وفى الساعة السادسة من أمسيات الأحد والأعياد نستطيع عرض فيلم سينمائى . سنقتصر بالطبع على عرض الأفلام الأخلاقية والدينية الصرف .

وصفقت (الفلفلة) الكبرى وقالت متحمسة :

- المكان يمكن أن يكون اسطبل بالجو فما عادت لديه أغنام ، وهو يريد بيع الاسطبل . فى إمكاننا أن نستأجر المكان ، دون خوسيه .

وتدخلت كاتالينا (الأرنبة) :

- لكن هذا الكافر لن يترك لنا الاسطبل ، ياحضرة القس . إنه مكار ملحد ، وأنه ليفضل الموت على أن يتركنا نستخدم الاسطبل لأغراضنا المقدسة .

وكان دانييل (البوم) ، الذى شارك فى إقامة القداس ، يستمع وقد فغر فاه لحديث دون خوسيه مع النسوة . وعزم على الانصراف ، ولكن فكرة إقامة دار للسينما فى البلدة أوقفته . وقال دون خوسيه محاولا تهدئة (الأرنبة) :

- لاتصدرى أحكاما متهورة يا بنية . فليس باجو فى داخله رجلا سيئا .

وانتفضت (الفلفلة) الكبرى كالملدوغة :

- أبتاه . وهل يمكن أن يكون الإنسان طيبا وهو غير مؤمن ؟

أما (الأرنبة) كاميلا فقد نفخت صدرها العظيم وقالت مقاطعة :

- إن باجو على استعداد لبيع نفسه للشيطان مقابل بيزيتة واحدة . إننى واثقة من ذلك .

وتدخلت ريتا (البلهاء) زوجة الاسكافى منفعلة :

- بل لقد وهبه إياها هذا المكار ، فليس الشيطان مضطرا إلى أن يعطيه ولا حتى ريالين ثمنا لها . كلنا نعرف ذلك .

وأخيرا قال دون خوسيه كلمته ، فألف لجنة ترأسها (الفلفلة) الكبرى للسعى لدى باجو (الملحد) وللذهاب إلى المدينة لشراء جهاز عرض

سينمائى . وبدا القرار رائعا للجميع ، وأعلن ، بعد انتهائه من كلمته ، أن صدقات الشهرين القادمين ستخصص لشراء عباءة جديدة للراهب . وأيد الجميع الفكرة ، وبادرت (الفلفلة) فبدأت حملة التبرعات بمبلغ قدره دورو واحد .

بعد ثلاثة أشهر تحول اسطبل بالجو (الملحد) ، وقد صبغ وطهر ، إلى دار للسينما . ولاقى العرض الأول نجاحا كبيرا فلم يبق فى الجبال وفى الغابات غير متمردين اثنين . ولكن المشكلة ظهرت بعد أسبوعين ، فالأفلام الكاثوليكية الخالصة قليلة . فخففت القيود بعض الشىء وظهرت الحاجة إلى السماح بعرض بعض السفاهات . وصار دون خوسيه القس يعلل نفسه بمبدأ أهون الشرين ، كالغريق الذى يتشبث بلوحة النجاة . كان يقول :

- إن يكونوا مجموعين هنا أفضل من أن يتغازلوا فى الحقول .

ومرّ شهر آخر ازدادت فيه الأفلام المرسلة من المدينة تفاهة . ثم إن الفتيان والفتيات الذين كانوا من قبل يذهبون إلى الغابات عند حلول الظلام صاروا يستغلون ظلمة الصالة ليتغازلوا بوقاحة وقلة أدب . وأنيرت الصالة ذات مساء أثناء العرض فشوهد باسكوالون ، عامل الطاحونة ، وقد أجلس صديقته على ركبتيه . وراحت الأمور تتدهور فاستدعى القس اللجنة إلى بيته فى نهاية شهر نوفمبر :

- يجب اتخاذ إجراءات سريعة . فلا الأفلام عادت ، فى الواقع ، أخلاقية ، ولا المتفرجون ملتزمين بالرصانة واللياقة . لقد وقعنا أسرى ما كافحناه .

- لنضع أضواء فى الصالة ولنمارس رقابة صارمة على الأفلام - قالت (الفلفلة) الكبرى .

وبعد مناقشات طويلة أجيزت مقترحات (الفلفلة) . وشكلت لجنة رقابة مؤلفة من دون خوسيه القس و(الفلفلة) الكبرى وترينو السادن . كان الثلاثة يجتمعون أيام السبت فى الاسطبل لمشاهدة الفيلم المقرر عرضه فى اليوم التالى .

وأوقفوا الفيلم ذات مساء فى لقطة مشكوك فيها :

- ألا ترى ، دون خوسيه ، أن هذه السافلة تبالغ فى الكشف عن ساقيها ؟ - قالت (الفلفلة) .

- هذا ما بدا لى - قال القس .

ولما التفت إلى ترينو السادن وجده يتطلع إلى صورة الممثلة بعينين مفتوحتين وفم فاغر فحذره قائلا :

- ترينو . إما أن تترك التطلع هكذا أو أن أعزلك من اللجنة .

كان ترينو رجلا مسكينا بلا رأى ولا إرادة ، وكان ذا نظرة رقيقة ندية ومن دون ذقن مما يضفى على وجهه تعبيرا ينم عن بلادة وغفلة . وكانت تلك البلادة تزداد وضوحا عندما يمشى ، إذ يبدو وكأن كل خطوة يخطوها تكلفه كمية الهواء التى يحتاجها جسمه .

بالطبع فإن كل إنسان ينفع فى شىء ، حتى أكثر الناس سذاجة . أما ترينو السادن فكان عازفا بارعا على الأرغن .

وإزاء توبيخ الراهب خفض ترينو عينيه وابتسم ببلاهة مغتماً . إن القس على حق ولكن ، مــاأروع ساقى المرأة التى تظهــر فى الفيلم ، ســاقان من تلك التى لاتشاهد عادة بين الناس .

وبدا لدون خــوسيــه أن الصعــوبات تزداد يومــا بعد يوم . وصــار من الصعب الوقــوف فى وجه الرغبات الغــريزية للوادى كله . فترينو نفــسه ، وهو الرقيب والسادن ، اقترف خطيئة الرغبة والتفكير فى تلك النسوة اللاتى يكشفن بمجون فاضح عن سيقانهن فى الشاشة . إنها لمهمة شاقة عليه وهو الرجل المسن المتعب .

وقابل أهل البلدة الإنارة الموزعة فى أرجاء الصالة أثناء العرض محتجين بالصفــير ، فى اليــوم الأول ، وبالكسر ، فى اليــوم الثانى ، بأن قــذفوها بالبطاطس . واجتمعت اللجنة من جديد : يجب أن تكون الأضواء حمراء اللون كى لاتؤذى النظر . ولكن الناس تجادلوا حينها حول المشاهد المقطوعة ، وكان باسكوالون ، عامل الطاحونة ، أول من بدأ التمرد :

- ياسيــدة لولا إن منع ظهور الســيقان والقــبل فليــس للسيــنما عندى معنى .

وأيده آخرون :

- إما أن تعرضوا الأفلام دون قطع أو نعود إلى الغابات .

وعاودت اللجنة الاجتماع ، وكان دون خوسيه منفعلاً جداً :

- انتهى أمر الســينما وانتهى كل شىء . أقتــرح على اللجنة أن تعرض الجهاز للبيع على بلديات المناطق المجاورة .

وصاحت (الفلفلة) :

- ولكننا سنبيع ماكاد أن يكون خطيئة ، دون خوسيه .

وطأطأ الراهب رأسه مغموما . فـ (الفلفلة) محقة فى كلامها . بل إنها أكثر من محقة هذه المرة ، لأن بيع الآلة السينمائية يعنى المتاجرة بالخطيئة .

- سنحرقها إذا - قال متجهما .

وأحرق جهاز العرض فى اليوم التالى بحضور أعضاء اللجنة الذين اجتمعوا فى زريبة بيت الراهب . وقريبا من رماده أعلنت (الفلفلة) الكبرى ، فى ذروة حماستها التفتيشية ، عن ولائها للأخلاق وعزمها الأكيد على عدم الرضوخ حتى تسود الأخلاق فى الوادى . قالت وهى تودع القس :

- دون خوسيه ، سأواصل كفاحى ضد الفساد . صدّقنى . أنا أعرف كيف أحاربه .

وفى الأحد اللاحق حملت عند الغروب مصباحاً يدوياً وخرجت بمفردها تطوف فى الحقول والجبال . ووجدت خلف أكوام العوسيج المعزولة الكثيفة عاشقين يتغازلان . وسلطت حزمة الضوء على الوجهين المرتبكين :

- باسكوالون وألينا . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

ماكانت تقول أكثر من ذلك ثم تنسحب . وهكذا طافت دون كلل وهى تردد تحذيرها المروع :

- فلان وفلانة . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

وكانت تقول فى نفسها : «مادامت ضمائرهم غائبة ، فسأحل أنا مكانها» .

وهكذا حملت على عاتقها تلك المهمة الشاقة التى لم تكن تخلو ، مع ذلك ، من متعة . واحتمل شباب البلدة الثلاثة آحاد متتالية تدخل (الفلفلة) فى شئونهم ، ولكنهم تحركوا فى الأسبوع الرابع : أحاطوا بها فى أحد الحقول ورأى فريق أن تضرب ، ورأى فريق آخر أن تجرد من ملابسها وأن تترك فى رطوبة الليل مربوطة إلى جذع شجرة . ولكن فريقا ثالثا فرض رأيه بالإلقاء بها فى النهر على رأسها . وسقط المصباح من يد (الفلفلة) المرتاعة التى استعدت للدخول فى قوائم شهداء المسيحية الطويلة ، وإن بكت بين حين وحين وطلبت بين شهقة وأخرى قليلا من الرحمة .

وقادوها وهى تصرخ وتشتم إلى الجسر حيث يصب النهر بشدة فى بركة الانكليزى .

كان يخيم على ليل الوادى جو كئيب قاتم . وبدا الحشد وكأن به مسا ، وبدا كل شئ معدا لقدره المحتوم ، وصارت (الفلفلة) تصلى فى ذهنها صلاة التوبة .

ولكن (الفلفلة) لم تبت ليلتها تلك فى قاع النهر بفضل كينو (الأقطع) على الرغم من أنها قالت فى حقه وحق المرحومة ماريوكا إنهما أكلا الطبيخ قبل الثانية عشرة ، إذ يبدو أن (الأقطع) كان لايزال فى صدره بقية من حمية وجذوة من مروءة متوهجة . فلقد حال بين الشبان و (الفلفلة) ودافع عنها دفاع الرجال حتى بلغ به الغضب مبلغه فلوح بفضلة يده المقطوعة فى الهواء فبدت مثل سارية علم منكس . أما الفتيان فقد بدا لهم ، وقد هدأت سورة غضبهم أثناء الطريق ، أن يكتفوا بما بثوه فى قلبها من رعب ، وانسحبوا .

وبقيت (الفلفلة) وحـيدة ، وجهاً لوجه مع (الأقـطع) . ماكانت تدرى ماتفـعل . كان الوضع صعـبا بالنسبـة إليها . وأطلقت ضـحكة واعدة ثم بدأت تنظر إلى أطراف قدميها . وعاودت الضحك ثم قالت :

- حسنا .

وأخيـرا ، ودون أن تعى جيـداً ماتفعـل ، انحنت وقبّلت بقـوة فضلة طرف كينو . ثم انطلقت راكضة خائفة نحو أعلى الطريق العام كالمجنونة .

وفى اليـوم التالى اتجهت (الـفلفلة) الكبرى إلى كـرسى الاعتـراف قبل الصلاة :

- السـلام عليك يا مريم الطاهرة . أبتاه .

- يامن ولدت دون خطيئة . بنيتى .

- أبتاه إننى أتهم نفـسى . . . أتهم نفسى بأننى قبلت رجـلا فى ظلمة الليل .

ورسم دون خوسيـه علامة الصليب على صدره وربع عـينيه إلى سقف كرسى الاعتراف مستسلما :

- تعاليت أيها الرب . - غمغم وأحس بألم شديد لحال تلك البلدة .

الفصل السابع عشر

إن غفر دانييل (البوم) للفلفلة كل شئ فإنه لن يغفر لها حادثة فرقة الإنشاد ، لن يغفر لها تلك الطريقة القاسية التى فضح بها أمام أنظار جميع أهل البلدة بعد أن اقتنعت بافتقاره للوضوح فى جنسه . إنه لن يغفر لها ذلك وإن عاش ألف سنة .

كانت تلك الحادثة وصمة عار ، بل كانت أكبر إهانة يمكن أن تلحق برجل . وكان لابد له ، بإزاء تلك التهمة المعيبة ، من إجراءات مضادة للبرهنة على رجولته التى لاجدال حولها .

كان مع أولاد المدرسة وبناتها فى الكنيسة ينتظرون ، وكان ترينو السادن ساعة وصولهم ينتزع من الأرغن نوتاته الحادة المتأوهة . ووقفت كذلك (الفلفلة) المقرفة وهى تحمل عصا ، ثم مالبثت أن اتخذت هيئة المديرة المشرفة . فصفت التلامذة لدى دخولهم حسب الطول ثم رفعت العصا فوق رأسها وقالت :

- هيا . أريد أن أتمرن معكم على نشيد «الراعية الإلهية» كى ننشده فى يوم العذراء . فلنتدرب .

وأشارت إلى ترينو ثم خفضت العصا ، وغنى الأولاد والبنات كل على هواه :

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

وعندما بدأت الأصوات الاثنان والأربعون بالإنشاد أبدت (الفلفلة) الكبرى إيماءة يأس مضحكة وقالت :

- كفى . . . كفى . ليس هكذا . ليس «را» بل «راااا» وأنشدت :

أيتها الرااااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااء آثارك .

هيّا .

وضربت على غطاء الأرغن بالعصا لينتبه إليها الجميع ثانية . واهتزت جدران المعبد للنبرات الطفولية الحادة . ولكن (الفلفلة) أبدت من جديد استياءها وخاطبت (البعرور) مشيرة إليه بالعصا :

- روكى . بإمكانك الانصراف . لا أحتاجك . ولكن ، متى تغير صوتك ؟

وخفض (البعرور) رأسه :

- ومأدراني أنا . يقول أبى إننى كنت أناغى بصوت رجل منذ ولادتى .

ومع أن (البعرور) قال ذلك وهو مطأطئ الرأس ، إلا أنه قال ماقال متبجحا ، فالرجل الحقيقى عنده هو من تحددت رجولته منذ ولادته .

وقابل المتفوقون فى الدراسة رده بضحكات متعالية ، بينما نظرت البنات إليه بإعجاب كبير . واستغنت السيدة لولا ، بعد تمرين آخر ، عن ولدين آخرين كانا ينشزان ، وبعد ساعة من الوقت أبعد من الفرقة جيرمان (الأقرع) لأنه صوته كان يمر فى مرحلة تحول وانتقال ، ولأن (الفلفلة) كانت «تريد تشكيل فرقة من أصوات حادة وحسب» . وفكر دانييل (البوم) فى مكانه بين أعضاء الفرقة وتمنى مخلصا أن يبعد هو الآخر عنها . إنه لايريد أن يكون له صوت حاد رفيع كصوت النساء أو كصوت الأطفال . ولكن تمارين اليوم الأول انتهت دون أن تقرر (الفلفلة) الاستغناء عنه . وعادوا فى اليوم الثانى ولكنها لم تستغن عنه كذلك . كان الوضع يزداد سوءا لأن البقاء فى الفرقة كل هذا الوقت يشكل وصمة عار ، إنه ضرب من التشكيك برجولة المرء ، ولأن دانييل (البوم) يحسب للرجولة حسابها ، فإنه لايستطيع تجاهل ذلك الانتقاء . ولكنه بقى عضوا فى الفرقة على الرغم من أمنياته وعلى الرغم من أن الفرقة خلت إلا منه ومن خمسة ذكور سواه . وتلك كانت الكارثة . وقالت (الفلفلة) الكبرى فى اليوم الرابع وعلامات الرضى بادية عليها :

- لقد تمت عملية الاختيار . وبقيتم أنتم أصحاب الأصوات الصافية : خمس عشرة بنتا وستة أولاد . وأرجو - وتوجهت بالكلام للذكور الستة - ألا يغير أى منكم صوته من الآن حتى يوم العذراء .

وابتسم الأولاد والبنات فخورين بامتلاك «أصوات صافية» ، إلا دانييل (البوم) الذى لم يفلح فى إخفاء خيبة أمله ، ولكن (الفلفلة) ضربت فى تلك اللحظة على غطاء الأرغن لتنبيه ترينو السادن بينما راحت الأصوات الصافية الإحدى والعشرون تشيع فى المكان صلوات العذراء :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااء آثارك .

كان دانييل يعرف ماذا سيقع ذلك المساء عند الخروج من الكنيسة . كان الأولاد المبعدون من الفرقة ، يرأسهم روكى (البعرور) ، ينتظرون فى الباحة ، وما إن شاهدوا الأصوات الصافية الستة يخرجون حتى تحلقوا حولهم وراحوا يصرخون مرددين ساخطين :

- يابنات ، يامخنثون . يابنات ، يامخنثون . . .

ولم يجد نفعا تدخل (الفلفلة) ولا جهود ترينو المتواضعة وهو السادن العجوز ، كما لم تنفع فى شىء نظرات دانييل المتوسلة إلى صديقه (البعرور) لقد نسى هذا حتى أبسط قواعد الصداقة ، فقد كان يفور فى أعماقه وأعماق مجموعته الباغية غيظ متفجر سببه إبعادهم من الفرقة التى ستنشد فى يوم العذراء . ولكن لا أهمية لذلك فى الوقت الحاضر ، مايهم إنقاذه الآن هى رجولة دانييل (البوم) التى بدت موضع شك. وخطرت له ، وهو يهم بالنوم فكرة : لماذا لايغير صوته وهو ينشد «الراعية الإلهية» وهكذا ستبعده (الفلفلة) كما فعلت مع (البعرور) و (الأقرع) ؟. والحق أن أكثر ماكان يؤلمه هو استبعاد هذا الأخير . فـ (البعرور) متقدم عليه دائما . أما (الأقرع) فالأمر مختلف . وكيف له أن يحافظ على مرتبته ومقامه إزاء فتى يمتلك صوتا أقوى من صوته ؟ لابد من تغيير صوته للخروج من الفرقة قبل حلول عيد العذراء .

مع بداية التمــارين فى اليوم التالى ، تـنحنح دانييل (البوم) باحـثا عن نغمة مـفتعلة فى صوته وضربت (الفلفلة) عـلى الأرغن بطرف العصا وبدأ النشيد :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

ورا . . .

ولكنها توقفت فجأة . قطبت أنفها الطويل فكأن رائحة كريهة ضايقته . ثم قطبت جبينها فكأنهــا اكتشفت شيئا ما لايتفق مع مــاكانت تأمله ، شيئا تعجــز عن تحديد مصــدره . ولكنهــا عند التمرين الثـانــى صـوبت العصـا نحو (البوم) وقالت محتدة :

- عجبا لك دانييل . لاتفخم صوتك وإلا لطمتك .

لقد افتضح أمــره . واحمر وجهه لمجرد التفكـير أن الآخرين قد يظنون أنه يحـاول أن يكون رجلا بالغش والخـداع . إنه غيـر محتـاج أن يتظاهر بذلك لإثبات رجولته ، وهو ماسيبرهن عليه فى أقرب مناسبة .

وأحاط بهــم فريق الأصوات غـير الصــافيــة من جديد عند خــروجهم ورددوا مع روكى (البعرور) :

- يابنات ، يامخنثون . . . يابنات ، يامخنثون .

كان دانيــيل (البوم) يحس برغبــة فى البكاء ، ولكنه كظم رغبــته تلك مقدرا أن رجولته المترنحة ستنهار إذا مابكى أمام فريق الناقمين من أصحاب «الأصوات غير الصافية» .

وجـاء يوم العذراء . وفكر (البـوم) لدى استـيقـاظه ذلك الصبـاح أن امتلاك صوت رفيع فى سن العـاشرة ليس بالأمر الباعث على اليأس . وأن أمامه وقـتا طويلا لتغييره ، وعليـه فلا حق له فى أن يشعر بالحزن وخـيبة الأمل .

كانت الشمس تتـسلل إلى غرفته عـبر النافذة ، بينما بدت قـمة الجبل (راندو) أكثر ارتفاعا وأشد جلالا ومهابة . وكانت تصل إلى مسامعه فرقعة الألعاب النارية وأنغـام الموسيقى الصاخبـة المنشزة نزولا من العقبـة . بينما كانت تسـمع من بعيد دقـات الناقوس يضربه دون انطونينو (الماركـيز) وهو يدعو للصلاة الكبـرى . لقد وضع (البوم) عند نهاية السـرير بدلته الجديدة مكوية وقميصا أبيض غسل بعناية مازالت رائحة النيل والصابون تنبعث منه . كلا ، فليـست الحياة حـزينة . إنه يستطيع الآن ، وقـد أسند مرفقـيه إلى النافذة ، أن يلمس ذلك . إنه لايشـعر بالحزن وأن توجب عليه بعـد ساعة أن ينشد «الراعـية الآلهية» مع مـجموعة «الأصـوات الصافية» إنه لايشـعر بالحزن وإن دعاهم أصـحاب «الأصوات غير الصافـية» عند الخروج بالبنات والمخنثين .

. .

ثمة غـبار مذهب نبـاتى غزير يلف أرجاء الوادى العـريضة المترامـية ، ويشيع فى أجـوائه رائحة الحقـول الندية وإن أنذر سكون الهواء بيـوم قائظ شديد الحـرارة . كان هناك شـحرور يقف على شـجرة التـفاح القـريبة من النافذة ، يزقزق ويطير من غـصن إلى آخر . الفرقة الموسيقيـة الصاخبة تمر الآن فى الطريق العـام متجـهة صوب النهـر وحانة كينو (الأقـطع) تتبعـها مجموعـة من الصبية وهم يصرخون ويؤدون حركـات بهلوانية فى الهواء . واستتر دانييل (البوم) مصطنعا الانشغال لأن جميع أولئك الصبيان تقريبا هم من مجموعة «الأصوات غير الصافية» .

واستعد (البوم) فى الحال للذهاب إلـى القداس . كانت الشموع تتلألأ من على المذبح . وكانت النسوة يرتدين الملابس الملونة المزركـشة . وصعد دانييل (البوم) إلى حيث كانت الفرقة . ونظـر من مكانه متفحصا إلى عينى العـذراء . كان دون خـوسيـه يقول إن العـذراء تنظر أحـيانا إلى الأطفـال الطيبين . وبدا لدانييل ، ربما بسبب اهتزاز الضوء المنبعث من الشموع ، أن عينى العذراء تتجهان فى ذلك الصباح نحوه وتنظران إليه وأن فمها يبتسم . وأحس برجفة تسرى فى بدنه فخاطب العذراء دون أن يحرك شفتيه قائلا إنه يهديهـا نشيد «الراعـية الإلهيـة» لتحفظه من اسـتهزاء ذوى الأصوات غـير الصافية» به وتندرهم عليه .

وصعد دون خوسيه ، وهو القديس الكبـير ، إلى المنبر بعد الانتهاء من تلاوة الإنجيل وبدأ موعظته . وسمعت نحنحة مطولة من بين مقاعد الرجال وراح دانييل (البـوم) ، دون إراردة منه ، يعد المرات التى ينطق فيـها القس بعـبـارة «فى الواقـع» وإن لم يكن هو ممن يراهنون عـلى عـددها . ولكن الراهب راح يتحدث فى ذلك الصباح عن أشياء جميلة جدا حتى أن (البوم) غفل عن الحساب وأضاع العد :

- أبنائى . لكل منا ، فى الواقع ، طريق محدد فى الحـياة ، فعلينا أن نواصل هذا الطريق دائما وألا نحيد عنه . وقد يظن بعضكم أن ذلك يسير ، وماهو فى الواقـع بيسيـر . فقد يـكون الطريق الذى رسمه لـنا الرب وعرا وصعـبا ، وهذا فى الـواقع لايعنى أنه ليس طريقنا . قال الـرب : «خذوا الصليب واتبعـونى» . «انى استطيع أن أؤكد لكم شيـئا - وأضاف - . إن طريق الرب لايتمثل فى اخـتباء الفتية والفـتيات تحت جنح الظلام ، ولاهو فى الواقع مـوجـود فى الحانـة حيث يذهب الـبعض أيام السـبت والأحـد

للبحث عنه ، ولاهو فى حفر البطاطس أو حـصاد الذرة أيام الأعياد ؛ لأن الله ذاته خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح ، وهو الله ، فى اليوم السابع . ولأنه الله فـإنه ، فى الواقـع ، لم يتـعـب ، ولكنـه اسـتـراح ، اسـتـراح ليعلمنا ، نحن بنى البشر ، أن يوم الأحد هو يوم الراحة» .

لاشك أن دون خوسيه كان يتكلم ذلك اليـوم بإلهام من العذراء ، فهو يتحـدث برقة ونعومة ودونما توتر . وواصـل كلامه متـحدثا عن طريق كل إنسان ، ثم تطرق إلى الشـقاء الذى يورده أحيانا الابتـعاد عن الطريق الذى حدده الرب لطموح أو لشهوة أو لغيرها من الأسـباب . وقال أشياء وأشياء عويصة وغامضة لم يفهمها دانييل ، أشياء من قبيل أن المتسول ، وهو الذى لايضمن قـوت يومه ، قد يكون أسعـد من الغنى الذى يسكن قصرا منيـفا يملأه المرمر والخدم : «قد يفقد البـعض – قال – نصيبهم من السعادة الذى خصصه لهـم الله . قد يفقدونه وهم يبحثـون ، لطمع فى نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة لاتوجـد ، فى الواقع ، فى الأعلى ولا فى الأكبر ولا فى الأرفع ولا فى الأشـهـر ، بل فى اتفاق خطـواتنا مع الطريق الذى حدده ا[illegible]ب لنا على الأرض ، وإن كان ذلك الطريق متواضعا .

وأتم دون خوسيـه كلامه وواصل دانييل (البوم) مـتابعة قوامه الصـغير بعينيه حتى المذبح . كان يريد أن يملأ عينيه منه ومن حضوره المادى ، فقد كان متأكدا من أن الراهب سيحتل فى مستقبل غير بعيد محرابا فى الأبرشية ، ولكنه لن يكون وقـتها هو نفـسه بلحـمه ودمه ، بل صـورة محـفورة فى الخشب أو تمثالا معمولا من الجبس سئ الطلاء .

وفوجئ (البوم) تقـريبا بضجيج أرغن ترينو السـادن . كانت (الفلفلة) أمامهم تحـمل العصا . وتنحنحت «الأصوات الصافـية» للحظة . وضربت

(الفلفلة) على الأرغن بالعصا . وبدأ ترينو يعزف مقدمة «الراعية الإلهية» .
ثم ارتفعت الأصوات الصافية منغمة دقيقة موجهة بعصا (الفلفلة) :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراااء آثارك .

* * *

قطيعك البائس

يناشدك متوجعا

استمعى ، أيتها السيدة

الى ندائه الدافئ

* * *

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااائك آثارك

* * *

وبعد انتهـاء القداس هنأتهم (الفلفلة) وأهدت كل واحد منهم مـصاصة من الحلوى . أما دانييل (البوم) فقد أخفاها فى جيبه وكأنه يخفى مايخجل ويعيب .

وفى الباحة صاح به اثنان من جماعة الخصوم «يابنت ، يامخنث» لكنه لم يلتفت إليهما ، فقد كان ، من دون (البعرور) يحمى له ظهره ، يشعر ، كالأعـزل ، بالضعف . وعند البوابة كـان الناس يتحـدثون عن خطبة دون خوسـيه . ولاحـظ دانييل (البـوم) ميكا تقف جنبـا على جهـة اليـسار . ابتسمت له وقالت :

– لقد أحسنتم الإنشاد . ثم قبلته فى جبهته .

ووقفت سنوات عمر (البوم) العشر متلهفة . ولكن ذلك لم يدم طويلا . صحيح إنها قبلته ولكنها الآن تعاود الابتسام ، الابتسام لغيره . فقد اقترب منهـا شاب نحيـف يرتدى ثياب الحـداد ، وأمسك كل منهـما بيـد الآخر وتبادلا نظرات لم ترق للبوم .

سألته هى :

– مارأيك ؟

فأجاب هو :

– جميل جدا . كان كل شىء رائعا .

وابتعد (البوم) عنهـما وقد لازمته غصّة لشـعور غريب لايدرك كنهه ، ورأى أن كل واحد من الحضور راح ينبه صاحبه بضربة من كوعه أو بحركة خفيـفة ثم ينظر مـن طـرف لآخـر خلسة قـائلا بصوت واطئ : «انظر .

إنه خطيب ميكا» ، «هاهو خطيب ميكا» ، «أنه شاب وسيم» ، «ليس خطيب ميكا سيئ المظهر» . ولم يرفع أحد بصره عن الشاب النحيف الذى يرتدى ثياب الحداد والذى يأخذ بيدى ميكا بين يديه .

وعندها أدرك دانييل (البوم) أن لديه فى يومه ذاك أسبابا كثيرة للإحساس بالحزن وإن سطعت الشمس فى السماء الصافية أو شدت البلابل فى الأحراج أو شقت أجراس البقر صدر الفضاء برنينها السوداوى أو نظرت إليه العذراء وتبسمت . كان ثمة أسباب للشعور بالحزن واليأس والرغبة فى الموت . كان يشعر بأن شيئا فى داخله يقتلع اقتلاعا .

ونزل عصرا إلى المهرجان ويرفقته صاحباه (البعرور) و (الأقرع) . كان لايزال حزينا ومغموما وفى حاجة إلى الترويح عن نفسه . كانت رائحة المعجنات المقلية وأكداس اللحم البشرى تخيم على جو الاحتفال المشحون برائحة فرح حيوى مزدحم . وارتفعت فى وسط المكان عصا الكوكانيا . إنها أطول من عصا الأعوام الماضية بعشرة أمتار . توقفوا أمامها لمشاهدة صبيين وهما يحاولان عبثا صعود الأمتار الأولى من العصا . ووقف هناك ثمل وهو يشير بأصبعه إلى نهاية عصا الكوكانيا ويقول :

- هنالك خمسة دورات . فمن استطاع الصعود إليها وإنزالها فليدعونى إلى كأس على حسابه .

ثم أطلق قهقهة سرت عدواها إلى الآخرين . ونظر دانييل (البوم) إلى صاحبيه وقال :

- أنا سأصعد .

فقال له روكى مستهزئا :

- أنت لست رجلا .

أما جيرمان (الأقرع) فقد أبدى حذرا غريبا :

- لا . لا تصعد . فقد تقتل نفسك .

ولكن يأس (البوم) وحرصه على منافسة الشاب المسود وأولاد مجموعة «الأصوات غير الصافية» دفعه دفعـا فقفز على العصا وصعد الأمتار الأولى دون جهد كـبير . كان يحتدم فى رأسـه شىء شبيه بالنار الملتهـبة ، مزيج غريب من الكرامة المجـروحة والغرور المسترد واليأس . «هيـا - كان يقول لنفسه - لن يقدر أحد على فعل ما تـفعله» . وواصل الصعود ولكن ساقيه بدأتا تنغـزان. «سأصعـد لأن السقـوط لايهمنى ، سأصـعد لأن السـقوط لايهمنى ، كان يردد مع نفسه . وعندما وصل إلى منتصف المسافة نظر إلى أسفل فرأى أن كل الناس يراقـبون حركاته ، وأحس بدوار فتشـبث بالعصا وواصل التسلق . وبدأت عضلاته تفقد قوتها ولكنه واصل الصعود . وصار فى عيون الواقفـين أسفله بحجم صرصور صغير . وراحت العـصا تتمايل كشجـرة تهزها الرياح ، لكنه لم يشعر بالخوف . كـان يريد أن يكون قريبا من السماء ، أن يخاطب قمة جبل (راندو) نداً لند .

ودب الخور فى ذراعـيه وساقيـه ، وسمع صرخـات عند قدميه فـعاود النظر إلى أسفله :

- دانييل ، ولدى .

إنها أمه تتـوسل إليه . لقد وقفت إلى جنبـها ميكا متـألمة و (البعرور) ضئيـلا و (الأقرع) وقد أوشك أن يستـرد منه مرتبـته السلبيـة ومجمـوعة «الأصوات غـير الصافـية» و (الفلفلة) الكبـرى ودون خوسيـه القس وباكو الحداد ودون انطونيـو (الماركيز) . إنه يشـاهد كذلك أسطح البلدة المسـتوية وهى تعرض وجهها المعتم لأشعة الشـمس . كان يشعر كالسكران ، تدفعه رغبة غير محدودة إلى التفوق والغلبة .

وواصل صعوده غيـر مبال بالدعوات القادمة من تحـته . إن العصا فى هذا المكان أدق لذلك فهى تتمايل تحت وطأة ثقله وكـأنها ثمل . واحتضن دانييل العـصا كالمجنون بعـد أن أحس بأنها ستـرمى به صوب الجبـال مثل قذيفـة منجنيق . وصعد أعلى . إنه يـوشك على الوصول إلى الدوروارت الخمسة المقدمة من «خيال الأمريكى» ولكـن فخذيه راحا يوخزانه ويتشققان وماعاد فى ذراعيه شىء من القوة. «انظر لقد جاء خطيب ميكا» ، «انظر لقد جاء خطيب ميكا» – ردد فى نفسه مغتاظا. وصعد سبتمرات قليلة أخرى ، ومأأقل مابقى أمامه . وكان يخيم تحته سكون متوتر . «يابنت ، يامخنث» ، «يابنت ، يامخنث» تمتـم وصعد . هاهو الآن فى القمـة . العصا تتـمايل بقوة . كان يخشى أن يطلق يده للإمسـاك بالجائزة ، فقرب فمه وعض على الظرف بشـدة . لم ينطلق من تحت تصفـيق ولا صيـاح ، فقد خـيم على الناس نذير بوقوع كارثة . وبدأ دانييل (البوم) بالنزول ، وشعر فى منتصف العصا بالإنهاك فخفف من ضغط أطرافه ليـنساب مسرعا على العصا المطلية بالشمع . كان يحس بساقيه تحترقان وبدمه يتدفق من فخذيه المسلوختين .

ووجد نفسه فجأة على الأرض محفـوفا بهتافات مدوية وضربات تجرح ظهره وطبطبـات على خده وقـبلات تطبعـها أمه ودمـوع ، وجد كل ذلك مخلوطا . واقـترب منه الشاب المسود آخـذا بيد ميكا ليقـول له مبتـسما : «أحسنت يافتى » أما مجموعة «الأصوات غير الصافية» فقد ابتعدوا مطأطئى الرؤوس . أما أبوه فراح يؤنبه بسيل من الكلمـات الغريبة التى لم يفهم لها معنى . وأخيـرا شاهد أوكا-أوكا تجرى نحـوه وتحيط بساقيـه ثم تنفجر فى سيل من الدموع المتدفقة .

وغيّر دانييل (البوم) من جديد ، وهو فى بيته ، رأيه فى ذلك النهار ، وأقر أنه ماكان محقا فى شعوره بالحزن والكدر ، فعلى الرغم من كل شىء فإن النهار كان مشرقا والوادى رائعا ، ثم إن خـطيب ميكا قال له مبتسما . «أحسنت يافتى» .

الفصل الثامن عشر

كشأن كثيرات من النسوة فقد زهدت (الفلفلة) الكبري في الحب لمّا لم تجد من يدعوها الى أن تحبّ وأن تُحَبَّ . وتضحك (الفلفلة) أحياناً لأن الحب الوحيد في حياتها كان بالذات وليد غيرتها على الأخلاق . فلولا حرصها على الطواف فى الجبال أمسيات الأحد لما أثارت حفيظة فتيان البلدة . ولولا أنها أثارت حفيظتهم لما منحت كينو (الأقطع) فرصة الدفاع عنها . ولولا تلك الفرصة لما تحرّك قلبها اليابس والمحشور بين الضلوع . كان حبها الأول سلسلة من المصادفات التى لو فكّرت بها لأحست بالضيق وبالخجل . فما أكثر طرق الحب .

ولم يشع خبر العلاقة الغرامية بين (الفلفلة) الكبرى وكينو (الأقطع) فى البلدة إلا بعد حين . ثم إنها نمت بطيئة متوترة . لقد كانت خطوة متأخرة جداً ، وإن كان (الأقطع) قد فكّر من قبل فى(الفلفلة) . فكّر بها من قبل حادثة فتيان البلدة ، فليست (الفلفلة) صغيرة ولا هو كذلك . ثم إنها ، من ناحية أخرى ، كانت نحيفة ناشفة ، وتمتلك مصلحة مزدهرة وعقلية تجارية واضحة ، وهو بالضبط ما ينقصه بعد أن أغرقته الديون مؤخراً ولم يبق له من ملكية خاصة قدر حشيشة فى البستان . ولأن (الفلفلة) كانت نحيفة معصورة الساقين ، على ما يبدو بالطبع إذا لم يتسنّ له ولا لغيره أن يعاين ساقيها ، فقد كانت السيدة لولا تمثل عنده حلاً مناسباً من جميع الجوانب .

لم يكن قصد كينو إذ منع الفتيان عن (الفلفلة) قصداً نفعياً بالطبع ، انما فعل ذلك لأنه رجل شهم ومحترم ويكره العنف وخاصة مع النساء ،

أما أن تتشابك الأمور فتنظر (الفلفلة) إليه بطريقة أو بأخرى ، وتطبع قبلة حارة على فـضلة يده فيـشعر هو عندها بدبيـب على امتداد ذراعـه يحّرك عواطفه ، فتلك حلقات سلسلة واحـدة وحوادث لازمة لصنع نهاية مكتوبة ومقدّرة ، إنها أقدار الرب .

لقد بيّنت تلك القبلة التى طبعت على لحم فضلة الذارع المبتورة لكينو (الأقطع) كذلك أنه ما يزال يحتفظ فى جسـمه بنبض الرجوله وعنفوانها وبأنه لم يحيّد بعد فى رجولتـه وأنه ما زال يحسب له كل حساب ، وراح يفكر فى كل ما يمكـن تنفيذه ، وهكذا ولدت فى رأسـه فكرة إدخال وردة من تحت باب دكان (الفلفلة) فجر كل يوم والبلدة فى سبات .

كان (الأقطع) يدرك أن عليه أن يتصـرّف بحذر ، فالـبلدة تبغـض (الفلفلة) لتطرفها فى أمور الدين ولأن أختـها كانت قطاً متربصاً . فكان عليه إذاً أن يتصرّف بتكتم وحذر وحكمة .

كان يغيّـر الوردة كل يوم ، وان كانت الوردة كبيرة ، اكـتفى بإدخال واحدة من وريقاتها . كان (الأقطع) يدرك أن الوردة البـريئة لاتصمد أمام الريح ، فإن كانت مقصودة فان لها من قوة الإقناع ما يفوق قوة سبيكة من الذهب . كان يدرك كذلك أن كثرة الطرق تفلّ الحديد .

وبعـد شهر بدأ سـيل العواطـف هذا يصب كله ، بالطبع ، فى دون خوسيه القس . قالت (الفلفلة) :

– دون خوسيـه . هل من الخطيئة أن تتمنى امـرأة إغماءة بين ذراعى رجل ؟

– هذا يعتمد على النية – قال الراهب .

– لانية غير الإغماءة ، دون خوسيه .

- إعماءة فى هذه السن ياابنتى ؟

- ماذا تقصد ، حضــرة القس ؟ وهل يدرى أحد متى تحين الساعة ؟ إنها حال الحب وحال الموت ، يجيئان على حين غرّة ، واذا كانت الإغماءة بين ذراعى رجل خطيئــة فإننى أعيش متمــادية فيها ، دون خــوسيه . إننى أقولها لك وليس لما بى من علاج . إننى لا أستطيع أن أتمنى شيئاً آخر وإن قلت لى إنهــا أعظم خطايا العــالم . إن لهذه الرغـبة قــوة تفوق قــوتى . وبكت .

وراح دون خوسيه يحرك رأسه من صوب لآخر كرقّاص الساعة :

- إنه كينو ، أليس كذلك ؟

- بلى ، إنه هو ، دون خوسيه .

- إنه رجل طيب ياابنتى ، ولكنه معدم فقير .

- لايهم ، دون خوسيه ، فلكل شىء حل .

- وماذا تقول أختك ؟

- إنها لا تعرف شيــئاً بعد ، ولكنها لاتجرؤ على محــاسبتى ، ولكن تكسب شيــئاً إن هى حاولت نصحى . وأخــيراً علمت ايرينه ، (الفلفلة) الصغرى ، بالأمر :

- أكاد لا أصدق ، لولا . هل جننت ؟

- لماذا تقولين لى ذلك ؟

- ألا تعرفين ؟

- لا . لاتنكرى أننا فى البيت فى حاجة إلى رجل .

- وعندمــا حدث لى مــا حدث مع ديماس ، أمــا كنّا فى حاجــة إلى رجل فى البيت ؟

- الأمر مختلف أختاه .

- الفرق الوحيد هو أن المجنونة هذه المرة هى أنت .

- ولكن كينو رجل ذو حياء .

- وكذلك بدا ديماس .

- ديماس كـان طامعـاً فى مالك ، وقـد بقى معك مـا دامت آلافك الخمسة . أنت قلت ذلك .

- وهل تظنين أن كينو يريدك لشخصك ؟

ونطّت (الفلفلة) الكبري وقد أحسّت بالإهانة :

- وما هى أسبابك للشك فى ذلك ؟

وتراجعت الأخت الصغيرة:

- لا أسباب ظاهرة بالطبع .

- ثم إننى لن أحـتاج الى الاختـباء كمـا فعلت أنت . بل سـأخضع عاطفتى لشريعة الرب .

ولمعت عينا (الفلفلة) الصغرى :

- لاتتكلمى عن ذلك . أتوسّل إليك بروح والدينا المباركين .

لم يتضح حينها شئ عن الخطوبة فى البـلدة لذلك توجب على كينو و (الفلفلة) أن يطوفا شوارعها ذات عصر أحد متلازمين لكى يعلم الناس بالخبر . وعلى الـعكس مما قدّر كينو (الأقطع) فلا ورود الجـيرانيو ذبلت فى شرفـاتها ولا الأبقـار ارتعشت فى حظائرها ولا الأرض انخـسفت ولا الجبال تصدّعت عندما شاع الأمر ، وإنما حدثت ابتسامات لاذعة وتلميحات متندرة وحسب ، وهوما لم يكن ينتظر أقل منه .

وبعد أسبوعين ذهبت (الفلفلة) الكبري لزيارة دون خوسيه ثانية :

- حضرة القس . هل من الخطيئة أن تتمنى امرأة أن يقبلها رجل من فمها وأن يضمّها بقوة بين ذراعيه ؟

- نعم . إنها خطيئة .

- ولكنى لا أستطيع على ذلك صبراً ، دون خوسيه ، اننى أخطئ كل دقيقة من حياتى .

- عليكما أن تعجّلا بالزواج - قال القس دون أن يضيف شيئاً آخر .

وعلا صراخ ايرينه عندما علمت بقرار دون خوسيه :

- أنت تكبرينه بعشرة أعوام ، لولا . لقد بلغت الخمسين ، فاعقلى وتفكّرى . عودى بحق السماء إلى رشدك قبل فوات الأوان .

ولكن (الفلفلة) الكبري كانت قد اكتشفت لتوها جمال الشمس الرابضة وراء الجبال ، وحلاوة صرير العربات المحملة بالعشب وروعة تحليق الحدآن وهى تطير باتزان وتناسق تحت سماء أغسطس الصافية بل لقد اكتشفت جمال الحياة ، الحياة وحسب ، فأنى لها وقد اكتشفتها أن تتخلى عنها .

- لقد قرّرت ، أختاه . وأمامك الباب مفتوح إن شئت الرحيل .

وانفجرت (الفلفلة) الصغرى بالبكاء وأصيبت بنوبة عصبية ثم رقدت محمومة . وظلت على تلك الحال أسبوعا كاملاً ، ولمّا حلّ يوم الأحد زالت الحمّى . ودخلت (الفلفلة) الكبرى حجرة أختها على رؤوس أصابعها وسحبت الستائر مبتهجة :

- هيا انهضى ، أختاه . فاليوم سيقرأ دون خوسيه إعلان زواجى الأول ، ويجب أن يكون هذا اليوم عندي وعندك يوماً مشهوداً .

ونهـضت ايرينه دون أن تتفـوه بشيء. ارتدت مـلابسهـا وذهبت مع أختـها لسمـاع الإعلان الأول عن الزواج ، وعند العودة الى البـيت قالت لولا لأختها :

- افرحي أختاه ، فستكونين عرّابتي يوم عرسى .

وكانت ايرينه ، فعلاً ، عرّابة أختها فى العرس ، ولكن دون أن تتفوّه بكلمة واحـدة ، وبعد أشهـر من الزواج أمرت (الفلفلة) الكبـرى ، وقد راعها إذعان أختها وصمتها ، باستدعاء دون ريكاردو الطبيب :

- الفتـاة مصابة بصدمـة قوية . إنها لا تعـقل . على أية حال فليس الأمر خطراً ، ومرضـها لايوحي بأية حالة عنف - قال الـطبيب وانصرف بعد أو وصف لها حقناً . وراحت (الفلفلة) الكبري تبكى بغصّة .

على أن ذلك كله لم يـفاجئ دانيـيل (البـوم) الذى صـار يدرك أن الحياة مليئة بالحوادث التى تبدو ، قبـل وقوعها ، غير ممكنة ثم تبدو ، وقد وقعت ، أن لاشـئ فـيها غـريب ولامفـاجئ ، بل إنها طبيـعية كـشروق الشمس كل صباح وكالمطر وكـالليل وكالرياح ، وتابع (البوم) مـسـيرة العـلاقــة بين (الفلفلة) و (الأقطع) عن طـريق أوكـا - أوكـا . ومن الغـريب أن (البـوم) ، حـالما علم بتلك العـلاقة ، بدأ يحسّ أن نفـوره القديم من الصغـيرة زال تماماً وأن شعوراً غـامضاً بالشفقـة عليها بدأ يحل محله . صادفها ذات يوم تنقّب بين الأحراج على شاطئ النهر :

- ساعدنى ، بوم ، لقد اختبأ هنا زرور لايقوى على الطيران .

واجتهد هو فى العثور على الزرور ، وتمـكن أخيراً من العثور عليه ، ولكن الطائر الصغـير جاهد للتـملّص فسقط فى النهر وغـرق فى الحال ، وعندما جلست ماريوكا - أوكـا على حافة النهر وغمرت قدمـيها فى مائه وجلس (البوم) الى جانبها حزينين لموت الطائر ، لكن الحزن لم يلبث أن تبدد :

- هل صحيح أن أباك سيتزوج (الفلفلة) ؟ قال (البوم) .
- هذا ما يقولونه .
- من يقول هذا ؟
- هم .
- وماذا تقولين أنت ؟
- لا أقول شيئاً .

كان دانيـيل يشعـر بمحنة الصغـيرة المكبـوتة ويتفـهم صمـتهـا المطبق الشجاع . وسألته الطفلة فجأة :

- هل صحيح أنك ستذهبين الى المدينة ؟
- نعم ، بعد ثلاثة أشهر ، فقد بلغت الحادية عشرة وأبى يريد لى أن أتقدم .
- وأنت ماذا تقولين ؟
- لا أقول شيئاً .

وأدرك (البوم) ، بعد انتهائه من الكلام ، أنهما تبادلا الأدوار ، إنه هو ، هذه المرة ، من لايقول شيئـاً . ووجد أن بينه وبين أوكا - أوكا نقطة مشتركة ذات شبه غريب ، فكل منهما مضطر الى القبول بما يلائم أباه دون أن يطلب اليـه رأى فى ذلك . ولاحظ كذلك أنه لايتـضايق وهو يـحادث الطفلة ، بل انه كـان مرتاحـاً وهو يتحـدث عن أشيـاء وأشياء وأن مـيكا لايخطر على باله فى شىء ، خصوصاً أن فكرة السفر الى المدينة تتراءى له من جديد صعـبة لا تطاق ، ولاشك أن ميكا ستكون عنـدما يعود هو من المدينة فقد فقدت نعومة بشرتها بل وأنجبت دزينة من الأولاد .

وصار (البوم) يلتقى بـالصغيرة مرات أكثر ، ومـا عاد يعرض عنها عابساً كما كان يفعل من قبل .

- متى العرس ، أوكا - أوكا ؟

- فى يوليو .

- وماذا تقولين ؟

- لا أقول شيئاً .

-وهى ماذا تقول ؟

- تقول إنها عندمـا ستصبح أمى ستأخـذنى الى المدينة ليزيلوا النمش عن وجهى .

- وأنت ، هل تريدين ذلك ؟

وارتبكت الطفلة وخفضت عينيها :

- بالطبع .

ولم تظهر أوكا - أوكـا نهار يوم العرس فى أى مكان . وعند حلول المساء ترك كينو (الأقطع) عروسـه وكل شىء قائلا أن عليه إن يبحث عن الطفلة مهما كلّف ذلك ، كان دانييل (البوم) يتابع مـستمتعاً التحضيرات من حوله ويتأمل الرجال وهم يحـملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية ويرتدون الأحذية الضخـمة المسمّرة التي تحدث عند السـير بها على الطريق ضجيجاً وصريراً .

ولما رأى دانييـل (البوم) أن الوقت يمضى دون أن يعـود الرجال من الجبال بدأ القلق يساوره . كـانت أمه تقف الى جانبه وهى تبكى وتردد بلا انقطاع « ياللطفلة المسكينة » ، فـيمابدا أنهـا لم تكن تؤيد أن يكون للطفلة زوجة أب . ومـرت فى هذه الأثناء رافائيلا (الخنزيرة) ، زوجة كـوكو ،

مأمور المحطة ، من أمام معمل الجبن وقالت إن من المحتمل أن يكون ذئباً قد افترس الفتاة فتملكت دانييل (البوم) رغبة فى الصراخ من أعماقه وفكر فى تلك اللحظة بأنهم لو أزالوا النمش من وجه أوكا - أوكا فسيزيلون ظرفها ، هو لايريد أن يزيلوا النمش من وجهها ولا أن يفترسها الذئب .

وفى الساعة الثانية فجراً عاد الرجال وهو يحملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية وقد بدت أوكا - أوكا فى وسطهم شاحبة الوجه شعثاء الشعر ، وخفّ الجميع صوب بيت (الأقطع) لرؤية الفتاة وتقبيلها واحتضانها والاحتفاء بالعثور عليها . ولكن (الفلفلة) سبقت الجميع وتلقّت الطفلة بصفعتين على وجهها . وكظم كينو (الأقطع) لسانه أن يطلق منكراً ، ولكنه حذّر (الفلفلة) قائلاً إنه لايقبل أن تضرب طفلته . ولكن السيدة لولا ردّت عليه قائلة بأنها « صارت منذ الصباح أماً لها ، وأن عليها واجب تربيتها » ، فما كان من كينو الا أن جلس على إحدى دكك الحانة وأسند ذراعيه على الطاولة فكأنه يوشك على البكاء أو كأن فاجعة أوشكت على النزول به .



الفصل التاسع عشر

رفع جيرمان (الأقرع) أصبعه وأمال رأسه قليلاً متنصتاً وقال :

- ذاك الطائر الذى يغنى فوق السور هو طائر أبو زريق .

وقال (البوم) معارضاً :

- كلا . إنه طائر الحسون .

وأوضح له جيرمان أن لأبى زريق خواصاً صوتية تمكّنه من تقليد زقزقات جميع أنواع الطيور وصفيرها . وأنه يقلد أصواتها ليستدرجها ويفترسها ، لذلك فهو من الطيور المقيتة لخبثها وريائها .

ولكن (البوم) أصرّ على رأيه قائلا :

- بل هو طائر الحسّون .

كان دانييل يجد متعة فى المعارضة ذلك الصباح . إنه يشعر باندفاعه فى المعارضة مع أنها معارضة لاتقوم على أساس ، ولكنه كان يحسّ ارتياحاً وبيلاً وغامضاً إذ يفعل ذلك .

وتدخّل روكى (البعرور) فجأة وهو يصرخ :

- انظر . إنه أحمق الماء .

كان يشير الى مكان يقع على يمين البركة ، مسافة ثلاثة أمتار من مصب النهر . وكانوا فى البلدة يطلقون هذه التسمية على أفعى الماء دون أن يعرفوا لهذه التسمية سبباً ، إذ ليس من دأبهم البحث عن الأسباب فى ما يخص مفردات الوادى ، إنهم يتقبلون التسميات وحسب فيدعون تلك الأفعى التى تصول على ضفة النهر بضربات متشنجة من ذنبها بأحمق الماء

ونهض الأولاد الثلاثة وألقوا ببعض الحجارات على الأحمق الذى كان يحمل سمكة صغيرة بين فكيه .

وصاح (الأقرع) محذراً :

- لا تدعاه يصعد ، لأنه فى الأماكن المرتفعة يلف جسمه كالطوق ويدور متدحرجاً بسرعة تفوق سرعة الأرنب ، وقد يهاجم .

ونظر (البعرور) و (البوم) الى الحيوان مفزوعين . وراح (الأقرع) ينط من صخرة الى صخرة وهو يحمل حجارة كبيرة ويحاول الاقتراب من أحمق الماء ، ولكن خطوة عير موفقة أو انزلاقاً على الوحل الذى كان يغطى الصخور أو زلة من ساقه العرجاء أطاحت به فسقط بقوة على الصخور ليرتطم رأسه بها ولينساب من هناك كتلة هامدة حتى البركة . وألقى (البعرور) و (البوم) بنّفسيهما دون تأخر إلى الماء لإنقاذ صاحبهما ، وأفلحا بعد سباحة يائسة مضنية فى انتشال جسده واخراجه الى ضفة النهر . كان (الأقرع) مصاباً بجرح عظيم فى عنقه وكان غائبا عن الوعى . أما روكى ودانييل فكانا مصعوقين . وحمل (البعرور) الجسد الخامد على كتفه وصعد به الى الطريق العام . وفى بيت كينو وضعت (الفلفلة) كمادات الكحول على رأسه ، وبعد قليل مر من هناك استيبان الخبّاز فحمله بعربته إلى البلدة .

وانفجرت ريتا (البلهاء) صراخاً وتأوهاً إذ رأت ولدها على تلك الحال . ومرّت لحظات من الارتباك . وبعد خمس دقائق كانت البلدة عن بكرة أبيها تحتشد أمام باب الاسكافى حتى إن دون ريكاردو الطبيب شقّ طريقه الى البيت بصعوبة لشدة ما كان فى الناس من قلق وجزع ، وعندما خرج الطبيب اتجهت العيون صوبه بانتظار ما سيقول :

- إن حالته خطرة جداً . لقد كسرت قاعدة الجمجمة . اطلبوا سيارة إسعاف من المدينة .

وصار الوادى فى عينى (البوم) رمادياً كـالحاً ، وشحب ضوء النهار واكـفهر ، ودوّت فى السـماء قوة أشدّ حتى من قوة باكو الحداد قال بالجو (الملحد) انـها قوة القـدر وقالت (الفلفلة) إنـها إرادة الرب ، ولما رأى دانييل أنهـما لم يتفـقا على رأى تسلل الى حجـرة صديقه الجـريح . كان جيرمان (الأقرع) شديد البياض وكانت شفتاه منغلقتين على ابتسامة رقيقة ناعمة .

وظل (الأقرع) لثـمان ساعـات ساحة مـعركة بين الحـياة والموت . ووصلت سيارة الإسعاف من المدينة وكان فيها توماس ، أخو (الأقرع) ، وكان موظفاً فى شركة للحـافلات . وما إن دخل هذا الى البيت كالمجنون حتى تلقته أمه وقد خرجت للتو مذعـورة من حجرة أخيه المصاب ، معانقة فى ما يشبه تماساً كهربائياً وصارخة فى ما يشبه شرارة صاعقة .

- وصلت متأخراً ياولدى . لقد مات أخوك .

وطفرت الدمـوع من عيني توماس وشـدّف مغتاظـاً فكأنه يحتج على الرب لوقوفه عـاجزاً دون حول ولاقوة ، وراحت النسـوة ينتحبن ويولولن عند باب الدار ، ثم خرج اندريس الإسكافى من الحجرة وقـد مال بجسمه فكأنه يود التطلع الى سيقان أصغر قزمة فى العالم . وشعر دانييل (البوم) برغبة فى البكاء لكنه لم يجـرؤ لأن (البعرور) كان يصده صارماً مـستبداً دون أن يتحرك له رمش ، واستغـرب (البوم) إذ لاحظ أن الجميع صاروا يحبّون (الأقرع) ، حتى أن المرء ليظن ، وهو يسمع البكاء والنحيب ، أن جيرمان هو ابن كل واحدة من نسـاء البلدة . مع ذلك فقد وجد (البوم) عزاء فى بادرة التضامن تلك .

وذهب (البعرور) و (البوم) الى محل الحدّاد بينما انشغل الآخرون بتكفين (الأقرع) :

- أبى - قال (البعرور) - لقد مات (الأقرع) .

واضطر باكو الحداد ، على ضخامة جسمه وقوته ، الى الجلوس بعد أن أذهله سماع الخبر ، ثم قال وكأنه يجاهد ضد شيء يسلبه قواه :

- الرجال يخلقون ، أما الجبال فقد خلقت من قبل .

- ماذا تقصد بذلك أبتاه ؟ - سأل (البعرور) .

- أن تشربا - قال الحداد بنبرة من الغضب وهو يناول ولده زق النبيذ .

كانت الجبال تكتسى عتمة محزنة ، وكذلك الحقول وشوارع البلدة وبيوتها والطيور وزقزقاتها .

وأشار باكو الحداد عليهما أن يطلبا إكليلاً جنائزياً من المدينة تكريماً للصديق الفقيد ، فذهبا الى بيت (الأرنبات) وطلبا ذلك بالهاتف . كانت كاميلا تبكى هى الأخرى ، ورفضت أن تأخذ منهما نقودا على الرغم من طول مدة المكالمة ، ولما عاد الصديقان الى بيت (الأقرع) طوّقت ريتا (البلهاء) بذراعيها عنق (البوم) طالبة إليه أن يسمح لها باحتضانه وضمه إلى صدرها لأنها تواصل هكذا احتضان ولدها ، فقد كان أقرب أصدقائه إليه ، واشتد حزن دانييل وهو يرى أنه ليس أمامه إلا أربعة أسابيع قبل أن يسافر إلى المدينة ليبدأ تقدمه ، وأن ريتا ، التى لم تكن بلهاء بالقدر الذى يزعمون ، ستبقى صفراً من ولدها (الأقرع) ومنه هو بينما تسعى لإرضاء عاطفتها البائسة الثكلى ، وربت الإسكافى على كتفى الصديقين وشكر لهما أنهما انتشلا ولده من النهر ولكن الموت كان له بالمرصاد وليس من حيلة أمام الموت إن وقف لأحد بالمرصاد .

وواصلت النسوة البكاء عنـد الجثمان ، ومن حين لآخـر كانت تندفع أحداهن لتقّـبل الجسد الصغـير النحيف البارد بينما يـرتفع عويل الأخريات وتزداد دموعهن .

وشدّ توماس منشفة على رأس أخيـه كى لاتبين قرعته فاشـتد حـزن (البوم) لأن صديقـه بدا ، على ذلك النحو ، وكأنه طفل مـورى كافر . وتأمل (البوم) أن يحدث منظر المنشفة الانطباع ذاته فى دون خوسيه القس فيأمر بنـزعها ، ولكن الراهب وصل واحتضن الإسـكافى وألـقى علـى (الأقرع) المسحة المقدسة دون أن يتوقف عند المنشفة .

وما أقل ما يلتفت الكبـار الى معاناة الصغار الدقيقـة القاسية ، بل إن أباه الجبّان لم يواسه عندما رآه لأول مرة بعد الحادثة ، بل قال له :

- دانييل . لكى تعلم ما تؤدى اليه أعـمال الشيطنة . أرجو أن يكون لك فى هذا درس ، فما حدث لابن الاسكافى كان يمكن أن يحدث لك .

ولم يردّ دانيـيل بشئ لأنه خمّن إن هو تكلم فـسينتهـى به الأمر إلى البكاء . فـأبوه لايريد أن يعرف أنهـم ، عندما وقع الحـادث ، لم يكونوا يقومون بأى عمل شيطانى ، وإنما كانوا يحاولون وحسب قتل أحمق الماء ، كما أن الأب لايلاحظ أنه ، يوم اصطادوا الحدأة بالدوق الكبير ، كان يمكن أن يصيب ولده فى صدغه فيقتله بدلاً من إصابته بالكرة الرصاصية فى خدّه فالكبار ينسبون الفواجع الى طـيش الصغار وينسون أن هذه الأشياء هى من مقدرات الله دائما وان للكبار كذلك أفعالهم الطائشة أحيانا .

وأمضى دانيل (البوم) ليلتـه بالقرب من الميت ، كان يشعر أن شـيئا كبيراً يسهر فى داخله وان لاشىء سيبقى على حاله مستقبلا ، لقد كان من قبل يفكر أن صاحبـيه (البعرور) و (الأقرع) سيشـعران بالوحدة عندما

يذهب هو الى المدينة للتقدم ، ولكنه الآن يرى أنه هو من سيشعر بالوحدة ، بالوحدة الموحشة ، هو وحده ، لقد ذبل شيء ما في داخله فجأة ، ربما هو اعتقاده بطفولة دائمة ، وأدرك أن الموت هو غاية كل حي ، شيخاً كبيراً كان أم طفلاً صغيراً .

لم يسبق له قط أن توقف للتفكير في ذلك ، وهو الآن إذ يفكر في هذه الأشياء يخنقه شعور يؤخره ويبعث الضيق في صدره . فالحياة هكذا مشرقة ولكنها كذلك محزنة ومدمّرة . إنها الموت البطيء ، يوماً بعد يوم ، شيئاً فشيئاً . إنها الموت المحتوم ، فالجميع ،على المدى البعيد ،سيموتون : هو ودون خوسيه وأبوه الجبّان وأمه والفلفلات وكينو والأرنبات الخمس وانطونيو (الحوصلة) وميكا وماريوكا - أوكا والماركيز حتي باكو الحداد سيموت ، فالكل فان وزائل ولن يبقى أثر منهم على أحجار البلدة بعد مائة عام ، كما لايبقى الآن أثر ممن عاشوا قبل مائة عام . ولكن الانتقال يحدث ببطء ، ودون أن نشعر به . سيختفي الجميع من العالم ، جميع من يعيشون الآن على سطحه ، جميعهم إطلاقاً ولن يلحظ العالم التغيير ، فالموت مقتضب وغامض وفظيع .

وعند حلول الفجر ترك (البوم) صاحبه الميّت وتوجّه الى بيته للأفطار ، لم يكن جائعاً ولكنه ارتأى أن يملأ جوفه تحسّباً للمواقف المؤثرة المقبلة . كان يخيم على البلدة في تلك الساعة هدوء راكد جليّ ، فكأن برودة الموت الشديدة طافت في جميع أرجائها وكبّلتها فالأشجار تبدو متيبسة وصياح الديكة جنائزياً فكأنها تصبح من خلال كاتم للصوت ، وكأنها لاتجرؤ على تعكير جو الحزن والانقباض المخيم على الوادي أما

الجبال فبـدت بأجسامها الضخـمة متشحة بالسواد تحت السـماء الرمادية ، وكانت مسحة التعب والاسترخاء المعهودة فى الحقول تبدو واضحة حتى فى الأبقار التى كانت ترعى فى تلك الحقول .

وما إن تناول دانييل (البوم) فطوره حتى عاد إلى البلدة . وبينما كان يمرّ من أمام سيـاج الصيدلية لمح زرزوراً ينقر كـرزة برية على حافة الطريق العام ، فـاضطرمت فى نفسـه المشاعـر تجاه صديقـه الفقـيد . وبحث عن المصيدة فى جيـبه ثم وضع حجرة فى شريطها ، وصـوّب بدقة نحو الطائر ثم سحب المطاط بقوة ، وعندما ارتطمت الحجارة بصدر الزرزور سمع دوى عظام تنكـسـر . وركض دانيـيل صـوب الطائر المجندل والـتـقطه بيـدين مرتعشتين ثم واصل طريقه والزرزور فى جيبه .

وعندمـا وصل كـان جيـرمـان (الأقرع) قـد أودع التـابوت ، وهو صندوق أبيض مطلى بالورنيش كـان الإسكافي قد طلبه من أحد مـحلات بيع التوابيت فى المدينة ، وكان قد وصل كذلك الإكليل الذى طلبه الأولاد وقد كتب عليـه ما أملاه (البعرور) : أصدقاؤك (الـبوم) و (البعرور) لن ينسوك أبداً يا (أقرع) » . وعاودت ريتا (البلهـاء) احتضانه قائلة له بصـوت منخفض إنـه اكليل جمـيل ، ولكن الأخ تومـاس ، الموظف فى شركة الحافلات ، غضب عـنـدما قرأ الإهداء وقصّ الجـزء الذى كتب عليه « يا أقرع » وترك بقية العبارة كما هى :

وبينما كان توماس ينظّم الشـريط والآخـرون يراقـبونه حشـر دانييل (البوم) الزرزور خفيـة فى التابوت الى جانب جثمان صـديقه . لقد فكّر أن جيرمـان الذى يعشق الطيور سيشكر لـه ، وهو فى عالمه الآخر ، تلك الالتـفاتة . ولما عـاد توماس لوضع الإكليـل عندما قـدم الميت لمح الطائر

مطروحاً جنب أخيه . وقرّب عينيه ليتأكد من أن ما يراه كان زرزورا بحق ، وما إن تيقن من ذلك حتى أحسّ بتيار غامض يسرى فى بدنه . لم يجرؤ على لمسه بل صاح :

- ماذا ؟ . . . من ؟ ماهذا ؟

ولم يجرؤ دانييل (البوم) بعد ما رآه من غضب توماس عقب حادثة الإكليل على الاعتراف بضلوعه فى هذه الحادثة الجديدة . وسرت دهشة توماس بسرعة بين الحضور عندما اقتربوا لتأمل الطائر ، مع ذلك لم يجرؤ أحد على لمسه :

- كيف وصل الزرزور الى هنا ؟

وراحت ريتا (البلهاء) تبحث عن تفسير معقول فى وجه كل واحد من جيرانها ، ولكنها كانت تقرأ الذهول نفسه فى كل الوجوه :

- أتعرف أنت يا (بوم) ؟

- أنا لاأعرف شيئاً ، لم أر الزرزور الا بعد أن أخبر بذلك توماس .

ودخل فى تلك اللحظة اندريس الاسكافى ، وما أن شاهد الطير حتى رقّت عيناه وراح يبكى بصمت :

- لقد كان يحب الطيور كثيراً ، وقد جاءت لتموت معه .

ويكى الآخرون لبكائه . وتلى الذهول الأولى اعتقاد عام بتدخل سماوى . وكان اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، أول من ألمح الى ذلك بصوت مرتعش :

- هذه معجزة :

ولم يكن الحاضرون ينتظرون غير أن يصرّح أحدهم بما كان يدور فى خلدهم لينفجروا ، لذلك فما إن سمعوا قول الإسكافي حتى انطلقت صرخة جماعية مدوية مشوبة بتأوهات وبكاء .

- معجزة .

وخرجت مجموعة من النسوة فزعات يركضن بحثاً عن دون خوسيه ، وذهب بعضهن لإبلاغ أزواجهن وأقربائهن ليكونوا شهوداً على الأعجوبة ، وحدث هرج ومرج عارمان .

كان دانييل (البوم) يبتلع ريقه دون توقف فى ركن من أركان البيت . أن الكائنات الغريبة الخبيثة المحلقة فى الفضاء تواصل ، حتي بعد موت (الأقرع) ، تعقيد أفعاله البريئة ونواياه الحسنة . وفكّر (البوم) أن من الخير له ، بعد ما وصلت اليه الأمور ، السكوت وإلا فإن توماس قد يقتله وهو فى سورة غضبه .

ودخل دون خوسيه على عجل .

- انظر ، دون خوسيه ، انظر - قال الإسكافى :

واقترب دون خوسيه مرتاباً من حافة التابوت ورأى الزرزور مطروحاً إلى جنب يد (الأقرع) المتخشبة :

- هل هى معجزة أم لا ؟ - قالت ريتا منفعلة وهى تتأمل الذهول الذى بدا على وجه القس .

وسرت همهمة طويلة حولهم . حرّك دون خوسيه رأسه من طرف لآخر وراح يتفحّص الوجوه المحيطة به .

وتوقفت نظراته لحظات فى وجه (البوم) المضطرب . ثم قال :

- اعترف أن الأمر غريب . ولكن ، ألم يضع أحد هذا الطائر هنا ؟

- لا أحد . . - صرخ الجميع .

وخفض دانييل (البوم) عينيه ، وعاودت ريتا الصراخ مطلقة قهقهات هستيرية ومتحدية بنظراتها دون خوسيه :

- ها ، حضرة القس . هل هى معجزة أم لا ؟

وحاول دون خوسيه تهدئة الخواطر المنفعلة :

- أنا لا أستطيع أن أبدى رأياً ازاء شىء من هذا القبيل ، فى الواقع أن من المحتمل جداً ، ياأبنائى ، أن يكون أحد ما قد دس الزرزور فى التابوت مازحاً أو بحسن طوية وهو لايجرؤ الآن على التصريح بفعلته خوفا من غضبكم وعاود النظر الى دانييل بعينيه الجارحتين المدببتين كطرف الدبوس ، واستدار (البوم) الخائف ثم ولى هارباً الى الشارع ، وواصل القس كلامه : - على كل حال سأتولى ابلاغ الأسقف بما حدث ، ولكنى أكرر أن عليكم الا تمنّوا أنفسكم بالكثير فى الواقع هناك كثير من الحوادث التى لها اعجاز ظاهرى ولكنها لاتمتلك من المعجزة غير ما قلنا : الظاهر - ثم قطع حديثه قائلا : - سأعود الساعة الخامسة للدفن .

وعند الباب ، عثر دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، بدانييل (البوم) الذى كان يختلس النظر إليه خجلاً . ولما أيقن القس أن لا أحد موجود بالقرب منهما ابتسم للفتى وربت بحنان على قفاه وقال له هامساً :

- فعلة متقنة ياولدى . فعلة متقنة .

وترك له يده لكى يقبّلها ثم ابتعد بخطى بطيئة جداً مستنداً على عصاه .

الفصل العشرون

لأجراس النواقيس لغة معبّرة ومتغيّرة ، ولذبذباتها قدرة على إحداث نغمات عميقة وحادة ، رصينة وخفيفة ، قاتمة ومعتمة بالأجراس لا تكرر الشئ نفسه مطلقاً ، ولا تقول ما تقول بالطريقة ذاتها على الإطلاق .

لقد اعتاد دانييل (البوم) أن يكيّف قلبه وعواطفه على نغمة الأجراس إنه يعرف أن دقات يوم الراعية لها نغمة الألعاب النارية وصوت الهرج والمرج الصاخب وغير المتناسق ، والتى لسماعها يتكوّر قلبه وهو ينبض بشعور من الفرح التام المتجانس . وعندما كانت تنتهي الغارة فى وقت الحرب كانت النواقيس تجلجل بفرح كذلك ولكنه فرح مشوب بالحذر والترقب ، فقد كان من الواجب التسلح بالحذر . فى مرات أخري كانت الدقات صمّاء معتمة كالحة جوفاء كما كان حالها يوم دفنوا جيرمان (الأقرع) . لقد عمّت الوادى يومها دقات منبعثة من نواقيس الأبرشية ، دقات صمّاء معتمة كالحة جوفاء ، وكانت برودة ذبذباتها تنفذ الى أعماق الأرض وجذور الزرع ونخاع عظام الرجال وقلوب الأطفال ، فكان قلب دانييل (البوم) يذوب ويلين كالرصاص المنصهر ، من أثر دقات النواقيس المهيبة فيه . كان المطر يسقط خفيفاً . وكان أولاد الاسكافى الكبار الأربعة يسيرون خلف دون خوسيه ، الذى ارتدي قميصه الكهنوتئ الأبيض مع الوشاح ، وهم يحملون النعش على أكتافهم وبداخله جيرمان (الأقرع) والزرزور ، يتبعهم أبوهم وبقيه العائلة وجميع رجال البلدة ونسائها وأطفالها وقد تجهمت وجوههم وانعكست فى مصارينهم أصداء الأجراس

وهى تتردد فـى نغمات بطيـئة مـوزونة ، أما دانييل (الـبوم) فكان يسمع تلك الأجراس بطريقـة خاصة فى ذلك اليوم . كان يرى نفـسه مثل واحدة من تلك الحشرات التي دأب راهب بلدة (لاكويرا) على جمعها فى علبة ، إذ كـانت كل دقة ، كـشأن تلك المخلوقات الصـغيـرة ، بمثابة إبرة حادة تختـرق منطقة حساسـة فى كيانة ، انه يفكّر فى جيـرمان (الأقرع) وفى نفـسه وفى المسـارات الجديدة التـى تفرض على حـياته . كـان يؤلمه الإحساس بأن لاشىء لاشىء مما مضى يمكن أن يعود . كـان إحساساً ثقيلاً بالانقيـاد والتبعية والخـضوع . ان ما يثيـر أعصابه عدم قـدرته على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء ووقـوفه عاجزاً ازاء حقيقـة أن أحداً لن يعود الى التحـدث اليه ، بدقة (الأقـرع) واحاطته ، عن طـائر أبى زريق والحجل والرفراف ودجـاج الماء أن عليه أن يتـقبّل الا يعـود أبداً الى سمـاع صوت جيـرمان (الأقـرع) وأن تألف أن عظام صاحـبه سـتصيـر ، هى وعظام الزرزور ، تراباً ، وأن الدود سينخر الجسدين معاً دون مفاضلة ولاتمييز .

وأحس بشىء من الراحة وهـو يتحسّس فى جـيبه قـرشا مشـقوباً من وسطه . وفكّر : عندما سينتهون مـن الدفن سيذهب هو الى دكان انطونيو (الحوصـلة) لشراء قطعـة من السكاكر . ولما كـان من غيـر اللائق تناول الحلوى بعد دفن صـديق حميم فعليـه إذا الانتظار إلى الغد . وبدأوا بنزول العقبة من ناحيتها الشمالية مـتجهين صوب مقبرة الوادى الصغيرة . وكانت دقات النواقيس تكتسب، وقد مرّوا من ناحية الكنيسة ، تأثيراً نافذاً ومؤلماً. واجتاز الموكب منعطف الأبرشية ثم دخل المقـبرة ، وصرت بوابتها الحديدية حالمة ساخطة . لم يكن المكان يتسع للجميع . وأسرع قلب دانييل (البوم) النبض وهو يرى الحـفرة الصغيرة مـفتـوحة عند قدمـيه . كـانت مقـبرة

البلدة فاترة منزوية مريحة تحتوي على شجرتي سرو معمرتين متجهمتين ترتفعان عند سياج المقبرة الشرقي. لم يكن في المقبرة مرمر ولا تماثيل ولا أضرحة ولاقبور محفورة في الجدران ولا قبور مكسوة بالجدران. فالموتى تراب يعود إلى التراب ، يختلط به في اندفاع مباشر ، بل معيب ، الى الالتحام به والامتزاج معه ، لقد نمت حول الصلبان الكثيرة نباتات السرخس والقراص والنعناع وكل أصناف الحشائش البرية لكي تكون بمثابة عزاء لمن يرقد هناك محفوفا في الليل والنهار بروائح الحقل الذكية . كانت السماء متجهمة عابسة . كان المطر الخفي متواصلاً . وكان الحشد ، محتمياً بالمظلات ، يشكّل بقعة مسوّدة في لوحة رمزية باعثة على الرعشة والحزن . وأحسّ دانييل (البوم) بالبرد عندما بدأ دون خوسيه صلاته على النعش الموضوع عند حافة القبر .

كان يخيم على المكان صمت سمحت به مائة حسرة مكبوتة وألف دمعة محبوسة . والتفت (البوم) إذا أحسّ فوق حرارة يديه بحرارة يد صديقة انها أوكا - أوكا . كانت الطفلة تضيف الى ملامحها الطفولية وقاراً يوحي بعجز وخضوع محزنين . كان سيروق لدانييل (البوم) لو انه كان مع أوكا - اوكا وحيدين عند النعش ليكون في امكانه أن يصبّ دموعه غزيرة على ضفائرها الذهبية . فكّر في هذا وهو يحسّ بين يديه بحرارة يد صديقة أخرى . كما أنه يأسف ، وهو ينظر الى النعش عند قدميه ، للجدل الذي نشب بينه وبين (الأقرع) حول صوت طيور الحجل أثناء الطيران وحول زقزقات أبي زريق وحول طعم الندب التي تخلفها الجروح . (الأقرع) الآن لايقدر على الدفاع عن نفسه ، ولكن دانييل (البوم) ، من أعماق روحه ، يرى أنه كان على حق دون قيد أوشرط كان صوت دون خوسيه يهتز ذلك المساء تحت المطر بنبرات حزينة وهو يرتل القدّاس الجنائزي :

- كريـاليسـون ، كرسـتـياليـسون ، كـرياليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وبعد هذا كان صوت الراهب يتحول الى همس غير مفهوم . وأحس (البوم) برغبة شديدة بالبكاء وهو يتأمـل الاسكافى مذعنا مستسلما . إنه لايشك ، وهو يراه على تـلك الحال ، أن انـدريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لن يعـود أبدا الى النظر الى سيقان النساء ، فقـد أصبح فجأة عجوزاً مرتعشاً منهكا غيـر معنى بالجنس ، وعندما أتم دون خوسيه الصلاة الثالثـة بسط ترينو قطعة من الخيش الى جـانب النعش فرمى اندريس فيـها ببيزيته . وارتفع صوت دون خوسيه من جديد :

- كريـاليسـون ، كرسـتـياليـسون ، كـرياليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وجاء دور (البيدق) فرمى بقطعة نـقدية على رقعة الخيش فرتّل دون خوسيه من جديد ، ثم تقرّب باكو الحداد ووضع عشرين سنتاً أعقبه كيـنو (الأقطع) فساهم بمبلغ طفيف ثم تتابع بعد ذلك كوكو ، مأمور المحطة ، وباسكوالون ، عامل الطاحونة، ودون رامون العمدة وانطونيو (الحوصلة) ولوكاس (الأبتر) والأرنبات الخمس والقيّمة على منزل (الماركيز) والجانو وكل رجال الـبلدة ونسائهـا ، وراحت رقعـة الخيش تمتلئ بالقطع بالنـقدية خفيفـة الوزن قليلة القيمة بينما راح دون خوسيـه ، وهو القدّيس الكبير ، يردد على كل عطية بصلاة فكأنه يقدم لهم الشكر :

- كريـاليسـون ، كرسـتـياليـسون ، كـرياليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

أما دانييل (البـوم) فكان يتشبث بقطعة نقوده ويحـشر يده فى جيب بنطاله . كان يـفكر لا ارادياً فى حلوى الليمون التـى سيأكلهـا فى غده . ولكنه ربط فجأة بين طعم حلواه ورقدة صاحبه الأخيرة ، وبدأ يقول لنفسه أن لا حق معه إذا يريد أن يتـمتع هو بحلوى الليمون بينما صديقـه يتفسّخ فى حفـرة الأرض . وبدأ يسحب قـرشه ببطء من جـيبه وهـو عازم على الالقـاء به الى رقعـة الخيش ، ولكن صـوتاً فى داخله أوقفـه : « كم من الوقت ستحتاج للحصول على قـرش آخر يابوم ؟ » فألقى به ثانية فى جيبه مدفوعاً بغريزة البخل البذيئـة . ثم تذكر حديثه مع (الأقرع) حول صوت الحجل عند الطيران فعاوده الألم من جديـد . وجثا ترينو على رقعة الخيش وأمسك بهـا من زواياها الأربع لحملهـا لكن دانييل (البوم) تقـدم صوب النعش ، بعد أن تخلّص من يد أوكا - أوكا المسكة بيده قائلاً :

- انتظر .

وتوجهت إلـيه كل العيـون وتملك دانييل (البـوم) لتلك النظرات ، شعور من تتساقط عليه قطرات المطر . ولكنه لم يأبه لذلك بل شعر باعتزاز كبير كذاك الذى غـمره يوم تسلقه عصا الكوكانيا . أخرج مـن جيبه قطعة نقوده اللمـاعة المثقـوبة من وسطها وألقى بها إلى رقـعة الخيش ثم تابعـها بعينيه وهى تدرج مسافة قـبل أن تنضمّ إلى الأخريات محدثة عند ارتطامها بهن رنّة طروباً . ومع صوت دون خوسيـه القس ، وهو القدّيس الكبير ، بلغته ابتسامة (الأقرع) صادرة من قاع تابوته الأبيض المطلى بالورنيش .

- كريـاليسـون ، كرسـتـياليـسون ، كـرياليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وبعد انتهاء دون خوسيه أنزلوا التابوت فى القبر وأهالوا عليه تراباً كثيراً . ثم راح المشيّعون يغادرون المقبرة ببطء . كان الظلام يهبط والمطر يشتد ، وقد علت أصوات نعال الناس العائدين الى البلدة يجرّونها جرّاً .

وعندما وجد دانييل (البوم) نفسه وحيداً اقترب من قبر صاحبه ، رسم علامة الصليب ثم قال :

- لقد كنت على حق يا (أقرع) ، فالحجل عند الطيران تصبح « بررررر » وليس « يررررر » .

وهمّ بالانصراف لكن فكرة أخرى عادت به من جديد ، فعاود التصليب وقال :

- ومعذرة عن الزرزور .

كانت ماريوكا - أوكا فى انتظاره عند بوابة المقبرة . أخذت بيده دون أن تقول له شيئاً ، فأحسّ (البوم) برغبةشديدة بالبكاء تجتاحه من جديد ، ولكنه احتوى ألمه ودموعه فقد كان (البعرور) يسير أمامه على بعد عشر خطوات منه ويلتفت بين الحين والحين ليتحقق إن كان صاحبه يبكى .

الفصل الحادي والعشرون

راح الضوء يحف بدانييل (البوم) من دون أن يشعر هذا به ، وراحت النجوم تنمحى من قطعة السماء المحددة بإطار النافذة ، وعلى خلفية الأرض البيضاء راحت قمة جبل راندو تكتسب لوناً أخضر فى الوقت الذى راحت فيه الشحارير والبلابل وطيور أبى زريق والخضيرى تردد أنغامها الصباحية بين الأحراج. كانت الأشياء تكتسب فى المحيط حدودها ، وترسم تدريجياً أحجامها وألوانها ومقابلاتها وكان الوادى يستقبل يومه الجديد ببهجة زكية الرائحة ويفرح نباتى أخضر وكانت الروائح تشتدّ وتزداد كثافة وحضوراً فى محيط الجو الساكن الهادئ .

وانتبه دانييل (البوم) عندها الى أنه لم تغمض له عين طوال الليل والى أن حكاية الوادى القصيرة والقريبة تسطّر فى ذهنه بترف تفصيلى عجيب . ألقى بنظرة من خلال النافذة ، ثم حط بها على قمة جبل راندو الحادة الموحشة . وأحسّ لحظتها أن حيوية الوادى تتغلغل فيه كاملة غير منتظمة وأنه يهب حيويته الى الوادى فى رغبة شديدة بالانصهار وبالتداخل المتكامل الحميم . كانا متعاهدين مع بعضهما فى تطلع محموم لحماية متبادلة ، فقد كان دانييل (البوم) يدرك أن شيئين تكيّف كل منهما على طريقة الآخر ومقياسه يجب ألا يفترقا أبداً . مع ذلك فان قناعته بفراق قريب كان يقض مضجعه فيسكّن من تعب جفنيه . فبعد ساعتين ، وربما أقل ، سيقول وداعاً للوادى ، سيركب القطار ويهرب الى المدينة البعيدة ليبدأ التقدم . انه ليأسف على أن رحيله يجب أن يحدث الآن ،جيل

يتحلى الوادى بسوداوية الخريف الناعمة ، وحين يمنح كوكو ، مأمور المحطة ، برنيطة حمراء رائعة . وما أقل ما تتوافق التغييرات الكبيرة مع الحالة المعنوية الخاصة التى نعيشها .

كان ذلك الوداع يؤلم دانييل (البوم) ، وهو ما لم يشك فيه أبداً . وما ذنبه فى أن يكون عاطفياً مرهف الإحساس ؟ وما ذنبه فى أن يرتبط الوادى به على ذلك النحو الطاغى المؤلم ؟ إنه غير معني بالتقدم ، والتقدم عنده لايساوى فى الحقيقة قرشاً . تهمه ، بالمقابل ، القاطرات ، يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة ، وبركة الإنكليزى وتيارات النهر الصاخبة المجنونة ، وملعب البولو ودقات أجراس النواقيس فى الأبرشية ، وقط (الفلفلة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة ، وصياغة قطعة الروث بعناية ووقار وفن ، وتهمه الزاوية الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ، وكذلك نقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ونمش أوكا - أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال المنزل ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء . ولكن عليه الآن أن يترك كل هذا من أجل التقدم ، لأنه ما يزال غير مستقل ولاقادر على اتخاذ القرار ، ولأن القدرة على اتخاذ القرار تتوفر للانسان عندما لايكون فى حاجة اليها ، وعندما لايستطيع أن يتخلى ، ولو ليوم واحد ، عن عربة يجرّها أو حجارة ينقّرها دون أن ينام ليلته جائعاً . فما قيمة القدرة على القرار إذاً ؟ إن الحياة لشرّ من عرف من الطغاة ، لأنها عندما تأخذ بتلابيب أحدنا فلا معنى لقدرته على اتخاذ القرار أما هو فمازال فى وضع يسمح له باتخاذ القرار ، ولكن سنواته الإحدى عشرة

تعطى الحق لأبيه بأن يقرر نيابة عنه. فلماذا ، ياالهى ، لماذا ينظم العالم على هذا النحو الردىء ؟ أما الجبّان فقد كان يشعر ، بعيداً عن حالة ولده المعنوية ، بالفخر لاتخاذه القرار وتمكنه من تحقيقه ، وهو ما لايقدر عليه آخرون غيره . لقد طاف بولده ، عشية ذلك اليوم ، البلدة لوداع أهلها :

- سيذهب الولد الى المدينة غداً ، فقد بلغ الحادية عشرة وحان الوقت ليبدأ الشهادة .

وتسمّر الجبّان ينظر الى ولده فكأنه يقول له : « وماذا على الطالب ان يقول ؟ » ولكن (البوم) كان ينظر محزوناً الى الأرض ، فما كان لديه ما يقول ، وأن عليه أن يطيع وحسب .

كان جميع أهل البلدة يبدون عاطفة وودا ، بل إن بعضهم بالغ فى التعبير عن ذلك فكأنه ارتاح كثيراً وهو يسمع بأن دانييل (البوم) سيغرب ، بعد ساعات قليلة ، عن أنظارهم ولوقت طويل . لقد ربت الجميع تقريباً على قفاه ، وأعربوا صراحة عن أملهم وأمانيهم الطيبة :

- لنر إن عدت الينا وقد صرت رجلاً .

- حسناً يافتى ، ستصبح وزيراً ، وحينها سنطلق اسمك على أحد شوارع البلدة أو على الساحة ، وستأتى أنت لازاحة الستارة عن اللوحة التذكارية ثم سنأكل معا فى البلدة ، سنشرب ، يومها ، حد السكر .

وغمز له باكو الحداد بعينه بينما كان شعره الأحمر يصدر بريقاً لامعاً . وكانت (الفلفلة) الكبرى واحدة من أشد الفرحين لسماع خبر سفر دانييل .

- من المناسب جداً أن تؤدب وتهـذّب قليلاً ياولدى . هذه حقـيقة ، وأنت تعرف انني صـريحة . ولنر ان كانوا سيـعلمونك فى المدينة ان ترأف بالحيوان وألا تسـير فى شوارع البلدة بجلدك وأن تنشد « الرعـاية الإلهية » على الأصول. - وتوقـفت عن الكلام ثم نادت : - كينو ، دانييل مـسافر إلى المدينة وقد جاء ليودعنا ، ونزل كينو (الأقطع)،وعندما نظر (البوم) عن كثب إلى فضلة يده تأججت فى داخله الذكريات وأحس بانقباض خانق مؤلـم فى صدره . أما كـينو فـقد شعـر هو كذلك بـالحزن لفقـدان ذلك الصديق وراح يضـرب حنكه بفضلة يده مداراة لألمه وتبسم قائلاً :

- حسنا أيها الفتى ، ومن يبـلغ ما بلغت ؟ . . . المهم . . . أكرر ما قلت . - ولم يلحـظ كينـو (الأقطع) ، الغـارق فى همـه ، أنه لم يقل شيئاً - حالفك التوفيق .

وجـادل بانجو (الملحـد) الجبّـان لارسـاله ولده الى مدرسـة يديرها الرهبان ، ولكن الجبّان لم يمنحة الفرصة لينفس عما فى قلبه :

- لقد جـئت بالولد ليودعك أنت وأهلك لا لأناقشك حـول إن كان الواجب أن يدرس على يد راهب دينى أم على يد معلم دنيوى .

وضـحك بانجـو وأطلق كلمـة بذيئـة وتمنى على دانيـيل لو أنه درس ليصبح طبـيباً ويعود الى البلدة ليأخـذ مكانا دون ريكاردو والذى عاد بليداً هرماً ، ثم توجّه بالكلام الى الجبّان وهو يضربه على كتفه :

- ما أسرع ما يمضى الوقت يافتى .

وردّ الجبّان قائلاً :

- وما فرقنا عن الآخرين ؟

وكان (البيدق) هو الآخر لطيفاً معهما ، فقال للأب ان بانتظار دانييل مستقبلاً كبيراً لو أنه انكب على الدراسة بجد ، وأضاف طالباً منهما أن يتأملا سيرته ، فقد خرج هو الآخر من العدم ، ولم يكن شيئاً مهماً ، ولكنه بكدّه واجتهاده أكمل تعليمه وتفوّق . ويلغ من الزهو بنفسه انه بدأ يلوى فمه بانفعال وتشنج ، ولما أوشك على أن يبلغ بفمه سالفته الطويلة السوداء تركاه ، مودعين ، لحركات فمه ولزهو نفسه ولاحتدام انفعالاته .

أما دون خوسيه ، وكان قديساً عظيماً ، فقد زوده بنصائح مفيدة وتمنى له نجاحات أكبر . وكان يلاحظ على القس من بعيد أنه كان متألماً لفراق الصبي . أما دانييل (البوم) فقد تذكّر موعظته يوم العذراء ، عندما قال بأن لكل شخص طريقه المرسوم فى الحياة ، وبأن الطموح والشهوات قد تحرفه عن هذا الطريق ، وأن بأمكان المتسول أن يكون أغنى من المليونير فى قصره المرمرى الذى يعج بالخدم .

وفكّر دانييل ، وهو يتذكّر ذلك ، فى أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة فى داخله . ولفه الحزن عندما خطر على باله أنه قد لايجد ، لدى عودته ، دون خوسيه فى كرسى الاعتراف ، وهو يدعوه بالـ « غجرى » بل فى إحدى زوايا الأبرشية وقد تحول الى قديس ذى أكليل ومنصّة، أما جسده ، فى هذه الحالة ، فسيتفسخ الى جنب جسد جيرمان (الأقرع) فى مقبرة السروتين المجاورة للكنيسة . ونظر بإمعان الى دون خوسيه وقد أعياه الإحساس بأنه لن يراه ثانية وهو يتكلم أو وهو يحرّك عينيه الغمصاوين الحادتين أو وهو يصوبهما . وأوشك ، حين مرّا بعزبة (الأمريكى) ، أن يحزن ، وهو يفكر فى ميكا التى ستتزوج قريبا فى المدينة ، لكنه لم يشعر بالضيق لعدم تمكنه من رؤيتها ، بل بالحاجة الى مغادرة الوادى دون أن تراه وتشفق عليه وتحسبه بائسا شقياً .

أما (البـعرور) فلم يشأ أن يودعـه لأنه سيراه فى المحطة صبـاحاً .
سيعانقه بحرارة وسيراقـبه ان كان قادراً على أن يكون رجلاً حتى النهاية .
وما أكثر ما نبّهه (البعرور) الى ذلك :

– عند السفـر ، عليك ألا تبكى. فالرجل لايبـكى وإن مات أبوه فى بحر من الآلام المبرحة .

كان دانيـيل (البوم) يتـذكر بحنين ليـلته الأخيـرة فى الوادى . ولما تقلّب على سريره لمعت من جديد قمة راندو التى أضـاءتها خيوط الشمس الأولى . وارتعـشت أرنبـات أنفه إذ شـعر بـرائحة عـشب ندى وروث . وانتفض فـجأة . فالـوادى لم يستيـقظ بعد ، مع ذلك فـقد طرق سمـعه صوت آدمي . وأنصت فجاءه الصوت ثانية بعـد أن تعمد صاحبه أن يكون خافتاً :

– بوم .

وقفز مـن سريره مضطرباً ، وأطلّ على الطريق العام ، انـها أوكا – أوكا ، تقف هناك على الإسفلت حـاملة بيدها دلواً صغيراً فـارغاً . كانت عيناها تبرقان بغرابة :

–بوم . أنا ذاهبة الى كويّرا لأجلب اللبن . لن أستطيع أن أودّعك فى المحطة .

وأحسّ دانيـيل (البوم) ، وهو يسـمع صوت الطفلة الحلـو الجاد ، بنياط شيء حميم جداً فى صدره تتـقطع . كانت تحرّك دلو اللبن كالرقاص دون أن تكف عن النظـر الى (البـوم) ، وكانـت جـدائلهـا تلمع لنور الشمس :

– الى اللقاء أوكا – أوكا – قال (البوم) وفى صوته رعشة غريبة .

- هل ستذكرني ، بوم ؟

وأسند هذا كوعيه على إفريز النافذة ممسكاً رأسه بيده ، كان يخجل أن يقول لها ذلك ، ولكنها فرصته الأخيرة :

- أوكا - أوكا . لاتسمحى للفلفلة أن تزيل النمش من وجهك . هل سمعت ؟ لا أريد ان يزيلوه من وجهك .

وارتدّ عن النافذة لأنه شعر انه سيبكى ، وهو لايريد أن تراه أوكا - اوكا وهو يبكى . وعندما بدأ بارتداء ملابسه ، غزاه احساس واضح متوقد بأنه يسلك طريقاً غير الذى قدّره له الرب . وبكى .

إيضاحات معنوية

دورو كــوارتو بيـــزته	= عملات إسبانية ذات أقيام بسيطة .

الحرب : يريد بها الحرب الأهلية الإسبانية التى جرت بين أعوام ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .

الموس : لعبة من ألعاب القمار .

ديماس الآخر : ويعرف أيضاً باللص الصالح . وقـد صلب وعلّق جسده على يمين جسد السـيد المسيح .

مودى : هى كلمة تطلق عموماً على المسلم وخصوصاً على مسلمى الشمال الأفريقى .

الأمـريكى : وهـى فى الأصل الـ indiano وهى كلمـة تطلـق على من هاجـر من الإسبان إلى المكسيك أو الى أمريكا وعاد ثرياً .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدي أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد علي
٤٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ – الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوبيا وخ. م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسي سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : علي يوسف علي
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود علي مكي
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبري محمد عبد الغني
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف . محمد الجوهري
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعي .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت . أحمد فؤاد متولي وهويدا محمد فهمي
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمي	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز — ت . س . إليوت — ت : فؤاد مجلى

٧٣ – نقد استجابة القارئ — جين . ب . تومبكنز — ت : حسن ناظم وعلى حاكم

٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر — ل . ا . سيمينوفا — ت : حسن بيومى

٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية — أندريه موروا — ت : أحمد درويش

٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى — مجموعة من الكتاب — ت : عبد المقصود عبد الكريم

٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣ — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد

٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية — رونالد روبرتسون — ت : أحمد محمود ونورا أمين

٧٩ – شعرية التأليف — بوريس أوسبنسكى — ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى

٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع» — ألكسندر بوشكين — ت : مكارم الغمرى

٨١ – الجماعات المتخيلة — بندكت أندرسن — ت : محمد طارق الشرقاوى

٨٢ – مسرح ميجيل — ميجيل دى أونامونو — ت : محمود السيد على

٨٣ – مختارات — غوتفريد بن — ت : خالد المعالى

٨٤ – موسوعة الأدب والنقد — مجموعة من الكتاب — ت : عبد الحميد شيحة

٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية) — صلاح زكى أقطاى — ت : عبد الرازق بركات

٨٦ – طول الليل — جمال مير صادقى — ت : أحمد فتحى يوسف شتا

٨٧ – نون والقلم — جلال آل أحمد — ت : ماجدة العنانى

٨٨ – الابتلاء بالتغرب — جلال آل أحمد — ت : إبراهيم الدسوقى شتا

٨٩ – الطريق الثالث — أنتونى جيدنز — ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين

٩٠ – وسم السيف (قصص) — نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية — ت : محمد إبراهيم مبروك

٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق — باربر الاسوستكا — ت : محمد هناء عبد الفتاح

٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر — كارلوس ميجل — ت : نادية جمال الدين

٩٣ – محدثات العولمة — مايك فيذرستون وسكوت لاش — ت : عبد الوهاب علوب

٩٤ – الحب الأول والصحبة — صمويل بيكيت — ت : فوزية العشماوى

٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى — أنطونيو بويرو باييخو — ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف

٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة — قصص مختارة — ت : إدوار الخراط

٩٧ – هوية فرنسا (مج ١) — فرنان بروديل — ت : بشير السباعى

٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى — نماذج ومقالات — ت : أشرف الصباغ

٩٩ – تاريخ السينما العالمية — ديفيد روبنسون — ت : إبراهيم قنديل

١٠٠ – مساءلة العولمة — بول هيرست وجراهام تومبسون — ت : إبراهيم فتحى

١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج) — بيرنار فاليط — ت : رشيد بنحدو

١٠٢ – السياسة والتسامح — عبد الكريم الخطيبى — ت : عز الدين الكتانى الإدريسى

١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء — عبد الوهاب المؤدب — ت : محمد بنيس

١٠٤ – أوبرا ماهوجنى — برتولت بريشت — ت : عبد الغفار مكاوى

١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع — جيرار جينيت — ت : عبد العزيز شبيل

١٠٦ – الأدب الأندلسى — د. ماريا خيسوس روبييرامتى — ت : أشرف على دعدور

١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر — نخبة — ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادي بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورب ديفي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيفال	ريشارد فاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

العنوان	المؤلف	المترجم
١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتّاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أتيال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت . مجموعة من المترجمين
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت . سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت . محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا

(تحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
أنطوان تشيخوف
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علمًا جديدًا
مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى

النقد الأدبى الأمريكى
موت الأدب
عن الذباب والفئران والبشر
العولمة والتحرير
علم اجتماع العلوم
الكلام رأسمال
محاورات كونفوشيوس
رحلة إبراهيم بيك
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان
شتاء ٨٤
الشعر والشاعرية
ديوان شمس
عامل المنجم
مصر أرض الوادى
الدرافيل أو الجيل الجديد
سحر مصر
أسفار العهد القديم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

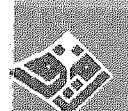
رقم الإيداع ٥٥٩٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 204 - 4)









ELCAMINO

« أبنائي ، لكل منا في الواقع طريق محدّد في الحياة علينا أن نواصله دائمًا وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذى خصّصه الله لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع في نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن في الأعلى ولا في الأكبر ولا في الأرفع ولا في الأشهر ، بل في اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعًا » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذى جعله الروائى الإسبانى ميغيل دليبيس (١٩٢٠) عنوانًا لروايته التى ظهرت عام ١٩٥٠ .

تعد هذه الرواية هى البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبيس الروائى ، وصُنّفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية ، وصدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس ، كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبيس فقد صار - بعد صدور هذه الرواية - واحداً من أبرز روائيى إسبانيا المعاصرين .

